

— ٣ —

الخلفاء الراشدون

محمود شاكر

المكتب الاسلامي

الطبعة الثامنة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

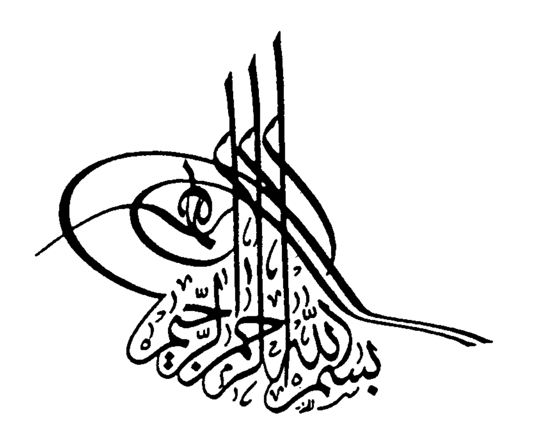
المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



— ٣ —

الخلفاء الراشدون



توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وَبَعْد

فإن المدة القليلة التي لا تزيد على الثلاثين سنة بعد رسول الله ﷺ يطلق عليها الخلافة الراشدة، والتي تعاقب عليها أربعة خلفاء فقط، وذلك لأنهم ساروا على نهج رسول الله ﷺ، حسب الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لعباده، فكانت هذه المدة إذن تتمة لحكم رسول الله ﷺ، وبذا تكون الدولة الإسلامية التي قامت في المدينة المنورة منذ أن وصل إليها رسول الله ﷺ في بداية الهجرة وإلى مقتل سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، سنة أربعين من الهجرة هي الصورة الصحيحة للحكم الإسلامي كمدة متصلة، ولم تعد بعدها مرة أخرى على وجه الأرض في كل جوانبها ومعطياتها، وإنما أخذت بعض الجوانب الشكل العام لمدة قصيرة كما حدث أيام سيدنا عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أو بعض أجزاء في صور في عصور شتى في حياة بعض المصلحين من الحكام، وهي القدوة لكل حاكم يريد لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة ولشعبه الصلاح والحياة السعيدة، وهي الشكل من الحكم الذي يطالب به المسلمون حكامهم للسير على نهجه، ويدعون إلى تطبيقه فيما إذا آلت إليهم دفة الحكم، وتسيير شؤون الدولة.

وما هذه المطالبة من قبل المسلمين بالسير على منهج الدولة الإسلامية والدعوة إلى ذلك إلا لأن الحضارة في هذه المدة قد بلغت أوجها، والحضارة التي نعنيها هنا هي التي تنبع من عقيدة المسلم، والتي هي تحقق سعادة الإنسان، وليست الحضارة المادية التي تستعبد الإنسان وتذله، وتطلق له عنان شهواته، وتخضعه لبهيميته، فينشأ الصراع، وتكثر المفاسد، وتعم

الجرائم، ويستبد القوي، ويطغى الغني، وتتحكم مجموعة من اللصوص لتحقيق رغباتها وتأمين مصالحها، وهذا الذي يجمعها بعضها إلى بعض، وأصبحت الحضارة عندهم غايةً شخصيةً وليست غاية كل فرد من أفراد المجتمع كما يجب أن تكون.

لقد أعطى الإسلام الإنسان الصورة الصحيحة عن الحياة، فعرّفه أنه ليس أعظم مخلوق في هذا الكون بما منحه الله من ميزات يحق له أن يتغطرس، ويظلم الآخرين من بني البشر، كما أنه ليس هناك من أمة أعلى من أمة يحق لها السيطرة والطغيان على غيرها، وفي الوقت نفسه فالإنسان ليس مخلوقاً وضيعاً لا قيمة له أمام الكائنات الثانية الأمر الذي يجعله خاضعاً لها يسجد لها ويعبدها، كما فعل الوثنيون الذين عبدوا الشمس، والقمر، والنجوم، والأشجار سواء أكان ذلك في القديم أم في العصر الحديث، وإنما الإنسان مخلوق مكرم مستخلف في هذه الأرض. ولم يكن هذا الاستخلاف ليجعل الإنسان مستقلاً بأمره يفعل ما يشاء بمحض إرادته، وإنما هو مسؤول أمام الله الذي خلقه، واستخلفه، ورسم له المنهج الذي ينظم أمور حياته، مسؤول عن كل ما يفعل، وعن كل ما ينتج عن فعله، فإن أحسن كوفئ أفضل مكافأة، وإن أساء عوقب على قدر الإساءة. فالإنسان المسلم مقر بسيادة مولاه على ما يملك وكل ما تحت يده هو، ومسؤول: أمام ربه عن كل فعل، وفي الوقت نفسه فهو بهذا المنصب من الاستخلاف يعد أعلى ممن سواه من المخلوقات الأخرى.

ومن هذا المنطلق فإن كل فرد مسلم في المجتمع كان يأخذ دوره كاملاً نتيجة وعيه الصحيح ومعرفة الموقع الذي هو فيه، وكان عضواً صالحاً في المجتمع، ويؤلف لبنة من لبنات البناء المتماسك بعضه مع بعض، وبذا تكوّن المجتمع الصالح، وبسبب ذلك وبسبب الوعي الروحي كان الانطلاق للجهاد تلقائياً للحصول على الشهادة فكانت الانتصارات، وكانت الفتوحات الواسعة، وكان المسؤولون وهم الخلفاء أكثر عناصر المجتمع إدراكاً لهذه الموضوعات وتفهماً لمعطياتها. لذا فقد سادت الحضارة الإنسانية، وحصل

الأفراد على السعادة التامة في المساواة، والعدل، والأمن، والطمأنينة، والحاجات الأساسية كلها، وتأمنت الرفاهية. ويمكن أن نعطي أمثلة مقارنة بين الخلفاء الراشدين وحكام هذا العصر، لنرى الفارق البين بين من صبغه الإسلام بصبغته وبين من طغت عليه المادة والمصالح الدنيوية فطبعته بطابعها، ولما كانت حياة الخلفاء الراشدين صورة واحدة تقريباً، لذا سنجتزئ صوراً منها وهي الشائعة بين الناس السائرة على ألسنة المجتمع، لنصل إلى النتيجة التالية: وهي أن الناس يعرفون المعرفة العامة لحياة الراشدين الذين يعدونهم قدوة لهم، ولكن لا يستطيعون مطالبة الحكام بذلك، حيث الطغيان قائم، والظلم شديد، والناس على رغبة شديدة بتطبيق الإسلام، وعندما يرون أول بادرة لذلك فإنهم ينطلقون وراءها، ويعملون لها بكل إخلاص وتضحية، ويمكن أن نلاحظ هذا في إيران التي قطعت شوطاً بعيداً في المفاسد أيام حكم الشاه، حتى نستطيع أن نقول إنها سبقت غيرها من دول العالم الإسلامي كله، وتسلط سيف الشاه أكثر من غيره أيضاً، وكانت قوة المخابرات السرية تفوق كل ما سواها، ووضعت الدول الأجنبية صاحبة المصالح النفطية كل طاقاتها للمحافظة على الوضع ومراقبة كل تحرك يهدف إلى تغيير النظم، إلا أن المجتمع عندما رأى الاتجاه نحو الإسلام في الحركة المعادية للشاه انطلق يدعمها، وفوجئت الدول الأجنبية بهذا التحرك، وهذا التغير الذي حدث سريعاً نحو الإسلام، ولم تكن لتتوقع ذلك، لذا فالمفاجأة كانت بالنسبة لها صدمة كبيرة إذ ضاعت مصالحها وساد الإسلام ـ حسب المفهوم الذي رفع رايته أولئك الذين دعوا إليه وعملوا له، وهو أصعب الأمور بالنسبة لها وأكثرها مرارة ـ وستكون الصور التي سنعطيها عن الخلفاء الراشدين بما يتعلق بالحياة الاجتماعية بالدرجة الأولى، لما لها من علاقة في الحياة العامة.

لقد كان الخلفاء الراشدون على أعلى مثل من التواضع، إذ كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب أغنام الحي الذي يقيم فيه وهو السنح، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منايح

(أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهن. وبقي على ذلك ما أقام في السنح، فلما انتقل إلى المدينة بعد ستة أشهر من توليه الخلافة ترك ذلك بالضرورة.

وكان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، إذا سقط خطام ناقته ينزل ليأخذه، فيقال له: لو أمرتنا أن نناولكه، فيقول: أمرنا رسول الله ﷺ ألا نسأل الناس شيئاً.

هذا التواضع قد فُقد بعد تلك الصفوة إلا من رحم ربك، وغدا الرجل إذا تسلم المسؤولية ترفّع عن الناس، وأصبح لا يكلمهم إلا من وراء حجاب، وبأنف شامخ، وبعد اجتياز عدد من السدود والأسوار من الجند والمخابرات العامة منها، والسرية.

ولننظر إلى جانب آخر من المصلحة العامة وهو السهر من قبل المسؤول الأول على حياة رعيته وشؤونهم، فقد كان الخليفة يتجول في النهار في الأسواق، ويسأل عن شؤون الناس، ويتجول في الليل يتفقد أحوال الأمة والمحتاجين، والذين يبيتون حول المدينة من الأعراب والتجار والمنقطعين ومن ألجأتهم الحاجة إلى ذلك، يؤمن لهم حاجاتهم. فبينما كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعس في المدينة ليلاً أتى على امرأة من الأنصار تحمل قربة، فسألها عن شأنها، فذكرت أن لها عيالاً، وأنه ليس لها خادم، وأنها تخرج في الليل فتسقيهم الماء، وتكره أن تخرج بالنهار، فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها، وقال: اغدي على عمر غدوة يخدمك خادماً. قالت: لا أصل إليه، قال: إنك ستجدينه إن شاء الله تعالى. فغدت عليه فإذا هي به، فعرفت أنه الذي حمل قربتها، فذهبت تولي! فأرسل في أثرها، وأمر لها بخادم ونفقة.

أما بعد ذلك العصر فالحاكم لا يجرؤ على مغادرة مقره، بل لا يستطيع زيارة أهله، وصلة رحمه، وإذا خرج كانت المخابرات السرية أرتالاً من أمامه، وأنساقاً من ورائه، وكان رجال الأمن صفوفاً ولمسافات طويلة،

وينتشر بعضهم على جنبات الطريق، والسيارات المتشابهة تسارع الريح، وتنطلق بعضها إثر بعض حتى لا يُعرف الحاكم في أيها يكون.

ولننظر إلى الجانب المالي الذي عليه مدار الحياة حسنه وسيئه. لقد كان أبو بكر، رضي الله عنه، رجلاً تاجراً يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، فلما استخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر، وأبو عبيدة فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقالا: انطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً. فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة.

وجاء في الرياض النضرة أن رزقه الذي فرضوه له خمسون ومائتا دينار في السنة وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها، فلم يكن يكفيه ذلك وعياله، وكان قد ألقى كل دينار ودرهم عنده في بيت مال المسلمين، فخرج إلى البقيع فتصافق (بايع)، فجاء عمر، رضي الله عنه، فإذا هو بنسوة جلوس، فقال: ما شأنكن؟ قلن: نريد خليفة رسول الله ﷺ، فانطلق يطلبه فوجده في السوق، فأخذه بيده فقال: تعال ها هنا. فقال: لا حاجة لي في إمارتكم، رزقتموني مالا يكفيني وعيالي. قال: فإنا نزيدك. قال أبو بكر: ثلاثمائة دينار والشاة كلها، قال عمر: أما هذا فلا! فجاء علي، رضي الله عنه، وهما على حالهما تلك، قال: أكملها له. قال ترى ذلك؟ قال: نعم، قال: قد فعلنا. قال أبو بكر: أنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أيرضى بها بقية المهاجرين أم لا؟ وانطلق أبو بكر، رضي الله عنه، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فقال: أيها الناس إن رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاة يؤخذ مني بطنها، ورأسها وأكارعها، وإن عمر وعلياً أكملا لي ثلاثمائة دينار والشاة. أفرضيتم؟ قال المهاجرون: اللهم نعم؟ قد رضينا. فقال أعرابي من جانب المسجد: لا والله ما رضينا فأين حق أهل البادية؟ قال أبو بكر: إذا رضي المهاجرون شيئاً فإنما أنتم تبع.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعمل بالتجارة أيضاً، فلما

ولي الأمر لم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته، لأنه اشتغل عنها بأمور الرعية، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم فقال: إني كنت امرءاً تاجراً، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون أنه يصلح لي من هذا المال؟ فقال عثمان، رضي الله عنه، كل وأطعم، وقال ذلك سعيد بن زيد، وأكثر القوم، وعلي، رضي الله عنه، ساكت، فقال له: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا الأمر غيره. فقال عمر: القول ما قال علي بن أبي طالب.

وكان عثمان، رضي الله عنه، إذا أعطى الأعطيات، وزع من ماله الخاص أيضاً إلى الذين لا تكفيهم أعطياتهم، وهو المعروف بكرمه، وصدقاته، وبذله ماله في الجهاد.

وكان علي، رضي الله عنه، شأنه شأن عمر، رضي الله عنه.

وأين نحن اليوم من أولئك الصحابة رضوان الله عليهم؟ فإن الخزينة أضحت بعدهم بيد الحكام ينفقون كيف يشاءون، ويتصرفون كما يريدون، كما أصبحت لهم نفقات مستورة لا حصر لها، وفوق هذا فقد تكدست لهم الأموال في المصارف خارج البلاد، حتى غدت دول أجنبية تعيش على هذه الأموال لكثرتها، وأكثرها يعود إلى حكام أمراء المسلمين، مع أنه قد ظهر أن هذه الأموال مهما بلغت، والعقارات مهما كثرت، فإنها لا تكفي شيئاً، ولا تغني صاحبها شيئاً؛ فإن الشاه وضخامة ما يملك ومع ذلك فإنه لم يجد أرضاً تقبله ليأوي إليها، هذا في الدنيا، وله في الآخرة عذاب عظيم، وذلك جزاء الظالمين.

ولعل أفضل حكمة تقال عن المال ما قاله عبادة بن الصامت[1]،

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد: صحابي من الموصوفين بالورع. وشهد العقبة ـ وكان أحد النقباء ـ وبدرا وسائر المشاهد. ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، كان طويلاً شديد السمرة، توفي ببيت المقدس عام ٣٤هـ.

رضي الله عنه، للمقوقس حاكم مصر قبل فتحها أثناء حديثه معه «لو كانت الدنيا كلها لنا، ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه».

ولننظر إلى جانب من جوانب المساواة في عهد الراشدين، أتت علياً، رضي الله عنه، امرأتان تسألانه، عربية ومولاة لها. فأمر لكل واحدة منهما بكُرٍ من طعام، وأربعين درهماً. فأخذت المولاة الذي أعطيت وذهبت. وقالت العربية: يا أمير المؤمنين! تعطيني مثل الذي أعطيت هذه وأنا عربية وهي مولاة؟ قال لها علي، رضي الله عنه: إني نظرت في كتاب الله عز وجل فلم أر فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

وجاء جعدة بن هبيرة إلى علي ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يا أمير المؤمنين! يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه وأهله وماله. والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا! فلهزه، علي رضي الله عنه، وقال: إنّ هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء من الله.

لا شك بأن حكاماً هذا عملهم، وهذا دأبهم ستستقيم رعيتهم، وسينظرون إليهم بعين التقدير والإكبار، وسيشعرون أنهم في طمأنينة، وسيعيشون في أمن وسلام، كل آمن على نفسه، وماله، وعرضه، وستكون عندها السعادة. ولا شك بأن في كل مجتمع وفي أي وقت عناصر تحاول الإساءة، وتسعى للفساد، وترغب في مصالحها الخاصة، إلا أن أعين الخلفاء الراشدين لم تكن غافلة عنهم بل كانت لهم بالمرصاد، تجبرهم على الاستقامة والسير على الطريق المستقيم، وذلك بالقوة إن لم تجد معهم النصيحة، إذ لم يكن سلوك أولئك الخلفاء نتيجة ضعف وخوف، وإنما نتيجة التربية الإسلامية السليمة، والخوف من الله سبحانه وتعالى، والسير على منهجه.

ولا شك بأن الإسلام هو الذي تربى عليه هؤلاء الخلفاء فكانوا أئمة، وكذلك نشأت عليه الرعية فخافت الله واتقته، فنصحت لأئمتها ولسائر

المسلمين، وشعرت بأخوتها لكل أبناء مجتمعها فكانت الأمة الفاضلة، وخير أمة أخرجت للناس، وذلك ما داموا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. فكان الأفراد ينصحون أمراءهم فيقبلون منهم، ويأمرونهم بالحق فيلبون، فقد وقف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مرة على المنبر وقال: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا كذا (وميل رأسه). فقام إليه رجل فقال: أجل كنا نقول بالسيف كذا (وأشار إلى القطع). فقال عمر: إياي تعني بقولك؟ قال: نعم إياك أعني بقولي. فقال عمر: رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا اعوججت قومني. وكانت النساء تطلبنَ من أزواجهن قبل الخروج للعمل: أن يتقوا الله فيهن وبطعامهن، فإنهن يصبرن على الجوع ولكن لا يصبرن على الطعام الحرام.

تاريخ هذه المرحلة

لكل أمة تاريخ يسجله أبناؤها بصورة ما، فإذا كانت هناك أخطاء فيه وضّحوا الظروف التي أدت إلى وقوع الأخطاء حتى ليجد القارئ أن العذر معهم في تصرفاتهم، فيسوّغ بذلك لهم أعمالهم، فيبقيهم في نظر الناس رجالاً مخلصين، وتشعر الأجيال من أمتهم أنهم أمة مجيدة، يفخر فيها الخلف، ويعتز بها الأبناء، ويأخذ الجيل العبر من أخطاء الأجداد، ويحاول عدم الوقوع فيها، وأن بناء أمته إنما كان بشكل سليم، وفي الوقت نفسه فإن الأحفاد يعرضون الجيد من تاريخهم بشكل رائع وبصورة براقة توضح عظمة الأمة وماضيها الحافل بالأمجاد، وفي كلا الحالين يبقى التاريخ مفخرة للأجيال.

أما الأمة المسلمة فقد اعترى ـ مع الأسف ـ تاريخها الشيء الكثير من التشويه بسبب الفرق التي وجدت، حيث يحاول كل منهم أن يضع من شأن الآخرين، ويعدهم معتدين على حقوق غيرهم، وذلك ليعلي مركز من يتبعهم أو يعمل لهم أو يعتقد بصلاحهم دون سواهم، وبذا حدثت ثغرات في تاريخ العظماء، ثم سلطت الأضواء على نقاط الخلاف، وهُوّل من شأن القتال الذي حدث بين الأطراف، حتى غدا تاريخنا كله قتالاً ومعارك بين الفريقين وأعطيت هذه المعارك أكبر من حجمها، وصورت بأكثر من واقعها، وصار لا يذكر غيرها من الصفحات المشرقة في هذه المرحلة، والأفضل أن تسوّغ هذه المعارك بالظروف التي أدت إلى حدوثها.

من الأمة المسلمة من أحب علياً، رضي الله عنه، حبّاً أفسد عليه أمره كله، فنسب إليه ما لا يُقبل من الحوادث والأخبار، ومن خلال هذا الحب

حاول أن يضع من شأن غيره، ويعد الآخرين معتدين على حقه ظالمين له، ولأنفسهم، بل زاد به ذلك الحب حتى عد أحفاد علي، رضي الله عنه، أئمة منصوص عليهم، وأعطاهم العصمة، وسواهم بمنزلة النبوة، ولكن هذه المبالغة لم تحدث في صدر الإسلام، وإنما وجدت فيما بعد، بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، إذ لا نجد هذا الكلام عند الفقهاء الأوائل والمؤرخين، كما لا نجد الكراهية بين وجهاء آل البيت والخلفاء والولاة، بل لم تكن كلمة الشيعة تحمل أكثر من معنى التأييد والمناصرة، ولكنها غدت مع الزمن فكراً خاصاً وعقيدة خاصة، ونسب إلى الأوائل أقوال لم يقولوها، وأخبار لم يعرفوها، وأفكار لم تخطر على بالهم أبداً.

لقد فسح المجال أمام أدعياء نصرة سيدنا علي، رضي الله عنه، أن يكتبوا ما شاء لهم هواهم في ذم خصومهم، والذين وقفوا في وجههم، وأن يروّجوا الروايات التي تلائم ما يدعون! حتى كثرت الفرق، وتعددت الفئات التي تريد من ذلك تأمين مصالحهم، وتبغي تحقيق أهوائهم، وظهرت الباطنية، وزادت المغالاة إذ لم يبدأ تدوين التاريخ إلا في العهد العباسي الذي يرغب بل لا يهمه سوى تهديم الحكم الأموي، ليكون ذلك مبرراً لقيام الدولة العباسية، الأمر الذي ساعد على الطعن في الأمويين جملة، ووصل إلى من قامت دولتهم على أساس المطالبة بدمه، وهو الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه. ونسبت أمور لعلي، رضي الله عنه، ووضعت أحاديث لرسول الله ﷺ تحدد الخلافة لعلي، رضي الله عنه، الأمر الذي جعل من سبقه غاصباً لحقه، غير معترف بأفضليته، ووضعت كتب نسبت لسيدنا علي تنطق بهذا، وما هي له، وأعوذ بالله أن يتكلم أحد الصحابة ومن هو بمستواه عن غيره من الصحابة بهذا الكلام أو يتفوه فيه، وقد انتشرت الأخبار، وشاعت الروايات التي تتحدث بهذا، وجاء المؤرخون فوجدوا من الأمانة العلمية أن يدونوا لسلفهم كل ما في المجتمع من أخبار، وينقلوا إلى أحفادهم كل الروايات، ومن هنا جاء التضارب في الروايات حسب الأصول التي وردت منها، إذ لا تعترف

كل فرقة إلا برواة خاصين بها، تعدهم ثقة، على حين تقدح بغيرهم.

ومما زاد الأمر مشقة وبعداً في الشقة أننا ننظر إلى تلك الحوادث التي وقعت آنذاك من خلال واقعنا اليوم من حيث سرعة وصول الخبر ونقله، والرغبة في الوصول إلى الحكم والتكالب على الدنيا، ومن خلال ما ثبت في ذهننا من عداء بين الفريقين بما دون في التاريخ، ومن خلال عدم دراسة الظروف التي أدت إلى ذلك.

كانت المسافة بين المدينة ودمشق تقطع في مدة شهر ذهاباً ومثله إياباً، وخلال هذين الشهرين وحتى تعود الرسل تكون حوادث قد جدت، ومشكلات جديدة قد طرأت تحتاج إلى معالجة وتبيان، وأمور قد انتهت، وقضايا نسيت لا حاجة لإبرازها من جديد وإعادة المزعجات إلى النفوس، كما أن الموضوعات تكون قد نقلت بشكل مخالف لواقعها نتيجة النقل عن فلان عن فلان، فتصل عن طريق غير الطريق التي نقلها الرسول المأمون الثقة، فتكاد النفس لا تصدق، ويحدث الحرج ويقع الارتباك؛ ونتحدث اليوم عن تلك المرحلة وبذهننا الهاتف، واللاسلكي، والمذياع والطائرة، والأقمار الصناعية، وانتقال الأخبار بواسطة هذه الأجهزة ولا تتعدى سرعتها الدقائق بل الثواني.

كان الخلفاء الراشدون أبعد الناس في الرغبة بالحكم، بل في إعطاء الرأي، فكان السؤال يأتي إلى الصحابي فيحيله إلى صحابي آخر، وهو بدوره إلى آخر وآخر حتى يعود السؤال إلى الأول، وكل يحاول ألا يفتي في المسألة، ولننظر إلى يوم السقيفة وأبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، كل يدفع الأمر عن نفسه ويلقيها على الآخر، ولنذكر دائماً ما كان يقوله علي، رضي الله عنه: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولاها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز».

نتحدث اليوم عن تلك المرحلة وبذهننا الرغبة في الحكم، والتمسك

في السلطة، والقتال من أجلها، وعدم ترك الأمر إلا بالسيف، والانقلاب، والثورة.

وكان الصحابة عامة والخلفاء الراشدون خاصة يحب بعضهم بعضاً، ولا يحب أحد أحداً كما يحب الخليفة صحابة رسول الله، ولن نتحدث عن استشارة أبي بكر، عمر، وعثمان، وعلياً وبقية الصحابة، ولا استشارة عمر عثمان وعلياً، وتولية عمر علياً المدينة إذا خرج منها، ولا استشارة عثمان علياً، واعتماده على رأيه، لأنه ربما يقول أحدنا أنه كان يداري الصحابة ليسكتوا عنه ـ معاذ الله ـ ولكن سنقف قليلاً عند محبة الخلفاء لأبناء الصحابة وخاصة أبناء آل البيت، ثم رأي الخليفة فيمن سبقه. وسنزيد على ذلك لنرى موقف الخلفاء الأمويين والعباسيين الأوائل من وجهاء آل البيت وكبارهم خاصة وجلهم عامة لنكون على بينة من الواقع ولنبتعد قليلاً عما رسخ من نفوسنا من العداء التقليدي، والبغض الكبير بين الفريقين.

كسا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أصحاب النبي ﷺ فلم يكن فيها ما يصلح للحسن والحسين، فبعث إلى اليمن فأتى بهما بكسوة فقال: الآن طابت نفسي[١].

وأمر عمر بن الخطاب الحسين بن علي أن يأتيه في بعض الحاجة.

قال الحسين: فلقيت عبد الله بن عمر، فقلت له: من أين جئت؟ فقال: استأذنت على عمر فلم يأذن لي، فرجع الحسين فلقيه عمر فقال: ما منعك يا حسين أن تأتيني؟

قال: قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت.

فقال عمر: وأنت عندي مثله؟ وأنت عندي مثله؟[٢]. (أي أعز عليه وأكرم من ولده عبد الله).

---

(١) ابن الجوزي: ٩٧.

(٢) ابن الجوزي: ١٦٤.

وأخرج الترمذي عن عمر، رضي الله عنه، قال: أبو بكر سيدنا، وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ.

وأخرج البخاري وأحمد، عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي (يعني علي بن أبي طالب، رضي الله عنه) أي الناس خير بعد النبي ﷺ؟ قال: أبو بكر! قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان.

قلت: ثم أنت. قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

وسئل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فقال للسائل: على الخبير سقطت، كانا والله إمامَيْ هدى، هاديين مهديين، راشدين مرشدين، مصلحين منجحين، خرجا من الدنيا خميصين.

وقال: جعل الله أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما إلى يوم القيامة، فسبقا والله سبقاً بعيداً، وأتعبا من بعدهما إتعاباً شديداً.

وبينما كان علي ذات يوم يقضي في الكوفة، إذ قال رجل: يا خير الناس انظر في أمري، فوالله ما رأيت أحداً هو خير منك. قال: قدموه، فقدم، فقال له: هل رأيت رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قال: هل رأيت أبا بكر وعمر؟ قال: لا، قال: لو أخبرتني أنك رأيت رسول الله ﷺ لضربت عنقك، ولو أخبرتني أنك رأيت أبا بكر وعمر لأوجعتك ضرباً.

وكان علي، رضي الله عنه، يقول إذا ذكر عنده أبو بكر: السباق، والذي نفسي بيده، ما استبقنا إلى خير، إلا سبقنا إليه أبو بكر.

وجاء رجل إلى علي، رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف سبق المهاجرون والأنصار إلى بيعة أبي بكر، وأنت أسبق منه سابقة؟ فقال علي: سبقني أبو بكر إلى أربع لم أوتهن، ولم أعتض منهن بشيء، سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقدم الهجرة، ومصاحبة النبي في الغار، وإتمام الصلاة وأنا يومئذ بالشعب، يظهر الإسلام وأخفيه، وتستحقرني قريش وتستوفيه. والله لو أن أبا بكر زال عن مزّيته، ما بلغ الدين العبرين، ولكان الناس

كرعة ككرعة طالوت، ويلك إن الله ذم الناس، ومدح أبا بكر فقال: «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» فرحمة الله على أبي بكر.

وفي العهد الأموي والعباسي الأول كان بنو هاشم موضع الاحترام، والتقدير سواء من كان ينتمي منهم للعباس، رضي الله عنه، أم لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان هذا الاحترام عاماً على كافة المستويات، سواء أكانت الأوساط الشعبية أم الرسمية، فكان الخلفاء إذا دخل أحد الهاشميين أوسع له الخليفة بجانبه، وأجلسه بالمكان المناسب له، وأوصله بالأعطيات، بل كان موقف المأمون يزيد على غيره في هذا الأمر؛ فقد جعل كبير الطالبيين علي الرضا ولياً لعهده، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على موضع التقدير لهؤلاء الأئمة من الطالبيين، إذ كانوا بالفعل أئمة علم وهدى ومكانة وتقوى، وكانوا يعطَوْن حقهم اللائق بهم. واستمر هذا حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما قامت الادعاءات في النسب الطالبي، وقامت الحركات الباطنية من قرامطة، وزنج، وعبيدية، كلها تدعي الانتماء إلى علي، رضي الله عنه، وما هي كذلك، وابتدأت تعمل على تهديم الحكم وتقويض أركان المجتمع الإسلامي، وفي الوقت نفسه قامت حركات تدعي الزهد والتصوف، وتعمل على إماتة روح الجهاد حتى لا يستطيع المسلمون مقاومة الحركات الهدامة، ويمكن أن نلاحظ الصلة بين هذه الحركات في العصبية، إذ كلها تعود إلى الأصل الفارسي المجوسي، وفي الأفكار، كلها تحمل فكرة التناسخ والحلول، وفي الأهواء كلها تعمل على إرواء الغرائز والشهوات تارة بالإباحية الظاهرة وأخرى بالمستترة. ومنذ ذلك الوقت بدأت تنفرج زاوية الانحراف ويبتعد ضلعاها بعضهما عن بعض، يحمل الأول الفرق التي تدعي التشيع، ويحمل الثاني الإسلام ويعرف بأهل السنة، وبدأت تظهر الأفكار الغريبة عن الإسلام وعن النبع الصافي، أما الذين يرون مناصرة سيدنا علي، رضي الله عنه، ولم تدخل إلى أفكارهم شوائب وآراء غريبة مخالفة، فهم من المسلمين بغض

النظر عمّا يحملون من اسم، وأما الفرق التي قامت على أفكار وعقائد دخيلة فقد ابتعدت عن الإسلام بغض النظر عما تدعيه من انتماء أو تشيع.

أما ما يقال عن المآسي والنكبات التي لحقت بآل البيت خلال العهدين الأموي والعباسي فإن الأمر لا يقتصر على آل البيت فقط، وإنما نالت المصائب جميع الطامحين بالسلطة والثائرين من الناس جميعاً، سواء أكانوا من آل البيت أم من غيرهم؛ فإذا كان الحسين بن علي، رضي الله عنهما، من آل البيت فإن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، من غيرهم، وإذا كان زيد بن علي بن الحسين من آل البيت فإن عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق من بني أمية بالذات. هذا في عهد الأمويين، أما في عهد العباسيين فإن المنصور قد قاتل محمد ذا النفس الزكية وأخاه إبراهيم ولكنه في الوقت نفسه قد حارب عمه عبد الله بن علي، وقضى عليه، وقتل أبا مسلم الخراساني؛ فالأمر إذن لا يتعلق بآل البيت وحدهم، وإنما بكل ثائر مهما كان نسبهُ، ومهما كانت عصبيته، إنه الحكم الذي غدا غاية تراق من أجله الدماء، ويقاتل في سبيله الأهل والولد. أما الذين لا يثوروا من آل البيت فإن مكانتهم محفوظة، ومركزهم معروف لا يستطيع إنسان مهما علا شأنه أن يضع منه شيئاً؛ فعلي زين العابدين بن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، ومن قبلهم الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وأخوه محمد بن الحنفية بن علي لم يتعرض أحدهم لشيء، وإن حدث فأمر موقت يتعلق بالدعاية ضدهم، أو المعلومات التي يحصل عليها الخليفة أو الوالي من قبل بعض المغرضين، ثم لم يلبث أن يعفو عنه، ويعتذر إليه، وتقدم له الأعطيات.

فالمآسي والنكبات التي يعظم من أمرها بالنسبة إلى آل البيت لحصول الفرقة بين صفوف المسلمين، إنما هي تشبه ما أصاب غيرهم، ولم تكن هناك فروق في الأفكار والعقائد أبداً، وإنما أوجدها المغرضون فيما بعد، وقبل ذلك المتأخرون الذين لم يدققوا الأمر بشكل صحيح.

الخلافة والبيعة

الخلافة هي استخلاف أحد المسلمين لحكم الناس حسب منهج الله سبحانه وتعالى وهو ما ارتضاه لعباده المؤمنين، وهو أمر ضروري لاستقامة الحياة «إن مجموعة القوانين لا تكفي لإِصلاح المجتمع، ولكي يكون القانون مادة لِإصلاح وإسعاد البشر فإنه يحتاج إلى السلطة التنفيذية، لذا فإن الله عز وجل قد جعل في الأرض إلى جانب مجموعة القوانين حكومة وجهاز تنفيذ وإدارة. الرسول الأعظم ﷺ كان يترأس جميع أجهزة التنفيذ في إدارة المجتمع الإسلامي. وإضافة إلى مهام التبليغ والبيان وتفصيل الأحكام والأنظمة، كان قد اهتم بتنفيذها، حتى أخرج دولة الإسلام إلى حيز الوجود، في حينه كان الرسول الأعظم ﷺ لا يكتفي بتشريع القانون الجنائي مثلاً بل كان يسعى، إلى تنفيذه، كان يقطع اليد، ويجلد، ويرجم، ومن بعد رسول الله كانت مهام الخليفة لا تَقِل عن مهام الرسول ﷺ. ولم يكن تعيين الخليفة لبيان الأحكام فحسب، وإنما لتنفيذها أيضاً. وهذا الهدف هو الذي أضفى على الخلافة أهمية وشأناً.

ويشعر الخليفة بأنه مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل شيء في هذا المجتمع، وما يحدث منه من تقصير محاسب عنه يوم القيامة. لذا كان خوفه شديداً من الله، الأمر الذي جعل الحاكم يعمل ليلاً ونهاراً على خدمة الناس يتفقد أحوالهم في كل ساعة في السوق، وخارج المدينة، وداخل الأزقة.

ولقد كان الخليفة الأول أبو بكر، رضي الله عنه، يسمى خليفة رسول الله ﷺ، على اعتبار أن رسول الله ﷺ كان هو المكلف من الله جل شأنه بتنفيذ أحكام الله، وحاول كل خليفة بعده أن يقال له خليفة خليفة. . . رسول الله، إلاّ أن كثرة تكرار كلمة خليفة جعلت الأمر يقتصر على كلمة

الخليفة، ومنذ أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أصبح يحمل أيضاً لقب أمير المؤمنين.

وكان الخليفة إما أن يستشير أهل الحل والعقد قبل موته فيمن يخلفه، كما فعل أبو بكر الصديق، أو يعين من أهل الحل والعقد أناساً يختارون بعده من بينهم رجلاً ممن يرضون عنه أو يرتؤون، كما فعل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أو أنهم يلتقون بعد وفاة الخليفة ليختاروا خلفاً له، كما حدث بعد مقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إذ اختار أهل الحل والعقد سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ولا تكون الخلافة في أسرة واحدة، مهما كان نوعها ومركزها، وسواء أكانت من آل البيت أم من غيرهم، فالحكم الوراثي غير متعارف عليه في الإسلام، والصلاح ليس بالنسب، والأحقية ليست بالقرابة وإنما بالعمل الصالح، والأفضلية بالتقوى، وعندما قيل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يختار من بعده ابنه عبد الله، أو قال له المغيرة بن شعبة: أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم، وما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد. ولقد نال بنو أمية ما نالوا من النقد بسبب عهد بعضهم إلى بعض بالخلافة وترك الشورى، إلا أن ذلك لا يعني أن غيرهم من الأسر أولى منهم، كما ادعى بعض من يدّعي أنه من أنصار سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في وجوب الخلافة في آل البيت، وآل الأمر عندهم في النهاية إلى القول بإمامة بعضهم بالنص، وذلك عندما لم يحصلوا على ما يبغونه.

ومع أن الفقهاء قد وضعوا شروطاً للخلافة، إلا أنها تبقى أموراً عامة فيمن يمكن أن يكون خليفة للمسلمين، وقد نصوا على أن تتوفر في الخليفة شروط الإسلام والذكورة، والرشد، والعدالة، واختلفوا في النسب القرشي. وقد اعتبر الإسلام شرطاً لأنه لا يمكنه أن يتولى إنسان أمراً لا يعتقد

بصلاحية نظامه، إذ كيف يتولى أمر المسلمين رجل من غيرهم لا يؤمن بصلاحية النظام الإسلامي، وهو يريد أن يطبقه، ويعاقب من يخالفه، وكذا الأمر ضروري بالنسبة إلى الذكورة، إذ أن المرأة كثيرة العاطفة، ضعيفة البنية غالباً، لا تستطيع القيام ببعض المهمات المترتبة على صاحب هذا المنصب كإمامة الصلاة، وقيادة الجيوش، وإقامة الحدود.

أما بالنسبة إلى العدالة فقد يختلف الناس في بعض الأفراد أيهم أكثر عدالة، إذ لا يوجد مقياس محدود بالنسبة لها، وقد يوجد جماعة من الناس كلهم عدول، وخاصة بين الصحابة الذين نتحدث عنهم، لهذا قد يرى أناس أن فلاناً له أفضلية على فلان، ويرى غيرهم غير ذلك، ومن هنا كانت تصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل، فليس من الضروري أن يكون الخليفة أفضل الناس، فقد يساويه عدد، أو قد يفوقه بعضهم، وقد قال أبو بكر، رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم. . . ومع أنه الأفضل إلا أن ذلك يدل على جواز وجود من هو أفضل منه، ومع وجود الأفضل إلا أن الخلافة صحيحة والطاعة له واجبة. أما الرشد فإنه بالإمكان الموافقة على البيعة لشاب بلغ سن الرشد، وإمامته صحيحة، إلا أن النفس البشرية تنظر بوقارٍ إلى الرجل الكبير السن، المليئة حياته بالتجارب، وعندما ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد قيادة الجيش المكلف بالسير إلى الشمال لملاقاة الروم، وافق المسلمون، ولا يمكنهم إلا أن يوافقوا، فرسولهم الكريم صاحب الأمر بذلك، وهو أولى بهم من أنفسهم، ولكن بعضهم مع الموافقة لم يتمكن من السكوت فأعطى رأيه أن في الجيش من هم أقدر من أسامة، إذ في الجيش أمثال عمر، وأبي عبيدة، رضي الله عنهما، وفعل رسول الله ﷺ تشريع، وفيه دلالة على جواز إمارة الراشد، وفي الجيش من هو أقدر، وأكفأ من القائد. وهذا الأمر هو الذي جعل النفوس تتجه إلى بيعة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، الذي جاوز الستين من العمر، ولم تتجه إلى غيره من كبار الصحابة الذين يشار إليهم بالبنان كعلي، والزبير، وسعد، رضي الله عنهم، إذ لم تكن سنهم تتجاوز الثلاثين كثيراً، بل هم لا يخطر على بالهم الخلافة والبيعة.

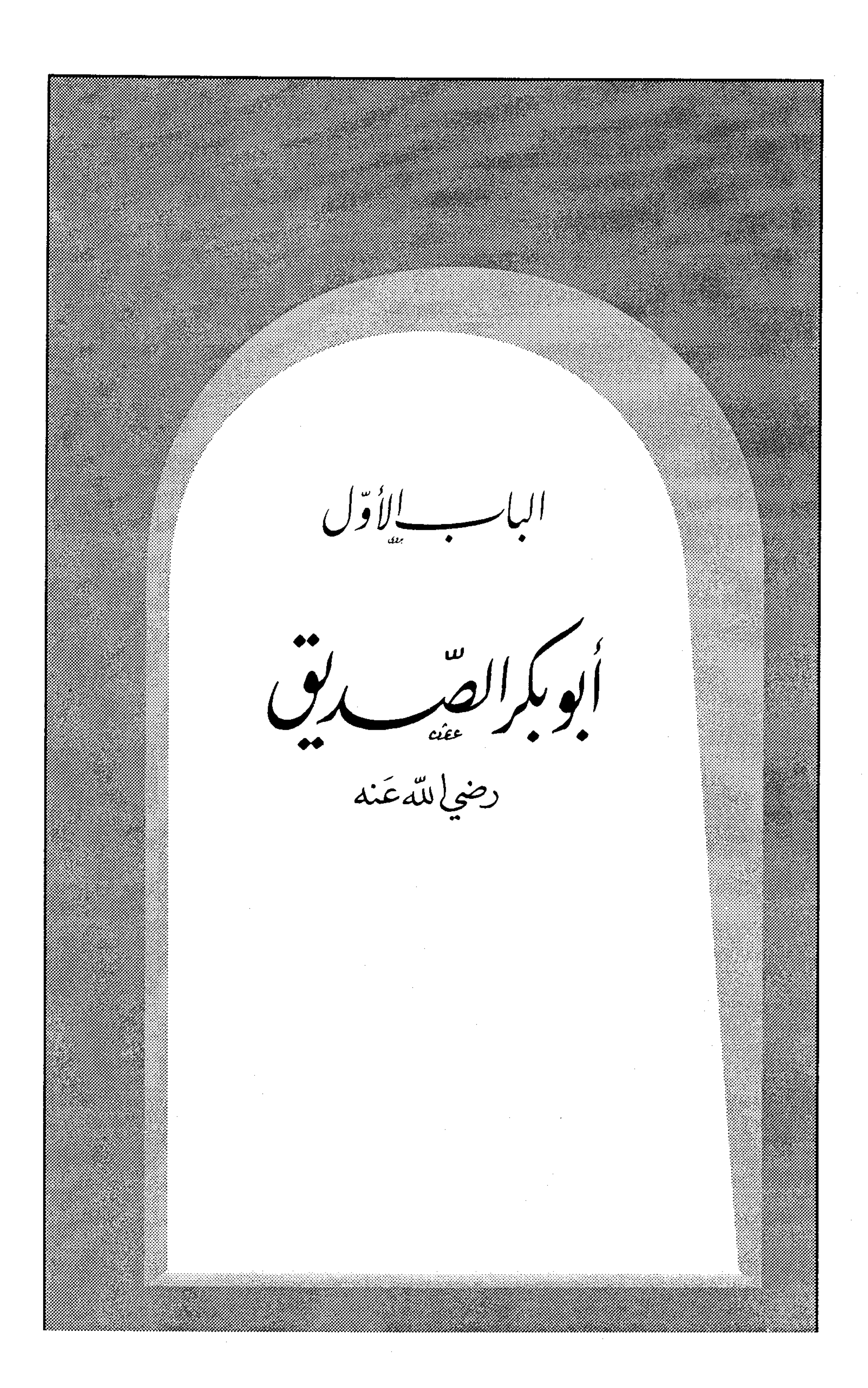
والخلافة واجبة شرعاً وعقلاً، فالمسلمون لا بد لهم من حاكم يرعى أمورهم، ويتولى إدارة شؤون دولتهم، والخلافة هي الدولة الإسلامية، فكما لا نتصور مجتمعاً منظماً دون دولة، وكذلك لا نتصور مجتمعاً إسلامياً يؤدي دوره في الحياة دون خلافة، وإذا انعدمت الدولة انقلب المجتمع إلى فوضى، واختل النظام، وساد الفساد، وعمت الجرائم، وأكل بعض الناس بعضاً، وبانعدام الخلافة تصبح ديار المسلمين نهباً، وتسود شريعة الغاب، حتى تسيطر قوانين الكفر عليهم، كما حدث بعد زوال الخلافة.

وتنعقد البيعة في الإسلام للخليفة من قبل أهل الحل والعقد، وهم رجال العدالة، والعلم، والتقوى، ومن الولاة وهم في الأصل من المجموعة الأولى، إذ أن شروط الخلافة تنطبق على شروط الولاية، ومن حول الولاة من رجالات العدالة الذين يستشيرونهم، أو أهل الحل والعقد بالنسبة إلى الولاية، ويأخذ الولاة منهم البيعة للخليفة. وكانت المدينة المنورة في عهد الخلفاء الراشدين مركز تجمع أهل الحل والعقد إذ تضم أكبر عدد من صحابة رسول الله، ﷺ، ويضاف إليهم الولاة الذين كانوا من الصحابة كذلك.

ولم تكن البيعة من قبل الناس جميعاً كما يحدث في العصر الحالي، وإنما الأمر على أهل الحل والعقد فقط. وإن جرت العادة أن يبايع أكثر الناس، ولكن لم يكن ليؤبه لبيعتهم، وإنما ينظر إلى رجالات الإسلام المعروفين، وليس من الشرط أن تتم البيعة حتى يبايع أهل الحل والعقد جميعاً؛ وإنما يكفي أكثرهم، وبهم تنعقد البيعة، ولذا فإن تخلف عدد قليل من الصحابة ليس معنى ذلك أن البيعة لم تتم، وإن اهتم الخلفاء بهذا الأمر فهذا دلالة على حب معرفة وضع الخلفاء لأنفسهم، وسماع رأي الصحابة فيهم، ورجالات الإسلام بوضعهم.

ولما كانت البيعة تتم برأي أهل الحل والعقد، فالإسلام لا يعرف الانتخابات التي شاعت في وقت متأخر، وذلك لأن النتائج تعطي دائماً لجانب ومصلحة الحاكم أو حسب رأيه مهما كان نوعه كما نرى في هذه

الأيام، ومن هنا اتخذ المسؤولون طريقة جديدة اسموها الاستفتاء، وهي نوع من الألاعيب لإضفاء الصفة الشرعية على الوضع. والناس في الاستفتاء يؤيدون المرشح أو يعارضونه، ويصوتون إلى جانب مشروعات الرئيس أو يخالفونها، وما كان الاستفتاء في يوم من الأيام ليقدم نتائج تقل عن ٩٦٪ لمصلحة ما يريده الحاكم، دلالة على أن المجتمع الذي يضم صوراً متعددة من فئات الشعب لا يمكن أن يقف بجانب المصلحة لعدم معرفتها، أو بجانب الحق لجهله به، وإنما يقف بجانب المسؤول الذي يزيّن له آراءه أو يخيفه بسوطه المصلت، وفي غير الاستفتاء من الانتخابات يكون الرعاع ـ وهم أكثر المجتمعات اليوم مع الأسف ـ دائماً بجانب المال أو الأهواء، فتعطى الأصوات لمصلحة الذي يقدم أكثر أو يستطيع الدعاية بصورة أفضل بما يبذل، إذ أن الرعاع تنطلي عليهم حيل الدهاة والمحنّكين الذين يمارسون ألاعيبهم يومياً على الناس، ومن صور هذه الانتخابات حادثة تروى: جاءت فتاة عامية إلى صندوق الاقتراع، فقدم لها أصحاب الدعاية لأحد المرشحين اسم مرشحهم وصورته، فلم تعجبها الصورة، فأعطوها صورة مرشح آخر جميلة، وقالوا لها هذا فلان، فأيّدت الصورة وصوتت إلى جانب الاسم، ونجح أصحاب دعاية المرشح لبساطة المنتخبة ولمعرفة أنواع المكر والدهاء، وهذا الأمر شائع في الانتخابات، وبصورة عامة كلما كان الشعب على درجة من الجهل قدّم أناساً لتمثيله لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً للخدمة، أو ساروا وراء عواطفهم وشهواتهم ومصالحهم. وعندما تكون الدولة ظالمة وتريد أن تستبد بالوضع تحرص أن يكون ممثلو الشعب على مستوى أقل من الوعي والفكر والخوف من الله، أو من أصحاب المصالح والأطماع وذلك حتى تستطيع أن تفعل ما تشاء، وتأخذ التأييد سلفاً ممن سمّوا على الشعب وهم الذين يحرصون على وضعهم ومصالحهم. ومن هذا فالإسلام يكتفي بأخذ البيعة من أهل الحل والعقد الذين يوجدون في كل أنحاء البلاد، يعرفهم الولاة، ويعرفهم المجتمع الذي يشير إليهم، فيكونون من أهل الإشارة وإبداء الرأي، ولديهم من الخوف من الله ما يمنعهم أن يتكلموا غير الحق، ويكونون نصحةً لله ولرسوله وللمؤمنين.


الباب الأوّل
أبو بكر الصّدّيق
رضي الله عنه



حياتــه في الجاهليّــة

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، يُلقب بالعتيق، ويُكنّى بأبي بكر، ويُعرف بالصدّيق، يلقب أبوه عثمان بأبي قحافة، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر من بني تيم أيضاً، وهي ابنة عم أبيه. وبنو تيم أحد بطون قريش الأثني عشر، وليست هي من البطون القوية المعروفة كبني عبد مناف، وبني مخزوم.

ولد في السنة الحادية والخمسين قبل الهجرة، وهو بذلك يكون أصغر من رسول الله ﷺ بحدود سنتين وبضعة أشهر.

تزوج أبو بكر، رضي الله عنه، في الجاهلية امرأتين وهما: قتيلة بنت عبد العزى، وأولدها عبد الله، وأسماء، وتزوج أم رومان بنت عامر الكنانية، وأنجبت له عبد الرحمن، وعائشة.

كان من وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، وذلك أن الشرف في قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهط من عشرة أبطن. فالعباس بن عبد المطلب من بني هاشم، وكان يسقي الحجيج في الجاهلية، وبقي له ذلك في الإسلام، وأبو سفيان بن حرب من بني أمية، وكان عنده العقاب راية قريش، فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسوه هو وقدموه. والحارث عامر من بني نوفل، وكانت إليه الرفادة، وهي ما تخرجه قريش من أموالها، وترفد به منقطع الحاج. وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار، وكانت إليه السدانة والحجابة. ويزيد بن زمعة بن الأسود من بني أسد، وكانت إليه المشورة فلا تجمع قريش على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافق والاهم عليه، وإلا تخيّر، وكانوا له أعواناً. وأبو بكر

الصديق من بني تيم، وكانت إليه الأشناق وهي الديات والمغارم، فكان إذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه، وامضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه. وخالد بن الوليد من بني مخزوم، وكانت إليه القبة والأعنة، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجتمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب. وعمر بن الخطاب من بني عدي، وكانت إليه السفارة في الجاهلية. وصفوان بن أمية من بني جمح، وكانت إليه الأزلام. والحارث بن قيس من بني سهم، وكانت إليه الحكومة وأموال آلهتهم.

كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، نسابة قريش، يقول ابن هشام في السيرة النبوية: كان أبو بكر، رضي الله عنه، أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاركاً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه، لغير واحد من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته.

وكان تاجراً يرتحل إلى البلاد، ودخل بصرى الشام، وكان مع أبي طالب في قافلته إلى الشام، وكان رأسماله جيداً، كريماً، فكان ينفق من ماله في كرمه، وعلى أصدقائه، إذ كانت قريش تحبه، ويستشيره رجالها.

حرّم على نفسه الخمرة في الجاهلية فلم يشربها قط لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وذلك أنه مرّ وهو في الجاهلية برجل سكران يضع يده في العَذِرة يدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها، فحرمها أبو بكر على نفسه. وأخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لقد كان حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية[١].

وأخرج ابن عامر بسند صحيح عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: والله ما قال أبو بكر شعراً قط في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية[٢].

---

(١) تاريخ الخلفاء: السيوطي.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

ولقد روي له ثلاثة أبيات من الشعر منها:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوئت المها العينا[1]

ولم يسجد أبو بكر كذلك لصنم قط، قال أبو بكر، رضي الله عنه، في مجمعٍ من أصحاب رسول الله ﷺ. ما سجدت لصنم قط، وذلك أني لما ناهزتِ الحلم أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مُخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشمّ العوالي، وخلّاني وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إني جائع فأطعمني فلم يجبني، فقلت: إني عار فاكسني فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه[2].

وكان خدناً للنبي ﷺ وصفياً له قبل البعثة. وكان معه حين ذهب مع عمه إلى الشام، واجتمع ببحيرا الراهب. وكان النبي ﷺ في بدء الوحي إذا برز سمع من يناديه: يا محمد! فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فأسرّ ذلك إلى أبي بكر، وكان نديماً له في الجاهلية.

وعلى الرغم من شهرة أبي بكر في الجاهلية بين أفراد قبيلة قريش وبين غيرها إلا أن تاريخه في تلك المرحلة غير معروف بدقة، وكل ما يعلم أنه كان تاجراً نسابة تألفه قريش، صديقاً لمحمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو بذلك مثل معظم رجالات ذلك الزمن، إلا أن دخوله في الإسلام وسبقه في ذلك قد رفعه عمن سواه، وكان الشخص الثاني بعد رسول الله ﷺ. وإذا كان الإسلام قد رفع كل من اعتنقه إلا أنه قد جعل بعضهم دون بعض حسب سبقه، وإخلاصه، وتقواه، وتضحيته، وكل هذا ما امتاز به أبو بكر، رضي الله عنه.

وقال ﷺ لخديجة، رضي الله عنها: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت، فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ـ

---

(١) شذور الذهب: ابن هشام. (٢) أبو بكر الصديق: علي الطنطاوي.

ولم يكن رسول الله ﷺ هناك ـ ذكرت له حديثه وقالت: يا عتيق! اذهب مع محمد إلى ورقة.

أما صفاته فقد قالت عائشة، رضي الله عنها: كان أبيض، نحيفاً، خفيف العارضين، أجنأ (منحنياً) لا يستملك إزاره، يسترخي عن حقويه (كشحيه) ـ والكشح عند الخاصرة ـ معروق الوجه، غائر العينين، نائي الجبهة، عاري الأشاجع.

الفصل الثاني

حياته في الإسلام

كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، صديق رسول الله ﷺ فما أن بعث محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، حتى آمن أبو بكر بدعوته. ويبدو أن إسلامه كان بسبب ما عرف من سلوكه وأخلاقه وأنه أهل لحمل الرسالة وذلك أثناء صداقته له ولقائه معه، ثم بسبب ما سمع من الناس الذين كانوا يدّعون أنهم على الحنفية دين أبينا إبراهيم «عليه السلام»، وما ذكره الذين يدّعون أنهم لهم علم بالكتاب بقرب ظهور نبي.

أخرج ابن عساكر عن عيسى بن يزيد، قال: قال أبو بكر الصديق، كنت جالساً بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً، فمرّ به أمية بن أبي الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير، قال: وهل وجدت؟ قال: لا، فقال:

كلّ دين يوم القيامة إلا ... ما قضى الله في الحقيقة بور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم، قال: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي، ينتظر، ويبعث، قال: فخرجت إلى ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر، فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخي، إنا أهل الكتب والعلوم، إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسباً ـ ولي علم بالنساب، وقومك أوسط العرب نسباً. قلت: يا عم وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم، ولا يُظلم، ولا يُظالم، فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء: الحافظ جلال الدين السيوطي.

وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، خرجت أريد اليمن قبل أن يبعث النبي ﷺ، فنزلت على شيخ من الأزد عالم، قد قرأ الكتب، وعلم علماً كثيراً. فلما رآني، قال: أحرميّ أنت؟ قلت: نعم أنا من أهل الحرم. قال: وقريشي؟ قلت: نعم أنا من قريش. قال: وتيميّ؟ قلت: نعم أنا عبد الله بن عثمان من تيم بن مرة (فأخبره أنه سيكون صاحباً لنبي يبعث في الحرم، وذلك في خبر طويل)[١].

وقال ربيعة بن كعب: كان إسلام أبي بكر شبيهاً بالوحي من السماء، وذلك أنه كان تاجراً في الشام فرأى رؤيا، فقصها على بحيرا الراهب[٢]، فقال له: من أين أنت؟ قال: من مكة، قال: من أيها؟ قال: من قريش، قال: فأي شيء أنت؟ قال: تاجر، قال: إن صدق الله رؤياك، فإنه يبعث نبي من قومك، تكون وزيره في حياته، وخليفته بعد موته، فأسرّ ذلك أبو بكر في نفسه[٣].

وبعث رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، رضي الله عنه، صديقاً له، فلما بعث انطلق رجال قريش إلى أبي بكر، فقالوا: يا أبا بكر، إن صاحبك. . . . قال: وما شأنه؟ قالوا: هو ذاك في المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد، ويزعم أنه نبي! قال أبو بكر، رضي الله عنه: وقال ذاك؟ قالوا: نعم. فأقبل أبو بكر إلى النبي ﷺ، فطرق عليه الباب فاستخرجه، فلما ظهر له قال: يا أبا القاسم! ما الذي بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني يا أبا بكر؟ قال: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله، قال: يا أبا بكر، إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني في دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعاً، قال أبو بكر، رضي الله عنه، والله ما جربت عليك كذباً، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مدّ يدك فإني مبايعك.

---

(١) أبو بكر الصديق: علي الطنطاوي.
(٢) الراهب بحيرا: من كبار الذين عرفوا بالعلم في بلاد الشام آنذاك.
(٣) أبو بكر الصديق ـ علي الطنطاوي.

ويروى أنه قال له: يا محمد ما الدليل على ما تدّعي؟ قال: الرؤيا التي رأيت في الشام، فعانقه وقبّل بين عينيه، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله[١].

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حكمت في الإسلام أحداً إلا أبى عليّ، وأرجعني الكلام، إلا ابن أبي قحافة، فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه»[٢].

وصحب أبو بكر، رضي الله عنه، النبي، عليه الصلاة والسلام، من حين أسلم إلى حين توفي، لم يفارقه سفراً ولا حضراً، إلا فيما أذن له عليه الصلاة والسلام في الخروج فيه من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه، وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله ﷺ، وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وقام بنصر رسول الله ﷺ في غير موضع، وله الآثار الجميلة في المشاهد، وثبت يوم أحد، ويوم حنين، وقد فر الناس[٣].

وكان رضي الله عنه من أشجع الناس، يثبت في المعارك كالجبال الرواسي لا يحيد خطوة عن رسول الله ﷺ يدافع عنه، ويذود، ولذا لم تكن له تلك الحركة والصولة بين صفوف الأعداد كما يفعل بعض الصحابة أمثال حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وأبي دجانة، رضي الله عنهم جميعاً. ومن هنا لم تظهر شهرته أمثالهم إذ يذكر الشجعان بعدد الذين يقتلونهم من الأعداء أو يأسرونهم من الخصوم، ويختلف عنهم أبو بكر، رضي الله عنه، إذ يبقى بجانب رسول الله ﷺ يدافع عنه بكل شجاعة، ويتلقى الضربات عنه.

---

(١) الرياض النضرة.
(٢) تاريخ الخلفاء: السيوطي.
(٣) تاريخ الخلفاء: السيوطي.

وكان رضي الله عنه كريماً سخياً، وقد أنفق جل ماله في سبيل الله ورسوله، وقد نزلت في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾. وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر». فبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟ وقد كان ماله يوم أسلم أربعين ألف دينار أنفقها كلها على رسول الله ﷺ، ولم يبق منها يوم الهجرة إلا خمسة آلاف.

وأخرج أبو داود، والترمذي عن عمر بن الخطاب، قال: أمرنا رسول الله، عليه الصلاة والسلام، أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: اليوم أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يوماً ـ فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبداً.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا كافأناه إلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر.

ولقد أسلم عدد من كبار الصحابة على يد أبي بكر، رضي الله عنه، ومنهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله وذلك في بدء الدعوة، بل كان هؤلاء من أول من أسلم، ثم تبعهم عثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي.

وابتنى أبو بكر بفناء داره مسجداً، يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيجتمع عليه الناس، ويستمعون إلى قراءته وصلاته وبكائه، فكان ذلك سبباً في إسلام كثيرين.

وكان أبو بكر، رضي الله عنه، إذا مرّ على أحد من العبيد يعذب

اشتراه من سادته، وأعتقه ابتغاء وجه ربه الأعلى: اشترى عامر بن فهيرة من سيده الطفيل بن عبد الله بن الحارث، وأعتقه، والطفيل ربيب أبي بكر إذ هو ابن زوجه أم رومان، أي هو أخو عائشة، رضي الله عنها، لأمها، وكان عامر أحد السابقين للإسلام، وقد عذب في سبيل الله، وشهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة.

واشترى أبو بكر، رضي الله عنه، بلال بن رباح، وكان من قبل مولى لأمية بن خلف الجمحي الذي أذاقه العذاب المر، وقد اشترى أبو بكر بلالاً بخمس أواق من الذهب، وبعد أن اشتراه، قال أمية بن خلف لأبي بكر: لو أبيت إلا أوقية لبعناك، فقال أبو بكر: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته. وكان بلال، رضي الله عنه، صادق الإسلام، مؤذناً لرسول الله، شهد بدراً والمشاهد كلها، ومات بدمشق عام ٢٠هـ رضي الله عنه، أما أمية بن خلف فقد استمر على شركه، وقتل يوم بدر كافراً.

واشترى أبو بكر، رضي الله عنه، زنّيرة، وكانت أمة عمر بن الخطاب قبل أن يسلم، وكان يعذبها ويضربها ـ وكانت قد أسلمت ـ وذهب بصرها من شدة الضرب، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت وهي لا تبصر: والله ما هو كذلك وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، وربي قادر على أن يرد عليّ بصري، فرد الله عليها بصرها تلك الليلة. فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر فأعتقها، وكانت قريش تقول: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زِنّيرة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾.

واشترى جارية كانت أمة في بني عدي، قوم عمر بن الخطاب، وقد أسلمت، فكان عمر بن الخطاب قبل إسلامه يعذبها ويضربها لتترك الإسلام، فاشتراها أبو بكر، رضي الله عنه، وأعتقها.

واشترى أمة في بني عبد شمس، وكانت تدعى أم عبيس وأعتقها.

ولعل أبا بكر، رضي الله عنه، كان أكثر من دافع عن رسول الله ﷺ،

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لما كان بعد وفاة أبي بثلاثة أيام اجتمعت قريش تريد قتل رسول الله ﷺ، فلم يعنه يومئذ إلا أبو بكر. ولأبي بكر يومئذ ضفيرتان، فأقبل يجادل هذا، ويدفع هذا ويقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم». والله إنه لرسول الله. وتقطعت في ذلك اليوم إحدى ضفيرتي أبي بكر.

وأخرج البخاري عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرة وعشياً. فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض: وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يُخرج، إنك تُكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا رجلاً بكاءً، لا يملك عينه إذ قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك،

ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، قال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني خفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل. والنبي ﷺ يومئذ بمكة. واشتد أذى قريش على المسلمين في مكة، وكانت بيعة العقبة الثانية بين رسول الله ﷺ وبعض أعيان أهل المدينة من الأنصار وذلك في الثاني عشر من شهر ذي الحجة في العام الذي سبق الهجرة، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين: «قد رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر من هاجر من المسلمين إلى المدينة، ورجع أكثر من كان منهم بأرض الحبشة إلى المدينة.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة قائلاً لهم: إن الله جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها. فخرجوا أرسالاً، وأقام النبي ﷺ ينتظر أن يؤذن له، ولم يتخلف من المسلمين إلا من حُبس أو فُتن، وتخلف أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له: فإني أرجو أن يؤذن لي. قال أبو بكر: وترجو ذلك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه لصحبة رسول الله ﷺ، وعلف ناقتين كانتا عنده ورق السمر.

وجاء الإذن لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة مع هلال شهر ربيع الأول، فأتى دار أبي بكر، رضي الله عنه، في الظهيرة على غير عادته، إذ كان يأتي ذلك المنزل إما صباحاً وإما مساءً، وأخبره بمجيء الإذن من السماء بالهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، قال: نعم، فبكى أبو بكر من شدّة الفرح وقال: بأبي أنت يا رسول الله، فخذ إحدى راحلتي هاتين، وقدم له أفضلهما، وقال: اركب بأبي أنت وأمي. فقال: إني لا أركب راحلة ليست لي. قال: فهي لك يا رسول الله، قال: لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها له، قال: ابتعتها بكذا وكذا، قال: قد

أخذتها بذلك. وعلى الرغم من الصلة القوية الصادقة بين رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وعلى الرغم من أن أبا بكر قد وضع ماله تحت تصرف الدعوة. وأنفق الأموال الكثيرة في سبيل ذلك، إلا أن رسول الله ﷺ لم يرغب أن يعيش المسلم على إخوانه وهو قادر على العمل، ولا الأمير على رعيته وهو يستطيع الإنتاج، إن كل عمل يقوم به رسول الله ﷺ إنما هو أسوة للمسلمين.

وسار رسول الله ﷺ وصديقه باتجاه غار ثور، ووعدا دليلهما عبد الله بن أريقط غار ثور بعد ثلاث ومعه راحلتاهما. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يمشي أثناء الطريق تارة أمام رسول الله، وتارة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال له: ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك! قال: يا رسول الله: أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك.

ودخل أبو بكر، رضي الله عنه، الغار قبل رسول الله ﷺ، فسوى أرضه، ووجد فيه ثقوباً، فشق إزاره وسد تلك الثقوب، إلا أنه بقي اثنان منها، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل.

فدخل رسول الله ﷺ، فجلس أبو بكر وقد سد الثقبين برجله، وطلب من رسول الله أن ينام على رجله، فوضع النبي رأسه في حجر أبي بكر ونام. فلدغت حشرة أبا بكر في رجله من الثقب، فلم يتحرك مخافة أن يتأذى رسول الله أو يتنبه، إلا أن الألم قد أبكاه وسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل له رسول الله على مكان اللدغ فذهب عن أبي بكر ما يجد من الألم.

وكان عبد الله بن أبي بكر يأتي إليهما مساء فيبيت عندهما، ويتركهما قبل الفجر، فيصبح في مكة كأنه نائم فيها، يسمع من قريش، ويرجع إلى الغار بالأخبار مساء، ويأتي عامر بن فهيرة مساء باللبن من أغنام يرعاها، وهكذا ثلاثة أيام وفي صبيحة اليوم الثالث منها جاءهما عبد الله بن أريقط براحلتيهما، وأتت أسماء بنت أبي بكر لهما بالطعام. وسارا مع الدليل،

ومعهما أيضاً عامر بن فهيرة. وامتطى كل بعيراً، وانطلقوا إلى المدينة.

وأصابت حمى المدينة أبا بكر حين نزل فيها، وعندما سألته عائشة، رضي الله عنها، عن صحته قال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وذكرت عائشة، رضي الله عنها، ذلك لرسول الله ﷺ فقال: اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة.

وعندما رجع الدليل عبد الله بن أريقط من المدينة إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكان وجود أبي بكر، فخرج عبد الله بعيال أبيه إليه، وصحبهم طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

ويوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه فتكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فأجاد، ويوم كانت المعركة، كان رضي الله عنه شاهراً سيفه يذود عن رسول الله ﷺ. وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يوماً، وهو في جماعة من الناس: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس أبو بكر: لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، وقلنا: من يكون مع النبي ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد، إلا أبو بكر شاهراً السيف على رأس رسول الله ﷺ.

وانتهت غزوة بدر بنصر مؤزر للمسلمين إذ قتلوا سبعين رجلاً من صناديد قريش، وأسروا مثلهم، واستشار رسول الله ﷺ أصحابه في شأن هؤلاء الأسرى، فقال أبو بكر: يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

ورأى عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، قتل الأسرى، وكان رسول الله ﷺ أن يأخذ برأي أبي

بكر، وأخذ الفدية من المشركين. ولما كان الغد جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فوجده قاعداً مع أبي بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني ما يبكيك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (وأشار إلى شجرة قريبة). وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾[1].

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر يوم بدر من المشركين، فقال مرة لأبيه بعد أن أسلم: لقد أهدفت لي يوم بدر، فطفت عنك ولم أقتلك. فقال: لكنك لو أهدفت لي لم أطف عنك. أي لم يكن أبو بكر، رضي الله عنه، لتأخذه عاطفة الأبوة فيعدل عن قتل ابنه، إنه الإسلام، وإن ابنه لفي شركه، ولا يتفق الإسلام مع الشرك، ولن تكون مودة أبداً بين المسلمين والمشركين مهما كانت الصلات المادية في هذه الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ...﴾[2].

وثبت أبو بكر، رضي الله عنه، ثبوت الجبال يوم أحد حول رسول الله ﷺ يدافع عنه، وكانت غزوة بني المصطلق، وكان فيها حديث الإفك الذي افتري فيه على عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، ثم جاءت براءتها. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، ينفق على مسطح بن أثاثة[3]، وكان من الذين اشتركوا في حديث الإفك أو خاضوا فيه، فقال أبو بكر: والله لا

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ ـ ٦٩. (٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، اسمه عوف، ولقبه مسطح، كان وأمه من المهاجرين الأولين، مات أبوه وهو صغير فكفله أبو بكر لقرابة أمه منه، جلد في حادثة الإفك، وشهد صفين مع سيدنا علي، ومات في ذلك العام ٣٧هـ.

أنفق على مسطح شيئاً أبداً، ولا أنفق بنفع بعد الذي قال لعائشة، وأدخل علينا ما أدخل، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1] فقال أبو بكر، رضي الله عنه: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

وشعر المسلمون ببعض الانقباض من صلح الحديبية، ومنهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي يقول: أتيت النبي ﷺ يوم الحديبية فقلت: يا رسول الله! ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ فقال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: وألست كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: أو أخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أيها الرجل! إنه رسول الله وليس يعصيه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: أفأخبرك أنك تأتيه هذا العام؟ قلت: لا. قال: فإنه آتيه ومطوف به. فكانت أجوبته رضي الله عنه تشبه إجابة رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني فزارة سنة سبع للهجرة بقيادة أبي بكر، رضي الله عنه، فوردت الماء، وغنمت، وسبت، وعادت سالمة.

وفي غزوة تبوك، ساعة العسرة، كانت راية المسلمين بيد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

---

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

ويوم حنين أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغنهم شيئاً، وولوا مدبرين بعد أن كمن لهم الأعداء في شعاب الوادي، وثبت حول رسول الله أبو بكر، وعمر، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، رضي الله عنهم جميعاً، ثم ثاب المسلمون إلى رشدهم واجتمعوا إلى رسول الله بعد نداء العباس بن عبد المطلب، ونصرهم الله، وهزم المشركين.

وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج في السنة التاسعة للهجرة وذلك بعد الرجوع من غزوة تبوك بثلاثة أشهر تقريباً. وانطلق مع أبي بكر، رضي الله عنه، ثلاثمائة حاج، وأرسل رسول الله ﷺ معه عشرين بدنة، وساق أبو بكر نفسه خمس بدنات، وبعد مسير الحاج أنزلت سورة براءة فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في أثره بأربعين آية من سورة براءة، فقرأها على الناس يوم التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول. وذلك بعد كلمات كان أبو بكر، رضي الله عنه، يخاطب بها الناس، ويعلمهم مناسكهم.

وحدث خلاف بين بني عمرو بن عوف من الأوس، كانوا يقيمون بالقرب من قباء، فذهب رسول الله ﷺ ليصلح بينهم، وأمر بلالاً قبل ذهابه أن يقدم أبا بكر إذا حانت الصلاة ولم يرجع رسول الله، وكان ذلك، ورجع رسول الله فما دخل المسجد إلا وأبو بكر قد دخل في الصلاة، فنبه المسلمون أبا بكر فأشار رسول الله إلى أبي بكر أن يستمر، إلاّ أن أبا بكر قد تراجع وتقدم رسول الله، وأتم الصلاة، فلما انتهت، قال رسول الله لأبي بكر: يا أبا بكر ما منعك إذا أومأت إليك أن لا تكون مضيت؟ فقال أبو بكر: لم يكن لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله ﷺ. فقال للناس: إذا نابكم في صلاتكم شيء فليسبح الرجال، وليصفق النساء.

وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس (قالت) فقلت: يا

رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف (سريع الحزن والبكاء)، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، (قالت) فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر. فقالت له، فقال رسول الله ﷺ: إنكن أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس، (قالت) فأمروا أبا بكر يصلي بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة، فقام يهادي بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض (قالت): فلما دخل المسجد سمع أبو بكر حسه فذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ أقم مكانك، فجاءه رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلي بالناس جالساً وأبو بكر قائماً. يقتدي أبو بكر بصلاة النبي ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر.

ولما انصرف الناس من هذه الصلاة، وهم يظنون أن رسول الله قد عوفي من مرضه الذي هو فيه، وكذلك كان ظن أبي بكر، الأمر الذي جعله يقول للنبي ﷺ: يا نبي الله! إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب، واليوم يوم حبيبة بنت خارجة أفآتيها؟ قال: نعم.

ثم دخل رسول الله ﷺ حجرته، وخرج أبو بكر، رضي الله عنه، إلى أهله بالسنح (في العالية).

ولم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي من ليلته تلك، وجاء أبو بكر فنزل بباب المسجد، وقد بلغه الخبر، وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يحدث الناس، ويقول لهم: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات. ولم يلتفت أبو بكر إلى ما في المسجد، ودخل إلى بيت رسول الله في حجرة عائشة، رضي الله عنها، وكان مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن

وجهه، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتة أخرى. ثم رد الثوب على وجهه. ثم خرج إلى المسجد، وعمر بن الخطاب لا يزال يخطب الناس فقال: على رسلك يا عمر فأنصت... ولكن عمر استمر في كلامه. فقال أبو بكر: أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1] فكان الناس كأنهم سمعوا هذه الآية لأول مرة، وكأنها ما نزلت على محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقد انقطع الوحي، ومات رسول الله، ولم يعد الصحابة يرونه، ولم يعد المسلمون يتلقون التوجيه والإرشاد، وهذا ما جعل المسلمين يشعرون بصدمة كبيرة، طاشت معها أحلامهم، وفقدوا صوابهم، الأمر الذي جعلهم يعتقدون أن رسول الله لم يمت، وهذا ما كان من كلام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وتزوج أبو بكر رضي الله عنه في الإسلام حبيبة بنت خارجة الأنصارية فأولدها أم كلثوم بعد وفاته، وتزوجها طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

تيم

سعد

كعب

عمرو

عامر

عثمان [أبو قحافة] أسلم يوم الفتح، وتوفي سنة ١٤هـ بعد وفاة ابنه لستة أشهر.

عبد الله [أبو بكر الصديق] رضي الله عنه.

حبيبة بنت خارجة الأنصارية

- **أم كلثوم**: ولدت بعد وفاة أبيها زوجها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

أسماء بنت عميس

- **محمد**: ولد سنة ١٠هـ وقتل سنة ٣٧ نشأ في حجر علي، وهو ربيبه ولي مصر لعثمان ثم لعلي

أم رومان

- **عائشة**: زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم توفيت سنة ٥٨
- **عبد الرحمن**: شهد بدراً وأحداً مع المشركين، أسلم في هدنة الحديبية، شهد اليمامة، شهد الجمل مع عائشة. توفي سنة ٥٣

قتيلة بنت عبد العزى العامرية

- **أسماء**: ولدت سنة ٢٧ قبل الهجرة، تزوجت الزبير ابن العوام توفيت سنة ٧٣
- **عبد الله**: جرح بالطائف وتوفي سنة ١١ في خلافة أبيه

وتزوج أسماء بنت عميس، وكانت قبله تحت جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، واستشهد عنها في غزوة مؤتة، ولدت لأبي بكر محمداً في السنة العاشرة للهجرة، وبعد وفاته تزوج أسماء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

بيعته

توفي رسول الله ﷺ، وشعر الأنصار وهم أهل المدينة المنورة أنهم بحاجةٍ ماسة إلى اختيار خليفة منهم يتولى شؤون المدينة وأمر المسلمين، فمدينتهم مهددة بعد وفاة رسول الله ﷺ من الأعراب ورجال القبائل، إذ يعرفون أن كثيراً من الأعراب وكثيراً من القبائل لم تؤمن، ولم يدخل الإيمان في قلوبها، وإنما أسلمت بلسانها خوفاً من القوة التي بلغتها الدولة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ، وقد ظهرت الردة في بعض المناطق قبيل وفاة رسول الله ﷺ.

شعر الأنصار أنهم هم مهددون قبل غيرهم من قبل الأعراب ورجال القبائل لأنهم كانوا دعامة رسول الله ﷺ، وهم الذين نصروه، وفتحوا بيوتهم للمهاجرين من أهل مكة، واستطاعوا مع المهاجرين أن يكوِّنوا الدولة الإسلامية الأولى أيام النبي، عليه أفضل الصلاة والسلام، والتي تمكنت من إخضاع الأعراب، والسيطرة على ديار القبائل.

وشعر الأنصار أن المهاجرين ربما تركوا المدينة ورجعوا إلى بلدهم الأول مكة المكرمة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهم ما هاجروا بالأصل إلا من أجله وأجل عقيدتهم، وقد خرجوا من مكة عندما كان سكانها على شركهم، فلما دانوا بالإسلام، ودخلوا في دين الله، فمن المحتمل أن يعود المهاجرون إلى ديارهم وقد تركوا فيها بيوتاتهم، وتركوا أملاكهم، وغادروا أهليهم، بل إن هذا قد خطر في بال الأنصار منذ أن دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً في السنة الثامنة للهجرة، وعندما كانوا هم مع رسول الله ﷺ في ذلك الفتح، وقد كلموا رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، وأجابهم

وذلك بعد توزيع غنائم هوازن وثقيف في الجعرانة بعد غزوة حنين «لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم شيئاً، حتى كثرت منهم القالة؛ حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه!! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، فقال: فأين أنت من ذلك يا سعد! قال: يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي! قال: فاجمع لي قومك في الحظيرة، قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، قال: فجاءه رجال من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد فقال: قد اجتمع إليك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم! ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله؛ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، لله ولرسوله المن والفضل! فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار! قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل! قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم، ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار؛ أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقال: رضينا برسول الله

قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[1].

فيمكن إذن أن يعود المهاجرون بعد وفاة رسول الله ﷺ، لذا فإن الأنصار هم بالدرجة الأولى المسؤولون عن إيجاد خليفة لرسول الله ﷺ بغض النظر عن وجود المهاجرين، هذا الأمر هو الذي جعلهم يلتقون في سقيفة بني ساعدة وحدهم، ولم تعوزهم الشورى، فالخزرج هم أكثر الأنصار، وزعيمهم هو سعد بن عبادة، وهو من كبار الصحابة، ومن الذين توفي عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، لذا فقد اتفقوا على بيعته.

أما المهاجرون فقد كانوا أكثر بعداً عن هذا الموضوع، بعضهم قد شغل بوفاة رسول الله ﷺ ودفنه، وبعضهم لا تزال صدمة وفاة رسول الله ﷺ تملأ نفسه، وبعضهم لم يفكر في اختيار خليفة بعد، إذ أن النبي، عليه الصلاة والسلام، لم يدفن بعد ولم يفكر إلاّ بهذا الموضوع، ولم يبحث بموضوع فيه خلاف حيث أن هذا الأمر هو آخر ما يمكن أن يقع فيه الاختلاف - حسب رأيه -. وبينما عدد من المهاجرين في بيت رسول الله ﷺ إذا برجل ينادي من وراء الجدار: اخرج إليّ يا ابن الخطاب. فقال عمر: إليك عني فإنا عنك مشاغيل، فقال: إنه قد حدث أمر لا بد منك فيه: إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمراً يكون بيننا وبينهم فيه حرب. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من هؤلاء الأنصار. وأدركا هنا، رضي الله عنهما، قيمة وجود الخليفة لتسيير الأمور وشؤون الناس احتساباً لكل حادث. وسارا باتجاه سقيفة بني ساعدة فوجدا أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، فأخذاه معهما. ووجدوا في طريقهم رجلين من الأنصار هما: عويم بن ساعدة[2]، ومعن بن عدي[3]، فسألوهما، فقالا: لا عليكم

---

(١) تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام.

(٢) عويم بن ساعدة: من الأوس، حضر بيعتي العقبة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

(٣) معن بن عدي: حضر بيعة العقبة، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وآخى رسول الله بينه وبين زيد بن الخطاب واستشهدا معاً في اليمامة.

ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم بينكم، فإن اتفقتم فيما بينكم لن يكون خلاف بينكم وبين الأنصار. إلا أن المهاجرين قد تابعوا السير حتى وصلوا إلى سقيفة بني ساعدة. ومن هذا يبدو أنه لم يكن خلاف بين مهاجرين وأنصار، وإنما دعت الضرورة إلى لقاء الأنصار ـ كما ذكرنا ـ.

اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد ﷺ سعد بن عبادة، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، فلما اجتمعوا قال لابنه: إني لا أقدر لشكواي أن أُسمع القوم كلهم كلامي، ولكنك تلقّ مني قولي فأسمعهموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله، فيرفع صوته فيسمع أصحابه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب: إن محمداً ﷺ لبث بضع عشر سنة في قومه، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به، حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقلهم على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، حتى أغنى الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت له بأسيافكم العرب، وتوفاه الله، وهو عنكم راض، وبكم قرير العين». وهذا ما يدل أيضاً على أن الأنصار كانوا يعتقدون أنهم سيكونون هدف العرب الأمر الذي جعلهم يفكرون بمبايعة خليفة بشكل سريع.

وجاء المهاجرون، والأنصار مجتمعون، وجلس المهاجرون فقام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين حي منّا، وقد دفت إلينا دافة منكم، فإذا أنتم تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحضنوا الأمر من دوننا

(وقد كان رسول الله ﷺ إذا استعمل رجلاً منكم، قرن معه رجلاً منا، فأرى أن يلي الأمر رجلان: أحدهما منكم والآخر منا).

يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: فلما قضى الأنصاري مقالته، أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت في نفسي مقالة أعجبتني أريد أن أقوم بها بين يدي أبي بكر، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك فكرهت أن أغضبه، ولقد كان أحلم مني وأوقر، فتكلم أبو بكر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني مما كنت قد زورت في نفسي إلا أتى بمثلها أو أفضل منها في بديهته، ولم يدع شيئاً أنزل في الأنصار أو ذكره رسول الله ﷺ إلا ذكره. فقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار، وما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله. ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش. هم أوسط العرب داراً وأنساباً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم (وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة)، فوالله ما كرهت من مقالته غيره، ولأن أقدم فتضرب عنقي لا يكون في ذلك من إثم أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر. فلما قضى أبو بكر مقالته قالت الأنصار: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا، ولا أرضى عندنا منكم، ولكن نشفق مما بعد اليوم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منكم، فإذا هلك اخترنا رجلاً من الأنصار فجعلناه مكانه، فإذا هلك اخترنا رجلاً من المهاجرين فجعلناه مكانه كذلك أبداً. وكان ذلك أجدر أن يشفق القرشي إن زاغ أن ينقض عليه الأنصاري، وأن يشفق الأنصاري إن زاغ أن ينقض عليه القرشي.

ويبدو من هذا أن الأنصار لما وجدوا أن المهاجرين باقون في المدينة، رأوا أن الحق لهم، وأن الخلافة يجب أن تكون بينهم، ولكن أصبح في الأمر شيء من الحراجة، فإن بيعة سعد بن عبادة قد تمت، والخليفة أضحى قريباً من القيام بواجبه، إلا أن الحق للمهاجرين الذين هم أولى بالأمر، فالخطأ قد وقع، والتراجع أمر لا بد منه، وإن كان صعباً في

حالة كهذه، إذ فيها استهتار بالخليفة المبايع، وهو زعيم الأنصار، إذ لا بد من أن يكون التراجع بشكل تدريجي، فالنفوس بشرية، ولا بد من معاملتها حسب الطبيعة التي فطرها الله عليها، إذن يجب أن تستمر المناقشة ويتراجع الأنصار بهدوء.

ثم قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد أن سمع مقالة الأنصار: لا ينبغي هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلا به، ولن تعرف الإِمارة إلا له، والله ما يخالفنا أحد إلا قاتلناه.

ثم وقف الحباب بن المنذر الأنصاري(١) وكرر: منا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر بن الخطاب: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورها منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مُدْلٍ بباطل، أو متجانفٍ لإثم، أو متورطٍ في هلكة.

وأصرَّ الحباب بن المنذر على موقفه، ودعا الأنصار إلى التمسك بهذا الرأي.

فقال أبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه(٢): يا معشر الأنصار! إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغير. فقام بشير بن سعد

---

(١) الحباب بن المنذر: شهد بدرا، وأشار على رسول الله ﷺ بالمكان المناسب للمعركة، فوافق رسول الله، وشهد المشاهد كلها، وأشار كذلك على رسول الله في خيبر بتغيير المكان الذي نزل به المسلمون، فوافقه أيضاً، لذا كان يعرف بـ (ذي الرأي) توفي، رضي الله عنه، في خلافة سيدنا عمر، رضي الله عنه.

(٢) أبو عبيدة بن الجراح: عامر بن عبد الله الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وسماه رسول الله أمين الأمة، قاد فتوح الشام، وتوفي عام ١٨هـ بطاعون عمواس.

الأنصاري[١] رضي الله عنه فقال: يا معشر الأنصار! إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك. ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

وقام أسيد بن حضير رضي الله عنه[٢]: وأظهر ما يدعو إلى ترك الأنصار للأمر، والمبايعة للمهاجرين فأبدى ما يمكن عليه أن يحدث من خلاف بين الأوس والخزرج فيما إذا تسلمت الأنصار الأمر، لذا دعا إلى بيعة المهاجرين.

وروى النسائي والحاكم أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قد قال للأنصار يومذاك: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قدّم أبا بكر للصلاة؟.

قالوا: بلى.

قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدمه رسول الله ﷺ؟

قالوا: لا أحد!

ثم قام زيد بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه،[٣] فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإن الإِمام إنما يكون من المهاجرين، ونحن أنصاره، كما كنا أنصار رسول الله.

---

(١) بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، شهد بيعة العقبة الثانية، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وولاه رسول الله المدينة أثناء عمرة القضاء، استشهد عام ١٢هـ في عين التمر، وكان في جيش خالد بن الوليد، رضي الله عنه.

(٢) أسيد بن حضير الأنصاري الأوسي: سيد الأوس، أحد نقباء العقبة، لم يحضر بدراً إذ لم يعلم أنه سيكون قتال، توفي عام ٢١هـ في خلافة سيدنا عمر، رضي الله عنه.

(٣) زيد بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه: ولد عام ١١ قبل الهجرة، كتب الوحي، وكتب لأبي بكر وعمر، تعلم السريانية أيام رسول الله ﷺ، وكان عثمان رضي الله عنه يستخلفه على المدينة إذا خرج منها، وهو الذي جمع القرآن أيام أبي بكر، وكان له دوره ورئاسة لجنة الجمع أيام عثمان، توفي عام ٤٥هـ.

فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: جزاكم الله من حي خيراً، وثبت قائلكم، أما والله لو قلتم غير ذلك لما صالحناكم... ثم قال لعمر بن الخطاب: أبسط يدك نبايع لك. فقال عمر: أنت أفضل مني. قال: أنت أقوى مني، فقال عمر: فإن قوتي لك مع فضلك. وقال عمر، وأبو عبيدة: لا ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك يا أبا بكر، أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأمّرك رسول الله ﷺ حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق الناس بهذا الأمر.

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر، رضي الله عنهما، وقام أسيد بن حضير، وبشير بن سعد، رضي الله عنهما، يستبقان للبيعة، ووثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة، فلم يبق أحد لم يبايع في السقيفة سوى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، وما منعه أن يبايع سوى حراجة وضعه، وصحة جسمه، ولكنه لم يتكلم بشيء.

وهذا يدل تمام الدلالة على أنه لم يكن هناك خلاف على البيعة بين المهاجرين والأنصار، وإنما وقع خطأ في سرعة الأنصار بسبب ما توقعوه. الأمر الذي أدى إلى المناقشة والتراجع البطيء حرصاً على وضع سعد بن عبادة، رضي الله عنه. كما أن اللقاء في سقيفة بني ساعدة لم يكن القصد منه الاستئثار بالخلافة من أجل المهاجرين أو الرغبة في الزعامة والوجاهة أو دعم فلان دون فلان، فلم يكن سعد بن عبادة إلا صحابياً جليلاً، له موضع الاحترام بين جميع الصحابة، ولكن كانت المصلحة العامة للمسلمين والإسلام لا غير، خوفاً على وضع المدينة، وتسيير الأمور، وإدارة الشؤون. وكان ذلك في اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ.

وفي اليوم الثاني من بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة دعي إلى الصلاة، ووقف أبو بكر على المنبر، وقام عمر وتكلم بين يديه، وقبله، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: أيها الناس قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلاّ عن رأيي، وما وجدتها في

كتاب الله عزّ وجلّ، ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله ﷺ. ولكني كنت أرى رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى معكم كتابه الذي به هدى رسول الله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وأولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا.

فبايع الناس بيعة عامة بعد بيعة سقيفة بني ساعدة، ثم تكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد عليه حقه، إن شاء الله تعالى، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، إن شاء الله تعالى. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

ولم يتخلف عن البيعة إلا الذين كانوا مشغولين بتجهيز رسول الله ﷺ، فلما انتهوا من ذلك بايعوا، ولم يتخلف منهم أحد، سوى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، الذي تأخر قليلاً من الوقت، ثم بايع، وخرج مجاهداً، واستشهد في بلاد الشام بعد قليلٍ من خروجه.

أما ما أشيع عن تحريض أبي سفيان لعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهما، فهو أمر غير مقبول، إذ لا يمكن أن يفعل هذا، وهو من الطلقاء ولا يمكن أن يقبلاه منه وهما على تلك الصورة من الإيمان، وعلى تلك الحالة من الوعي، ثم إن هذا الخبر لو صح لكان على أبي بكر وهو بوضعه أن يسأل أبا سفيان عن هذا التصرف الذي عليه أن ينشأ عنه خلاف وتفرّق، ويحدث بنتيجته خصام وقتال. ولما لم يحدث شيء من هذا فهو من عمل الرواة.

وما أشيع عن وصية رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب،

رضي الله عنه، فهو محض اختراع وتلفيق، إذ أن وصية رسول الله للمؤمنين إنما هي من الدين الذي يجب ألا يحيد عنه أحد من المسلمين، فالحيدان عنه إنما هو اتهام للمسلمين كافةً، وطعن في إيمان صحابة رسول الله ﷺ جميعهم. فكيف يقبل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في ترك هذه الوصية، وهو الذي لم يعرف عنه أنه توقف لحظة عن أمر رسول الله ﷺ؟ ثم كيف يقبل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في السكوت عن هذه الوصية وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم؟ وإذا ذكر بعضهم أنه بايع في الظاهر، فمتى كان علي، رضي الله عنه، والصحابة أجمعين يظهرون غير ما يبطنون؟ ومعنى ذلك اتهامهم بالنفاق، ونعوذ بالله من هذا الكلام.

أما ما أشيع عن تأخر سيدنا علي، رضي الله عنه، في بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، حتى وفاة زوجه فاطمة، رضي الله عنها، فهو افتراء أيضاً، فما كان علي ليفارق جماعة المسلمين مدة ستة أشهر، وهو الذي عرف بالإيمان، ودعا إلى وحدة القلوب، وأحسّ بأخوة الإِسلام منذ نعومة أظفاره. إلا أنه قد حدث شيء من جفوة بين الإِمامين الجليلين والصحابيين الكريمين، ولكن ليس بسبب الخلافة وإنما بسبب الإرث، إذ طلبت فاطمة، رضي الله عنها، من أبي بكر حقها بإرث أبيها رسول الله ﷺ من فدك وسهمه في خيبر، فلم يقبل أبو بكر، رضي الله عنه، هذا الطلب، وأجابها بحديث والدها عليه أفضل الصلاة والسلام «نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة» ومع التسليم بهذا الحديث وفاطمة وعلي، رضي الله عنهما، على علم بهذا، وهي من أهل العلم إلا أنه حدث شيء من جفوة، ولم تتعدّ ذلك، وكان علي، رضي الله عنه، يومذاك معتزلاً في البيت، لا يتردد كثيراً على أبي بكر، ينصحه، ويستشيره، وإن كان بجانبه في معضلات الأمور مثل الدفاع عن المدينة، وحرب المرتدين كما سنرى، ولعل ذلك كان بسبب مرض زوجهِ فاطمة، رضي الله عنها، إذ شغل بتمريضها حتى توفيت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام. وما يقال عن هجرانها لأبي بكر فهذا كلام من لم يعرف

طبيعة الإسلام، فمتى كانت النساء تتردد على الرجال أو يتردد الرجال على النساء، ثم إنها كانت مريضة لا تستطيع الخروج من بيتها، وأبو بكر كان مشغولاً بأعباء الخلافة، إذ كانت تلك الأيام من أحلك ما مرّ على الدولة الإسلامية[1] ـ كما سنرى ـ.

إذن بايع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والعباس بن عبد المطلب، وبنو هاشم كافة يوم بايع الناس، ولم يخالف أحد على أبي بكر لا من بني هاشم ولا من غيرهم. والقرآن الكريم لم يحدد نظاماً معيناً

(١) ملخص الموضوع أن الرواة مزجوا تأخير بيعة علي، رضي الله عنه، في موضوع ما حدث من جفاء، وذلك أن فاطمة بنت محمد ﷺ، ورضي الله عنها قد جاءت مع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه إلى أبي بكر يطلبان ميراثها من رسول الله ﷺ في خيبر وفدك فقال لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة إنما يأكل آل محمد في هذا المال» وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته. فحدثت الجفوة التي ألمحنا عنها، فلما توفيت فاطمة رضي الله عنها اجتمع عدد من بني هاشم عند علي رضي الله عنه وأرسلوا إلى أبي بكر أن يأتيهم، فجاءهم، فقام علي رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكاراً لفضلك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا (ويقصد به الميراث)، ثم ذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقه، ولم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر.

فلما سكت علي تشهد أبو بكر فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فوالله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصلهم من قرابتي، وإني والله ما آلو بكم في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم على الخير، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا نورث ما تركنا صدقة، وإنما يأكل آل محمد في هذا المال) وإني والله لا أذكر شيئاً صنعه فيه إلا صنعته إن شاء الله، ثم قال علي رضي الله عنه: موعدك للبيعة العشية، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذر علياً ببعض ما اعتذر به، ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر وذكر فضله وسابقته، ثمّ مضى إليه فبايعه، وأقبل الناس إلى علي رضي الله عنه فقالوا: أصبت وأحسنت.

ويبدو من هذا أن تأخر البيعة إن كان قد حدث فهي بسبب موضوع الميراث، ويبدو أن هذه البيعة قد حدثت مرة ثانية بعد البيعة العامة، وكانت بمثابة تأكيد. والاعتذار إنما كان على الجفوة، وعدم التردد على دار أبي بكر، رضي الله عنه، لانشغاله بتمريض زوجه فاطمة، رضي الله عنها.

لاختيار الخلفاء، ولم يشر رسول الله ﷺ إلى مثل ذلك، وإنما اعتاد المسلمون أن يبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام،، ولا يجوز لأحد من الطرفين المتبايعين أن ينقض العهد سواء أكان من قبل الخليفة أم من قبل الرعية. والخلافة عهد بين الخليفة والمسلمين، يلزم الخليفة بموجب هذه البيعة نفسه العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والنصح للمسلمين، ويلزم المسلمون أنفسهم بموجب البيعة الطاعة للخليفة وتنفيذ أوامره. فإذا انحرف الخليفة عن سيره الإسلامي بطلت طاعته، وعلى المسلمين مطالبته بالوفاء بما وعد فإن استقام انقضى وإلا اعتزل الخلافة، أو عزل من قبل أهل الحل والعقد (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم).

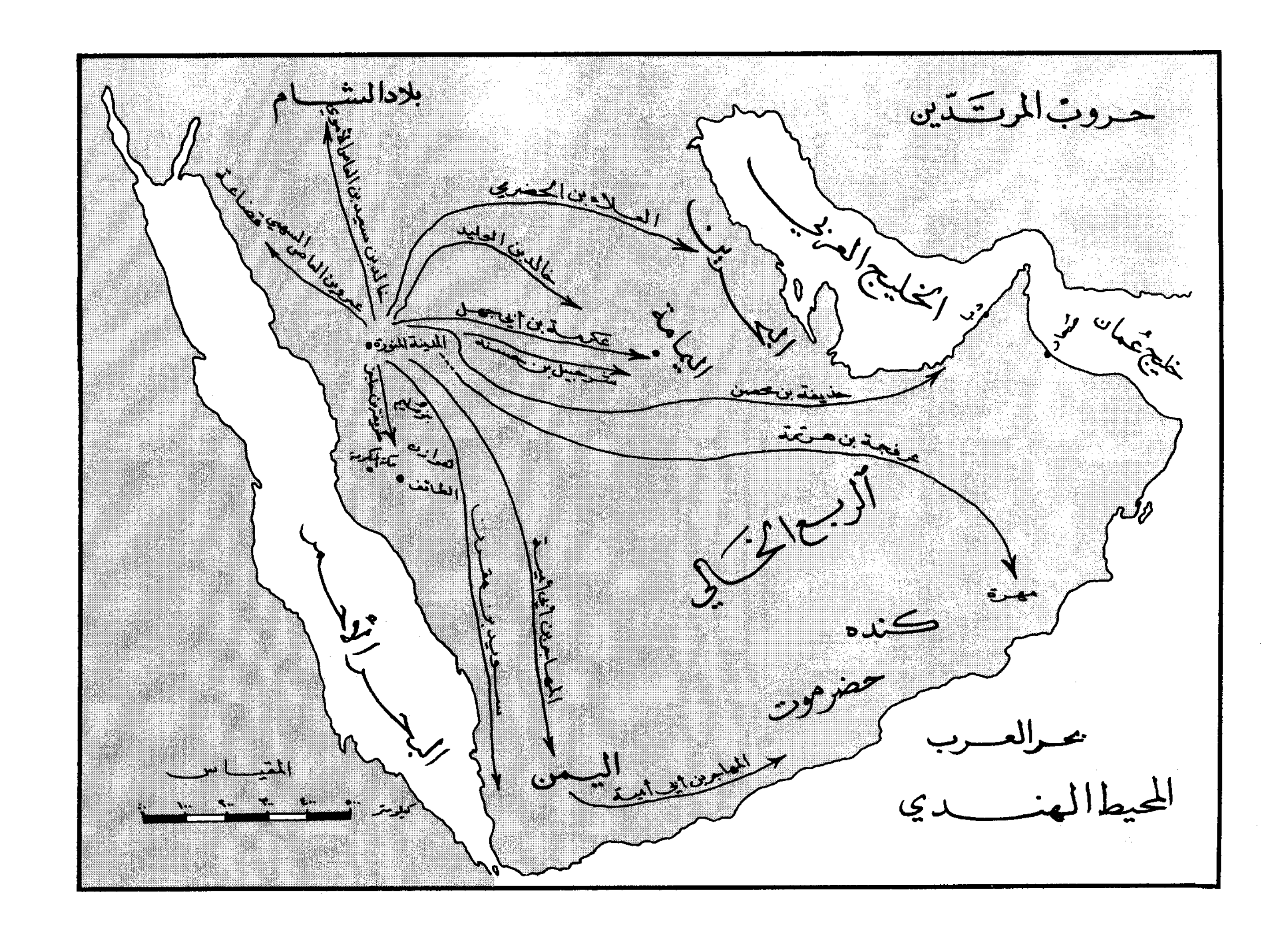
أعماله وفتوحاته

على الرغم من قصر مدة خلافة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، إذ لم تزد على سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، إلا أنها كانت مليئة بالأعمال الجليلة التي تحتاج إلى السنوات الطوال لإنجازها ولترسيخ معاني الإسلام في قلوب أبنائه إلا أن تطبيقه العلمي وإصراره على ما اعتقد، كل ذلك كان يدل على وعي تام بالإسلام، وعزيمة ثابتة راسخة كالجبال بالإيمان، وهذه الأمور هي التي رسخت دعائم الإسلام، ووطدت أركانه، لذا يعدُّ رضي الله عنه هو الذي أرسى الدعائم، وأثبت المفاهيم، وكان رضي الله عنه بعيد النظر في الأمور كلها، واسع الأفق.

كان كثير من الأعراب قد أسلم ولم يدخل الإيمان في قلبه، قال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[3]، فالنفاق كان أيام رسول الله ﷺ، والأعراب على رأس المنافقين، وقد أنبأ الله رسوله بهذا، كما هو

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.
(٢) سورة التوبة: ٩٧ ـ ٩٨.
(٣) سورة التوبة: ١٠١.



حروب المرتدين
بلاد الشام
العلاء بن الحضرمي
خالد بن الوليد
عكرمة بن أبي جهل
شرحبيل بن حسنة
حذيفة بن محصن
عرفجة بن هرثمة
المدينة المنورة
اليمامة
البحرين
الخليج العربي
خليج عمان
الربع الخالي
مهرة
كنده
حضرموت
اليمن
المهاجر بن أبي أمية
بحر العرب
المحيط الهندي
البحر الأحمر
الطائف
المقياس

واضح في آيات كتاب الله. وهؤلاء سيرتدون عن الإسلام عندما يجدون الفرصة المناسبة لهم، بل إن ظواهر الردة قد ظهرت في أيام رسول الله ﷺ إذ تنبأ الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة، وطليحة الأسدي في بني أسد في نجد أيضاً، إلا أنهم لم يجرؤوا إعلان ذلك ولو فعلوه لقاتلهم رسول الله ﷺ. فلما انتشر خبر وفاة رسول الله ﷺ أعلن هؤلاء ارتدادهم، وصرّحوا بنبوءتهم، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن أكثر قبائل العرب قد أظهرت نفاقها، وأعلنت عودتها إلى الجاهلية، ولم يسلم من ذلك سوى مدن: المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف، وما أن قام أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بالأمر حتى أرسلوا رسلهم إليه، يطلبون منه أن يعفيهم من الزكاة، وظنوا أنه سيوافق على ذلك، ما دام الأمر لا يشمل إلا جزءاً صغيراً ومادياً، ولم تكن الناحية المادية ليهتم بها المسلمون ذلك الاهتمام الذي يجعلهم يقاتلون بسبب ذلك، ولم يعلم المنافقون من الأعراب أن الزكاة ركن من أركان الإسلام لا يمكن التساهل به أبداً، إذ أن التساهل به نسف للمبدأ كله فالإِسلام نظام متكامل لا يمكن أن يطبق جزء منه ويترك جزء، وقد انطبقت عليهم الآية الكريمة ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وأيقنوا أن كثرتهم وقوتهم بجانب قلة وضعف جند المدينة سيضطر أبا بكر للموافقة على مطلبهم، وبذلك يتخلصون من الزكاة التي يعدونها لجهلهم ضريبة ولكن ظنهم قد خاب، فأبو بكر، رضي الله عنه، كان أقوى في إيمانه من أن يحل عقدة من عقد الإسلام، أو يسكت على انتهاك ركن من أركانه، ما دام فيه عرق ينبض. وأعلن أبو بكر، رضي الله عنه، أنه سيقاتلهم، وكان في الوقت نفسه قد أصرّ على إنفاذ جيش أسامة بن زيد، رضي الله عنهما، وهنا كانت المعضلة الكبرى، وكانت قوة الصديق في إيمانه هي التي حلت المعضلة، وأنهت المشكلة:

جيش أسامة بن زيد، رضي الله عنهما: وأسامة بن زيد بن حارثة، وأمه أم أيمن بركة حاضنة رسول الله ﷺ، وأسامة حبّ رسول الله ﷺ وابن

حبّه. وكان زيد بن حارثة، رضي الله عنه، قد استشهد في معركة مؤتة أميراً، فأراد رسول الله ﷺ أن يولي ابنه قيادة جيش يغزو تلك الجهات، وقد جهز رسول الله الجيش، وأمره أن تطأ خيله أرض البلقاء في جنوبي الأردن والداروم في جنوبي فلسطين بالقرب من غزة، فتجهز الناس، وتعبأ في جيش أسامة المهاجرون الأولون، ومنهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو آخر جيش جهزه رسول الله ﷺ، وبينما كان الجيش يستعد، ويتجهز إذ مرض رسول الله مرضه الذي توفاه الله فيه، ولم يخرج آخر جندي من المدينة إلا والتحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى فتوقف أسامة بالجيش، فلما بويع أبو بكر، رضي الله عنه، بالخلافة، ومضى ثلاثة أيام على وفاة رسول الله ﷺ أمر أبو بكر الجيش بالحركة والسير إلى الجهة التي أمره رسول الله ﷺ، إذ نادى منادي أبي بكر، من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ: ليتم بعث أسامة، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف[1]. وقام بالناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها؛ ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في شعاركم وأبشاركم، وأنتم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غيّب عنكم علمه! فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلموا آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجدّ الجدّ! والوحا الوحا، والنجاء النجاء! فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مره سريع. احذروا الموت. واعتبروا بالآباء والأبناء والإِخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات[2].

---

(١) الجرف: مكان في شمال المدينة على بعد ثلاثة أميال منها.

(٢) تاريخ الطبري.

فقال أسامة لعمر بن الخطاب: ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وكان المسلمون فعلا قد أحسوا بالخطر من جراء استشراء النفاق في جزيرة العرب، وردة القبائل عن الإسلام. وقال الأنصار: فإن أبى إلا أن يمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلًا أقدم سناً من أسامة. وما كانوا يعلمون أن أبغض شيء على أبي بكر أن يخالف أمراً من أوامر رسول الله ﷺ مهما كانت الظروف، ومهما كانت النتائج.

خرج عمر بن الخطاب بأمر أسامة وجاء إلى أبي بكر فأخبره بما قالوا عن أسامة، فقال أبو بكر، لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ! قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك، وإنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلًا أقدم سناً من أسامة؛ فوثب أبو بكر ـ وكان جالساً ـ فأخذ بلحية عمر، فقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه! فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال امضوا، ثكلتكم أمهاتكم. ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله[1].

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم، فأشخصهم وشيعهم، وهو ماشٍ، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعةً، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترتفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة! حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل! فأذن له ثم قال: يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تُغلّوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيراً، ولا شيخاً كبيراً

(١) تاريخ الطبري.

ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب: فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاعون[١].

ثم قال أبو بكر لأسامة: اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم إيت آبلَ[٢]. ولا تقصّرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ، ولا تعجبنّ لما خلّفت عن عهده. فمضى أسامة مُغَذّاً على ذي المروة والوادي، وانتهى إلى ما أمره به النبي ﷺ من بث الخيول في قبائل قضاعة، والغارة على آبل، فسلم وغنم، وكان فراغه في أربعين يوماً سوى مقامه ومنقلبه راجعاً[٣].

وفي إرسال جيش أسامة ما يدل على قوة إيمان أبي بكر، رضي الله عنه، ومحاولة تنفيذه لما أوصى رسول الله ﷺ مهما كانت النتائج، وهو يعتقد أن النتائج لا تكون إلا خيراً ما دام رسول الله قد أمر بذلك.

وفي إرسال هذا الجيش قوة معنوية كبيرة للمسلمين، وإضعاف واضح لمعنويات المنافقين والمرتدين الذين شعروا أن لدى المسلمين على الأقل قوة معنوية كبيرة جداً، ولو لم يكن ذلك لما تم إرسال هذا الجيش إلى تلك المناطق النائية التي تقع على أطراف الجزيرة العربية وحتى خارج نطاقها أيضاً، ولم يخشوا أبداً ما يتهدد المدينة من الخارجين على حكمها، والذين يحيطون بها من كل جانب.

---

(١) تاريخ الطبري.
(٢) آبل: منطقة في جنوب بلاد الأردن اليوم.
(٣) تاريخ الطبري.

حروب الردة: لما توفي رسول الله ﷺ اتسع نطاق الردة، ونجم النفاق في كل مكان إلا ما كان من المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين، ثم إن المناطق التي تقع إلى الشمال من المدينة، قد خاف أهلها بإرسال جيش أسامة، وقالوا: لو لم يكن للمسلمين من قوة لما أرسلوا مثل هذا الجيش، فلنترك الأمر إلى قتالهم مع الروم، فإن انتصر الروم فقد كفونا القتال، وإن انتصر أسامة فقد ثبت الإسلام، وهذا ما جعل الردة والنفاق لا تظهر في تلك البقاع.

وكان المرتدون فريقين، أولهما قد سار وراء المتنبئين الكاذبين أمثال مسيلمة، وطليحة، والأسود، وآمنوا بما يقول هؤلاء الكذّابون، وثانيهما بقي على إيمانه بالله، وشهادته بنبوة محمد ﷺ وإقام الصلاة، إلا أنه قد رفض تأدية الزكاة، وعدّها ضريبة يدفعها مكرهاً، وقد أرسل هذا الفريق الثاني وفداً إلى المدينة لمفاوضة خليفة رسول الله، وقد نزل على وجهاء الناس في المدينة، عدا العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وقد وافق عدد من كبار المسلمين على قبول ما جاءت به رسل الفريق الثاني، وناقشوا في ذلك الأمر، أبا بكر، ومنهم عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم، إلا أن أبا بكر، رضي الله عنه، قد رفض منهم ذلك، وقال قولته المشهورة: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه».

وقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله. فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً[1] لقاتلتهم على منعهم، وهكذا رأى أبو بكر، رضي الله عنه، أن الإنسان كل لا يتجزأ، وليس هناك من

---

(١) العناق: السخلة، الأنثى الصغيرة من الماعز.

فرق بين فريضة وأخرى، والزكاة وإن كانت من النظام الاقتصادي، إلا أنها ركن من أركان الإسلام، وعبادة بحد ذاتها، ولا يمكن تطبيق جزء من الإسلام وإهمال آخر. ورأى الصحابة أن الأخذ باللين أفضل إذ زلزلت الأرض بالردة والنفاق.

وقال عمر، رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله! تألّف الناس وارفق بهم، فأجابه أبو بكر: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أوَينقص وأنا حي؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ إلا بحقها، ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي.

وردّ أبو بكر وفد المنافقين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، مسفهاً رأيهم، مصراً على رأيه في إجبارهم إلى الخضوع الصحيح للدين فعاد رجال الوفد إلى قبائلهم وأخبروهم بقلة عدد المسلمين - وكان جيش أسامة قد انطلق - وأطمعوهم بغزو المدينة.

وكان أبو بكر، رضي الله عنه، عندما عاد إلى المدينة بعد أن شيّع جيش أسامة قد جعل كبار الصحابة على منافذ المدينة إلى البادية، ومنهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وطلب من أهل المدينة أن يكونوا في المسجد استعداداً لكل طارئ، وقال لهم: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدّوا.

كان أبو بكر، رضي الله عنه، يريد أن يؤخر قتال المنافقين والمرتدين حتى يعود جيش أسامة، لذا كان يستقبل الرسل ويبعث بآخرين، إلا أنه في الوقت نفسه قد أحب بعض المنافقين أن يستغلوا الفرصة، ويهاجموا المدينة قبل عودة الجيش الإسلامي من بلاد الروم، وقبل استكمال المسلمين لقوتهم. فلم تمض أيام ثلاثة على عودة أبي بكر إلى المدينة من تشييع

أسامة حتى داهمت المدينة غارة ليلاً، وقد اطمأن المغيرون إلى أن الجيش الإسلامي قد ابتعد عن المدينة، أوغل في البعد.

وصلت الغارة إلى المدينة المنورة وقد خلفت وراءها قوةً ردءاً لها في (ذي حسى)[1]، وعندما طرقت الغارة الأنقاب وجدت عليها المقاتلة، ووراءهم أقوام أشبه بالمراسلين، فأوصلوا الخبر إلى أبي بكر في المسجد، فأرسل أبو بكر إلى المقاتلة على الأنقاب أن اثبتوا، وصار بأهل المسجد إلى الأنقاب، فانهزم المغيرون وولوا الأدبار، ولحقهم المسلمون على إبلهم حتى (ذي حسى)، فوجدوا الردء هناك، وقد نفخوا الأنحاء[2]، وربطوها بالحبال، ودهدهوها[3] بأرجلهم في وجه إبل المسلمين، فنفرت الإبل ورجعت بالمسلمين إلى المدينة، فأرسل المنافقون إلى إخوانهم في (ذي القصة)[4] بالخبر، فأسرعوا إليهم، وحضر أبو بكر ليلته يتهيأ، ثم خرج في آخر الليل ماشياً، وعلى الميمنة النعمان بن مُقَرّن[5]، وعلى الميسرة عبد الله بن مقرن[6]، وعلى الساقة سويد بن مقرن[7]، فلما أصبح الصباح لم يشعر المنافقون إلا والمسلمون يعملون فيهم السيف، فلما كانت ضحوة ذلك النهار ولّى المنافقون الأدبار، ووصل المسلمون إلى (ذي القصة)، فترك أبو بكر هناك النعمان بن مقرن في عدد من المسلمين، ورجع هو بالناس إلى المدينة.

---

(١) ذي الحُسى: موقع قرب المدينة. (٢) الأنحاء: ضروف السمن.
(٣) دهدهوها: دفعوها.
(٤) ذي القصة. مكان يبعد ٣٥ كيلومتراً عن المدينة.
(٥) النعمان بن مقرن بن عائذ المزني: أبو عمرو، صحابي فاتح، من الأمراء القادة الشجعان، كان معه لواء مزينة يوم فتح مكة، استشهد يوم نهاوند عام ٢١هـ. وله عشرة إخوة كلهم من الشجعان.
(٦) عبد الله بن مقرن بن عائذ المزني: أخو النعمان.
(٧) سويد بن مقرن بن عائذ المزني: أخو النعمان، أبو عائذ، أسلم مع أسرته، شهد فتح العراق، وحضر القادسية والمدائن، قاتل تحت لواء أخيه النعمان بنهاوند، وتحت لواء أخيه نعيم في الري وهمدان، ثم قاد فتح طبرستان وجرجان، سكن الكوفة ومات بها.

ارتفعت معنويات المسلمين في هذا النصر، وثبت مسلمو القبائل على دينهم، وجاء نصر آخر إذ وصلت إلى المسلمين أموال الصدقات من عدة جهات، فقد جاء صفوان بن صفوان[1] بصدقات بني عمرو وذلك في أول الليل من جهة النقب الذي عليه سعد بن أبي وقاص[2]. وجاء الزبرقان بن بدر[3] في وسط الليل بصدقات بني عوف من جهة النقب الذي عليه عبد الرحمن بن عوف[4] وجاء عدي بن حاتم الطائي[5] في آخر الليل بصدقات قومه من جهة النقب الذي عليه عبد الله بن مسعود[6]، وكان ذلك بعد مسير جيش أسامة بن زيد بشهرين كاملين، ثم كان النصر الثالث إذ لم تمض عشرة أيام حتى رجع جيش أسامة غانماً ظافراً، فاستخلف أبو بكر أسامة بن زيد على المدينة، وقال له: أريحوا وأريحوا ظهركم، ثم خرج في الذين خرجوا إلى (ذي القصة) والذين كانوا على الأنقاب، فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله، ألاّ تعرض نفسك، فإنك إن

---

(١) صفوان بن صفوان بن أسيد من بني تميم: كان رسول الله ﷺ قد ولاه على صدقات بني عمرو الذين هم فرع من بني تميم.

(٢) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب الزهري، أبو إسحاق: من المسلمين الأوائل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، فاتح القادسية والمدائن، فارس الإسلام، أحد رجال الشورى، اعتزل الفتنة، وتوفي قرب المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان عام ٥٥هـ.

(٣) الزبرقان بن بدر التميمي: صحابي، أحد وجهاء قومة، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه، وبقي عليها حتى أيام عمر، رضي الله عنه، كف بصره في آخر حياته، ومات عام ٤٥هـ في أيام معاوية، رضي الله عنه، وكان شاعراً.

(٤) عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي، أبو محمد: صحابي جليل، من العشرة المبشرين بالجنة، وأحد رجال الشورى، من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان تاجراً مشهوراً، توفي عام ٣٢هـ أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

(٥) عدي بن حاتم الطائي، أبو طريف وأبو وهب: أمير: صحابي، أسلم في السنة التاسعة للهجرة، شهد فتح العراق، وحضر الجمل وصفين والنهروان مع علي، رضي الله عنه، وفقئت عينه يوم صفين، مات بالكوفة عام ٦٨هـ أيام عبد الله بن الزبير.

(٦) عبد الله بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي، من السابقين للإِسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، خدم رسول الله ﷺ، كان قصيراً، توفي في خلافة عثمان، رضي الله عنه، عام ٣٢هـ، قال عنه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: وعاء ملئ علماً.

تصب لم يكن للناس نظام، ومقامكم أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمرت آخر، وجاء علي بن أبي طالب بزمام راحلته وقال له: أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شمّ[1] سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة. فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي. فخرج إلى (ذي الحسى) و (ذي القصة)، والنعمان بن مقرن وأخواه كما كانوا في التشكيل السابق، ثم نزل أبو بكر بمن معه على الربذة بالأبرق، وقاتل المنافقين وغلبهم، فولّوا الأدبار، ورجع أبو بكر إلى المدينة، وجاءت صدقات كثيرة إلى المسلمين تزيد على حاجاتهم، وكان جند أسامة قد أخذوا الراحة المطلوبة، فعقد أبو بكر أحد عشر لواءً لقتال المرتدين في كل أنحاء الجزيرة العربية وهم:

١ - خالد بن الوليد[2]: وأرسله إلى طليحة بن خويلد الأسدي[3]! فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة اليربوعي التميمي[4] بالبطاح[5].

٢ - عكرمة بن أبي جهل[6]: وأرسله إلى مسيلمة الكذاب

---

(١) شم: اغمد.

(٢) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، أبو سليمان، سيف الله: الصحابي الجليل، من أشراف قريش في الجاهلية، كان يلي أعنة الخيل، أسلم عام ٧هـ، سر به رسول الله وولاه الخيل، اشتهر بحروبه ضد المرتدين، قاد الفتوح في العراق ثم الشام، توفي في المدينة عام ٢١هـ، وقيل بحمص.

(٣) طليحة بن خويلد الأسدي ارتد: ثم عاد إلى الإسلام، وبايع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان قد استخلف، ورجع طليحة إلى دار قومه وبقي فيها حتى خرج مجاهداً إلى العراق، وقد أبلى بلاء حسناً في الفتوحات.

(٤) مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة: فارس شاعر، أسلم، وولاه رسول الله صدقات قومه، وعند وفاة رسول الله اضطرب أمره وفرق ما جمع من صدقات في قومه، وقيل ارتد، قتله ضرار بن الأزور بأمر خالد بن الوليد أثناء حروب المرتدين.

(٥) البطاح: منزل لبني يربوع، وقيل ماء في ديار بني أسد بن خزيمة، وتقع جنوب وادي الرمّة في بعض الأودية المتجهة إليه من الجنوب.

(٦) عكرمة بن أبي جهل المخزوني، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد فتح مكة، وحسن إسلامه، كان على رأس كردوس في اليرموك واستشهد يومذاك عام ١٣هـ.

الحنفي[1] في اليمامة.

٣ ـ شرحبيل بن حَسَنة[2]: وأرسله دعماً إلى عكرمة بن أبي جهل في اليمامة.

٤ ـ المهاجر بن أبي أمية[3]: وبعثه لقتال أتباع الأسود العنسي[4] في اليمن، فإذا فرغ سار إلى حضرموت.

٥ ـ عمرو بن العاص[5]: وسيره إلى قبيلة قضاعة في الشمال.

---

(١) مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي، أبو تمامة: متنبئ كذاب، ولد ونشأ باليمامة في بلدة الجبيلة القائمة حتى الآن في وادي حنيفة شمال الرياض بأربعين كيلا. عرف في الجاهلية برحمان اليمامة، وعندما ظهر الإسلام في الحجاز جاء مع وفد بني حنيفة قوم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ويقال أنه تخلف عن الوفد، وأسلم الوفد، ولما رجعوا كاتب رسول الله، وأراد أن يشاركه في الأمر، وأن يكون لهم نصف الأرض ولقريش النصف الآخر، وأظهر أن قريشاً قوم يعتدون، وانتقل رسول الله ﷺ ولم يقض على فتنة مسيلمة، وعندما ولي أبو بكر أرسل له الجيوش فقضت عليه عام ١١هـ. واستشهد في قتاله عدد كبير من الصحابة.

(٢) شرحبيل بن حسنة الكندي حليف بن زهرة: صحابي من القادة، أسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة، وأوفده رسول الله إلى مصر، قاد جيشاً لفتح الشام، عزله عمر، وولى معاوية مكانه، وتوفي بطاعون عمواس عام ١٨هـ، وحسنة أمه أما أبوه فقاسم بن عبد الله.

(٣) المهاجر بن أبي أمية: صحابي، من القادة المشهورين، شهد بدراً مع المشركين، أسلم المهاجر، وأخته هي أم المؤمنين أم سلمة هند، أرسله رسول الله إلى اليمن، تخلف عن تبوك، ولاه رسول الله على صدقات كندة، وقبل أن يسير توفي رسول الله، أرسله أبو بكر لقتال من بقي من المرتدين في اليمن، وتولى إمرة صنعاء.

(٤) الأسود العنسي: عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي: متنبئ كذاب، أسلم لما أسلمت اليمن، وارتد أول من ارتد في الإسلام وذلك أيام رسول الله ﷺ، وادعى النبوة، اغتيل أيام رسول الله، وقبل انتقال رسول الله بشهر واحد تقريباً.

(٥) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله: أحد قادة فتوح الشام، وفاتح مصر، من أهل الرأي والحزم، أسلم بعد الحديبية، ولاه رسول الله إمرة ذات السلاسل، ثم استعمله على عُمان، وفتح قنسرين، وصالح أهل حلب، ومنبج، وإنطاكية، تولى أمر فلسطين، ثم مصر، عزله عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عن مصر، ثم عاد إليها عام ٣٨ بأمر من معاوية، رضي الله عنه، وتوفي بالفسطاط عام ٤٣هـ.

٦ ـ خالد بن سعيد بن العاص[١]: ووجهه إلى مشارف الشام.

٧ ـ حذيفة بن محصن: وأمره بالحركة إلى أهل دَبا.

٨ ـ عرفجة بن هرثمة[٢]: وسيّره إلى مهرة، وأمره أن يلتقي مع حذيفة.

٩ ـ طريفة بن حاجز: ووجه إلى بني سُليم، ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ سويد بن مُقَرن: وبعثه إلى تهامة اليمن.

١١ ـ العلاء بن الحضرمي[٣]: وقد اتجه إلى بلاد البحرين.

وبعد أن قاتل أبو بكر الصديق عبس وذبيان (بالأبرق) من أرض (الربذة)[٤] وهزمهم، اتجه قسم منهم إلى (البزاخة)[٥]، وهي ماء لبني أسد، وهناك طليحة بن خويلد الأسدي، فلما عقد أبو بكر الألوية، طلب من خالد أن يسير إلى أرض طيء لتنخذل طيء، وعبس، وذبيان، وأظهر أن أبا بكر سيتجه إلى خيبر ومن هناك سيرفد خالداً في بلاد طيء.

---

(١) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: صحابي، من الولاة المجاهدين، أسلم في بداية الدعوة، لقي العذاب الشديد في سبيل دينه، هاجر إلى الحبشة، شهد فتح مكة وتبوك، أرسله رسول الله إلى اليمن، وتوفي رسول الله، فاستدعاه أبو بكر، فجاءه، وخرج مجاهداً، شهد فتح أجنادين، واستشهد في مرج الصفر قرب دمشق عام ١٣هـ.

(٢) عرفجة بن هرثمة الأزدي، من أهل البحرين، ثم قاتل تحت إمرة العلاء بن الحضرمي فوجهه للعمل في البحر ففتح جزيرة، ثم سار مددا إلى عتبة بن غزوان حين غزا (الأبلة)، ثم صار إلى الموصل، وتوفي في خلافة عمر في عام ٢٠هـ.

(٣) العلاء بن الحضرمي: أصله من حضرموت، سكن أبوه مكة، فولد العلاء فيها، ونشأ في ربوعها، أسلم وهاجر، ولاه رسول الله البحرين، وجعله عاملاً على الصدقات فيها. وأقره أبو بكر وعمر عليها، ويعد أول مسلم ركب البحر للغزو، مات في طريقه إلى البصرة عام ٢١هـ.

(٤) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام منها، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز، إذا رحلت من فيد تريد مكة.

(٥) البزاخة: ماء لطيء بأرض نجد، وقيل ماء لبني أسد.

سار خالد بن الوليد إلى بلاد طيء ولكن عدي بن حاتم طلب من خالد أن يمهله ثلاثة أيام ليكسب إليه قومه ففعل، ومن بلاد طيء، نزل خالد إلى (بُزاخة)، وقتلت طليعته (عكاشة بن محصن)[1] (وثابت بن أقرم)، ولما التقى الجمعان هزم (عيينة بن حصن)[2] مع قومه فزاره، فانفصل عن القوم، وفرّ طليحة بعدها نحو بلاد الشام، وكان طليحة قد ارتد في أيام رسول الله ﷺ فأرسل إليه ضرار بن الأزور[3]، فنزل المرتدون في (سميراء) وبدأ عددهم بالتناقص، وفي هذه الأثناء توفي رسول الله ﷺ، فزاد عدد المرتدين وانضمت غطفان بإمرة عيينة بن حصن إلى بني أسد، وكانوا قد خالفوا طيئاً (عوف وجديلة وغوث)، فلما انضمت غطفان إلى أسد فرّ ضرار بن الأزور ببعض من معه إلى المدينة، وانفضت جموعه. وعندما جاء خالد وهزم أعداءه في البزاخة أسلمت أسد، وعامر، وغطفان. وبعد انتهاء خالد من بني أسد وأحلافهم اتجه بأمر الخليفة إلى بني يربوع من تميم في البطاح وعليهم مالك بن نويرة. وكان الخلاف في بني تميم على أشده وقد جاءتهم سجاح[4] من الجزيرة ببني تغلب فدخلت بلادهم، فوادعها من وادعها، وفرّ من وجهها من فر. وسارت بعد ذلك إلى اليمامة فكان أمر مسيلمة قد قوي، فخافها مسيلمة فاستأمنها، فأمنته، وتزوجها،

---

(١) عكاشة بن محصن: من بني أسد، صحابي من أمراء السرايا، يعد من أهل المدينة إذ أنه حليف الأنصار مع أنه مع المهاجرين، شهد المشاهد مع رسول الله، قتل في حروب الردة، وكان طليعة للمسلمين.

(٢) عيينة بن حصن: سيد فزارة، قاتل المسلمين أميراً لقومه، ثم أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم كان مع طليحة الأسدي مرتداً، فأسر وأرسل إلى المدينة موثوقاً.

(٣) ضرار بن الأزور بن أوس، من بني أسد، أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام، صحابي قاتل يوم اليمامة، شهد اليرموك وفتح الشام، وقطعت ساقاه، وتوفي بعدها بأيام.

(٤) سجاح بنت الحارث بن سويد بن غطفان من بني تميم، فرع بني يربوع، أم صادر: متنبئة كذابة، كانت في بني تغلب في الجزيرة، متنصرة، شاعرة، جاءت من الجزيرة فتبعها بنو تميم، وسارت بهم إلى بني حنيفة، فالتقت بمسيلمة وتزوجت به، ثم رجعت إلى الجزيرة، وأسلمت بعد مقتل مسيلمة، وأقامت بالبصرة، وتوفيت في خلافة معاوية، رضي الله عنه، عام ٥٥هـ، وصلى عليها والي البصرة سمرة بن جندب.

وبقيت عنده ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى أرض قومها، وكانت قد تنبأت مثل مسيلمة، وسار معها عدد من وجهاء بني تميم، وكانت قد صالحت مسيلمة على نصف غلات اليمامة... وعندما عادت إلى الجزيرة، وجاء المسلمون أسلمت، وحسن إسلامها.

ولما عادت سجاح إلى الجزيرة، تحير بنو تميم الذين وادعوها، وندموا على ما كان منهم، ولم يلبثوا طويلاً حتى وصلت إليهم جيوش خالد بن الوليد، فعندما جيء برؤسائهم إلى خالد، جادلهم، وشهد جماعة على بني يربوع أنهم لم يؤذنوا فقتلهم، وقتل ضرار بن الأزور الذي كان على طليعة خالد مالك بن نويرة... وحدثت خلافات في قتله، فتزوج خالد امرأته أم تميم ابنة المنهال بعد انقضاء عدتها.

وسار عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب في اليمامة، وتبعه شرحبيل بن حسنة، ولكنه لم يدركه، وكان عكرمة قد أسرع فهزمته جموع بني حنيفة، فبقي شرحبيل ينتظر المدد، وجاء أمر أبي بكر لعكرمة بالانتظار أيضاً، وإذا فرغ سار إلى حذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة لقتال المرتدين في عُمان حتى يلتقوا مع المهاجر بن أبي أمية الذي يكون قد فرغ من اليمن وسار إلى حضرموت.

وكان خالد قد عاد إلى المدينة والتقى بأبي بكر وذلك بعد الانتهاء من البطاح، فاعتذر لأبي بكر فرضي عنه، وأرسله إلى مسيلمة الكذاب، فسار إلى البطاح والتقى بجنده هناك وانتظر حتى جاءه المدد، فقام إلى مسيلمة... ولما وصل إليها كان شرحبيل بن حسنة قد سابقه في قتال القوم فهزم، وكان يساعده بعض بني حنيفة بإمرة ثمامة بن أثال[1]،

---

(١) ثمامة بن أثال بن النعمان اليمامي، من بني حنيفة، أبو أمامة: صحابي، من سادات اليمامة، أسر بيد المسلمين، وهو في طريقه لزيارة البيت، أطلق سراحه بأمر رسول الله، أسلم بعد أن أدى العمرة، ولما ارتد بنو حنيفة ثبت على إسلامه، وقاتل المرتدين بجانب عكرمة، وشرحبيل، ثم سيره أبو بكر إلى البحرين فقاتل المرتدين هناك تحت إمرة العلاء بن الحضرمي، واستشهد هناك.

رضي الله عنه، فلام خالد شرحبيل في تسرعه: وعسكر مسيلمة في بني حنيفة في عقرباء في أعلى وادي حنيفة ـ وتسمى اليوم الجبيلة ـ وسلك خالد ثنية في جبل اليمامة (طويق) وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب[١] أخو عمر، وأبو حذيفة بن عتبة[٢] وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس[٣]، وكان ضرار بن الأزور قد سار في قسم من الجند من ثنية من الشمال، ونزلوا من جهة (ملهم)[٤] إلى عقرباء، وجرت معركة حامية الوطيس تراجع المسلمون في أولها حتى دخل بنو حنيفة على خالد في فسطاطه، ثم حمل المسلمون حملة رجل واحد أزالت المرتدين عن مواقعهم، وأجبرت مسيلمة الالتجاء إلى حديقة عرفت باسم حديقة الموت، وفيها صرع مسيلمة الكذاب وعدد كبير من قومه، واستشهد من المسلمين عدد من القراء ووجهاء الناس، منهم زيد بن الخطاب، وثابت بن قيس وغيرهم كثير.

وفي عُمان ظهر لقيط بن مالك الأزدي، وغلب عليها، واضطر جيفر وعباد الالتجاء إلى الجبال وعلى سواحل البحر، وأرسل جيفر إلى أبي بكر الصديق يستنجده، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن إلى عمان، وعرفجة بن هرثمة إلى مهرة، وأوصاهما إذا التقيا أن يبتدئا بعمان، وإذا اقتربا منها راسلا جيفرا وعباداً، ثم أتبعهما بعكرمة بن أبي جهل الذي كانت وجهته اليمامة، فلما هزم طلب من الخليفة أن يسير بمن معه إلى عمان.

---

(١) زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي: أخو عمر بن الخطاب، وكان أسن من عمر، وأسلم قبله، صحابي، يعد من شجعان العرب في الجاهلية والإسلام، كانت راية المسلمين بيده يوم اليمامة، وثبت يومذاك حتى استشهد، وقبره هناك.

(٢) أبو حذيفة بن عتبة بن عبد شمس: صحابي، هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، شهد بدراً مع المسلمين، وفيها قتل أبوه، وعمه، وأخوه كفاراً، وحضر المشاهد كلها، واستشهد يوم اليمامة.

(٣) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري: صحابي، خطيب رسول الله ﷺ، شهد المشاهد التي بعد أحد كلها، وكانت راية الأنصار بيده يوم اليمامة، واستشهد يومها.

(٤) ملهم: قرية من قرى اليمامة، ولا تزال معروفة، تقع إلى الشمال من الرياض على بعد ستين كيلاً منها.

اتجه عكرمة في أثر حذيفة وعرفجة فأدركهما قبل الوصول إلى عُمان، وهناك راسلوا جيفرا وعباداً، وعسكر المسلمون في صحار[1]، وتجمعت جموع لقيط في دبا، وجرت معركة بين الطرفين كاد ينجح فيها لقيط لولا النجدات التي وصلت للمسلمين من البحرين وغيرها، فانتصر المؤمنون، وهزم لقيط، واستولى المسلمون على الغنائم، وأرسلوا الخمس مع عرفجة إلى أبي بكر الصديق، وبقي حذيفة يدير شؤون عمان، وسار عكرمة إلى مهرة. وكان القوم فيها قد ارتدوا، إلا أنهم اختلفوا فقسم منهم في السواحل مع (شخريت) وهم أقل عدداً، وبدأ بهم عكرمة، فدعاهم للإسلام، فوافقوا، الأمر الذي أضعف القسم الثاني الذين كانوا في المناطق المرتفعة مع (المصبح)، فهزموا أمام المسلمين الذين حازوا على الغنائم، فأرسل عكرمة الخمس مع (شخريت) إلى المدينة المنورة.

وأما اليمن فقد كان عليها عدد من الولاة كلٌ على جزء، وقد ادعى فيها النبوة الأسود العنسي، وأرسل له رسول الله ﷺ الرسل والكتب، واستمر ذلك حتى مات، وهدأت الأمور باليمن، فلما انتقل رسول الله ﷺ انتقضت اليمن، فالتجأ عمال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام إلى المسلمين إلا عمرو بن حزم،[2] وخالد بن سعيد بن العاص فإنهما عادا إلى المدينة، ووصل الخبر إلى أبي بكر فحارب المرتدين بأن أرسل إليهم الرسل والكتب كما كان يفعل رسول الله ﷺ - فلما رجع جيش أسامة من غزوه، وعقد أبو بكر، رضي الله عنه، الألوية، بعث (عتابُ بن أسيد)[3]

---

(١) صحار: قصبة عمان مما يلي الجبل، وهي طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالآجر والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها. ولا تزال قائمة إلى الآن بين مسقط والفجيرة.

(٢) عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري، أبو الضحاك: وال، صحابي، شهد الخندق، وما بعدها، استعمله رسول الله على نجران وتوفي عام ٥٣هـ. في أيام معاوية، رضي الله عنه.

(٣) عتاب بن أسيد بن أبي العيض بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الرحمن، وال أموي قرشي مكي، من الصحابة. كان شجاعاً عاقلاً، من أشراف العرب في صدر الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، واستعمله رسول الله عليها عند مخرجه إلى حنين، وكان عمره ٢١ عاماً، وبقي عليها، وأقره أبو بكر، واستمر فيها إلى أن مات.

عامل مكة أخاه خالد بن أسيد[1] إلى المرتدين في تهامة فغلبهم، وبعث عثمان بن أبي العاص على الطائف ابن ربيعة إلى شنوءة فقهرهم.

وتحرك كذلك بتهامة اليمن الأخباث من (عك) و (الأشعريون) فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة، وأخبر بذلك أبا بكر، فانتصر الطاهر قبل أن يصل إليه كتاب وجواب أبي بكر.

وأرسل أبو بكر جرير بن عبد الله البجلي إلى (بجيلة) و (خثعم) فانتصر عليهم، وأقام بنجران حسب أوامر خليفة رسول الله.

وأرسل أبو بكر كتاباً إلى طاهر بن أبي هالة يأمره بأن يسير إلى صنعاء لمساعدة المسلمين، كما كتب إلى عبد الله بن ثور أن يجمع إليه من استجاب له من أهل تهامة، وينتظر التعليمات.

أرسل أبو بكر، رضي الله عنه، المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن، فسار عن طريق مكة، فمشى معه خالد بن أسيد، ومرّ بالطائف، فمشى معه عبد الرحمن بن أبي العاص، ثم انضم إليه جرير بن عبد الله البجلي بالسراة، وعبد الله بن ثور بتهامة، كما انضم إليه من نجران فروة بن مسيك[2]، فأوثق المهاجر عمرو بن معد يكرب[3]، وقيس بن عبد يغوث المكشوح وهما من المرتدين، إلى أبي بكر، رضي الله عنه. ووصل المهاجر إلى صنعاء ودخلها، ولاحق شذاذ القبائل الذين هربوا.

وارتدت حضرموت، وكان عمال رسول الله ﷺ عليها (عكاشة بن

---

(١) خالد بن أسيد: أخو عتاب بن أسيد، وهو من الفرسان المشهورين.

(٢) فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي المرادي، أبو عمر: وال من الصحابة، وهو من اليمن، وفد على النبي وأسلم، فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد، وقاتل المرتدين بعد وفاة رسول الله، توفي بالكوفة عام ٣٠هـ.

(٣) عمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي: فارس اليمن، وفد على رسول الله في عشرة من زبيد فأسلموا جميعاً، ولما توفي رسول الله ارتد عمرو، ثم أسلم، وبعثه أبو بكر إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك وفقد إحدى عينيه. وسار إلى العراق فشهد القادسية، توفي عام ٢١هـ.

محصن) و(زياد بن لبيد البياضي) ثم أرسل إليها المهاجر بن أبي أمية، ولم ينطلق من المدينة بعد حتى توفي رسول الله، ﷺ، فسيَّره أبو بكر إلى اليمن، وهو في طريقه إلى عمله الجديد، فوصل إلى صنعاء ودخلها، وكان عمال أبي بكر ينتظرون والي حضرموت الجديد. وسار المهاجر إلى حضرموت، كما سار إليها عكرمة بن أبي جهل، فالتقيا في مأرب، فاقتحما حضرموت، وأرسل المهاجر خمس الغنائم إلى أبي بكر ومعها الأشعث بن قيس الكندي[1] أسيراً، وبقي في المدينة حتى خرج مجاهداً إلى العراق، واختار المهاجر بن أبي أمية العمل في اليمن فكان هو وفيروز، وبقي في حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعبيدة بن سعد.

وأما البحرين فكان فيها بنو عبد القيس، وبنو بكر، وكان عامل رسول الله ﷺ المنذر بن ساوى[2]، وتوفي في المدة التي مات فيها رسول الله ﷺ، فارتدت البحرين، أما بنو عبد القيس فقد ثبتت على الإسلام بفضل (الجارود)، وأما بكر فثبتت على ردتها. وأما الجارود فكان رجلاً نصرانياً، وقد وفد على رسول الله ﷺ وأسلم، وبقي بالمدينة حتى فقه في الدين، ثم رجع إلى قومه فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفي رسول الله ﷺ، فارتد قومه وقالت بنو عبد القيس: لو كان محمد نبياً لما مات، وبلغ ذلك الجارود فجمعهم وقال لهم: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ولا تجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عمّا بدا

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي: أمير كندة في الجاهلية والإسلام، وفد على رسول الله وأسلم، ولما ولي أبو بكر الخلافة امتنع الأشعث وبعض كندة من تأدية الزكاة، ولكنه هزم وسيق موثوقاً إلى أبي بكر في المدينة، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته أم فروة، وحسن إسلامه، وحضر اليرموك وفقد عينه، وحضر فتح العراق مع سعد، وكان مع علي في صفين والنهروان، وتوفي عام ٤١هـ.

(٢) المنذر بن ساوى بن الأخنس العبدي: أمير في الجاهلية والإسلام، كان صاحب البحرين، أرسل له رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي يدعوه فيها إلى الإسلام فأسلم، واستمر في عمله، وتوفي قبل ردة أهل البحرين أي قبل وفاة رسول الله بشهر واحد.

لك، قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوه؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وَأن محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك سيدنا وأفضلنا، وثبتوا على إسلامهم، وحصرت جماعته في مكانين، وقاد المرتدين الحطم بن ضبيعة، وأرسل أبو بكر، رضي الله عنه، العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وكان من قبل أميراً عليها من قبل رسول الله ﷺ، فلما اقترب من البحرين التحق به ثمامة بن أثال، رضي الله عنه، من مسلمة بني حنيفة وذلك بأمر رسول الله ﷺ، فكان الجارود ومن معه من عبد القيس يقاتلون الحطم بن ضبيعة، والعلاء ومن معه يقاتلون المرتدين في جهة هجر، ونصر الله المسلمين، وأيدهم، وخذل الكافرين، وهزمهم.

الفتوحات: لم تكد الدعوة لتقف في أرض معينة، فالأرض كلها ساحتها وميدانها، وإذا توقفت قليلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ فذلك بسبب الردة، فلما انتهت الردة كان لا بد من أن تعاود نشاطها، وتسير بشكل طبيعي، ويقاتل كل من يقف في وجهها وذلك هو الجهاد.

وانتهت حروب الردة، وكان لا بدّ من الجهاد، فالفرس يقفون في وجه الدعوة، ويحاولون دعم أعدائها، ومدّ المرتدين عليها، والروم يحاربون الدعوة، وينصرون خصومها، ويحرضون القبائل المنتصرة ضدها، وكان لا بدّ من قتال الطرفين، والاستعانة بالله عليهما وبالإيمان القوي بأن النصر من الله يؤتيه من يشاء ممن استقام على منهجه، وإذن كان على المسلمين أن يقاتلوا على جبهتين لم تكونا متفقتين، وهذا ما ساعدهم على القتال وحرية الحركة دون الخوف من الطرف الآخر.

أ ـ الجبهة الفارسية: كان الفرس يسيطرون على مناطق واسعة تبدأ من بادية الشام في الغرب، وشمال جزيرة العرب من الجنوب، وتتوسع منطقتهم في الغرب وتتناقص حسب انتصارهم على الروم، أو هزيمتهم أمامهم، فتارة يتوسعون، وقد وصلوا إلى سواحل البوسفور ثم ارتدوا حتى حدود الفرات، وكان عدد من القبائل العربية تقيم في المناطق التي يسيطر

عليها الفرس سواء في منطقة السواد أم على ضفاف الفرات والجزيرة، ومن هذه القبائل تغلب، وبكر، وشيبان، وربيعة، وطيء، وبعضها كانت مُتنصّرة في أغلبها كتغلب، وكانت طيء تعلو ويقيم رئيسها في بلدة الحيرة على مقربة من الفرات، ويعمل للفرس على توطيد سلطانهم في تلك الأنحاء، وكان من بني شيبان فارس مقدام قد دخل في الإسلام هو المثنى بن حارثة الشيباني[(١)]، وقد طلب من أبي بكر بعد أن انتهى من حروب المرتدين في البحرين أن يؤمره على قومه وممن دان بالإسلام في تلك الجهات ليجاهد الفرس، ويقاتل أعداء الله، فأمّره أبو بكر فصار يناوش الفرس، وينتصر عليهم وقعة بعد وقعة إلا أنه في عدد قليل من المجاهدين، والفرس كثير، ومعهم عدد كبير من العرب المُتنصّرة، والقوة ستتناقص مع الأيام أمام الكثرة فكان لا بدّ من إرسال المدد للمثنى.

وانتهى خالد من حرب اليمامة، فجاءه الأمر من أبي بكر بالتوجه إلى العراق ليدعم المثنى بن حارثة الشيباني وليكن دخوله من الجنوب على حين يدخلها عياض بن غنم[(٢)] من جهة الشمال، وليكن لقاؤهما في الحيرة[(٣)] ومن سبق إليها كانت له الإمرة على صاحبه. وكان ذلك في مطلع العام الثاني عشر للهجرة. وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي[(٤)]، وأنجد عياض بن غنم بعبد بن عوف الحميري.

---

(١) المثنى بن حارثة الشيباني: صحابي فاتح، من كبار القادة، أسلم عام ٩هـ، غزا بلاد فارس أيام أبي بكر، أمده أبو بكر بخالد بن الوليد، وأمده عمر بأبي عبيد، وجرح في معركة الجسر، ثم أمده بسعد بن أبي وقاص، ولكنه توفي قبل وصول سعد إليه.

(٢) عياض بن غنم بن زهير الفهري: قائد من شجعان الصحابة، شهد المشاهد مع رسول الله، وفتح الجزيرة الفراتية، وتوفي بالشام عام ٢٠هـ.

(٣) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف (الخورنق) إلى الشرق منها على بعد ميل، والدير إلى الغرب منها في بادية الشام.

(٤) القعقاع بن عمرو التميمي: أحد فرسان العرب المشهورين وأبطالهم في الجاهلية والإسلام، له صحبة، قال فيه أبو بكر: صوت القعقاع في الحرب خير من ألف فارس، شهد اليرموك وفتح دمشق، والقادسية وأكثر وقائع العراق، وسكن الكوفة، وشهد صفين بجانب سيدنا علي، وتوفي عام ٤٠هـ.

سار خالد بن الوليد مباشرة باتجاه الحيرة، والتقى في طريقه ببعض القريات (ألّيس)[١] وما جاورها فصالح صاحبها (بُصْبُري بن صلوبا)، ثم اتجه نحو الحيرة، وكان عليها من قبل الفرس هانئ بن قبيصة الطائي[٢]، فقال له خالد: إني أدعوكم إلى الله وإلى عبادته، وإلى الإسلام، فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر. فقالوا: لا حاجة لنا في حربك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم. وكان المثنى بن حارثة الشيباني يقاتل تارة في جهات كسكر[٣] وأخرى في جهات الفرات الأسفل، يقاتل الهرمزان في تلك البقاع، فاستدعى خالد المثنى ونزلوا إلى جهات الأُبلّة[٤] لتجميع قوات المسلمين، وكانوا في ثمانية عشر ألفاً، وقد سار المثنى قبل خالد بيومين، وسار عدي بن حاتم، وعاصم بن عمرو التميمي[٥] بعد المثنى بيوم، وأعطاهم خالد موعداً في الحفير[٦]، وقد التقوا بهرمز في أرض الأُبلّة، وكانت المعركة، وأراد هرمز أن يغدر بخالد إلا أن القعقاع بن عمرو قتل هرمز، والتحم مع حماته الذين أرادوا أن يغدروا بخالد، وركب المسلمون أكتاف أعدائهم حتى غشاهم الليل، وكان الفرس

---

(١) أُلّيس: هي غير موجودة الآن، وهي في أول أرض العراق من ناحية البادية.

(٢) هانئ بن قبيصة الطائي: وهو أخو إياس بن قبيصة الذي تولى أمر الحيرة بأمر كسرى بعد استدعاء النعمان بن المنذر إلى فارس، وجعل ودائعه عند هانئ بن مسعود الشيباني، وجرت معركة ذي قار بين جيوش كسرى بقيادة إياس وبين هانئ بن مسعود الشيباني الذي يقود بني بكر.

(٣) كسكر: كورة واسعة، وقصبتها واسط التي مصرّها الحجاج بن يوسف، ومن قبل كانت قصبتها خسر وسابور، وهي في وسط السواد.

(٤) الأُبلّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، لأن البصرة مصرّت أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وكانت الأبلة حينئذ فيها مسالح من قبل كسرى، وقائد، وهي غير موجودة الآن وموقعها شمال موقع البصرة الحالي.

(٥) عاصم بن عمرو التميمي أخو القعقاع، شاعر، له صحبة، أبلى في القادسية البلاء الحسن توفي عام ١٦هـ.

(٦) الحفير: أول منزل من البصرة لمن يريد مكة.

قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل لذلك سميت هذه المعركة ذات السلاسل... وأرسل خالد بن الوليد المثنى بن حارثة في أثر القوم، وبعث معقل بن مُقرّن[1] إلى الأُبلّة ليجمع المال والسبي، وسار المثنى حتى بلغ نهر المرأة، فحاصرها في الحصن الذي كانت فيه وكان على مقدمته أخوه المعنى[2]، فصالحت المرأة المثنى، وتزوجها المعنّى، أما المثنى فقد استنزل الرجال من الحصون، وقتل مقاتلتهم، وأقر الفلاحين الذين لم ينهضوا للقتال مع الفرس.

كان أردشير قد أمر بجيش كبير بقيادة (قارن بن قريانس) فلما وصل إلى (المذار)[3] وصل إليه خبر هزيمة هرمز ومقتله، فتجمع هناك، فسار إليه خالد،ونشبت معركة قتل فيها معقل بن الأعشى القائد الفارسي (قارن)، وقتل عاصم بن عمرو وخصمه (الأنوشجان) وقتل عدي بن حاتم عَوه (قُباذ)، وقتل يومذاك من الفرس عدد كبير، وصل إلى ثلاثين ألف مقاتل. وبعدها وزع خالد الغنائم وقسّم الفيء.

وتجمع الفرس ثانية في (الولجة)[4] مع ما جاءهم من مدد قوامه جيشان الأول بقيادة (الأندرزعر) والثاني بإمرة (بهمن جاذويه) فسار إليهم خالد، وقد خلّف سويد بن مقرن في الحفير، وقد هُزمت الفرس هزيمة منكرة أيضاً في هذه الجولة.

وتأثر نصارى العرب من هذه الانتصارات فكاتبوا الفرس، وتجمّعوا في (أُلّيس)، فأسرع إليهم خالد، وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً، وقتل منهم ما يقرب من سبعين ألفاً، ثم اتجه نحو الحيرة ثانية.

ولما انتهى خالد من الحيرة ولّى عليها القعقاع بن عمرو، وخرج يريد

---

(١) معقل بن مقرن: أحد إخوة النعمان بن مقرن.

(٢) المعنّى بن حارثة: أخو المثنى بن حارثة الشيباني، وكان على مقدمة أخيه.

(٣) المذار: على ضفة نهر دجلة اليسرى تقع شمال القرنة بـ ٣٧ كيلاً، بين البصرة وواسط، وهي قصبة ميسان.

(٤) الولجة: موضع وسط السواد قريبة من كسكر.

دعم عياض بن غنم الذي كلف بشمال العراق، فنزل خالد إلى الفلّوجة، ومنها إلى كربلاء فولى عليها عاصم بن عمرو، وكان على مقدمته الأقرع بن حابس[١]، أما المثنى فكان يناوش الفرس على شواطئ دجلة. وسار خالد إلى الأنبار[٢] ففتحها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر، وقصد عين التمر[٣]، فهزم جموع أهلها الذين هم من العرب المُتنصّرة والعجم، ثم حصرها فنزلوا على حكمه، فقتل من قتل منهم، وأسر وسبى. واستخلف على عين التمر عويم بن الكاهل، وسار باتجاه عياض بن غنم الذي علم أنه لا يزال في دومة الجندل[٤] وقد كتب إليه يستنجده، فكتب إليه خالد: «من خالد إلى عياض إياك أريد».

ولما علم أهل دومة الجندل مسير خالد إليهم استنجدوا بالقبائل المُتنصّرة من العرب من كلب، وغسان وتنوخ، والضجاعم فأمدوهم. ولما اقترب خالد من دومة الجندل اختلف رئيساها وهما: أكيدر بن عبد الملك[٥]، والجودي بن ربيعة، فاعتزل الأكيدر، وهُزم الجودي ومن معه ومن جاءه من الدعم الذين لم يتسع لهم الحصن. وأقام خالد بدومة الجندل. وأرسل الأقرع بن حابس إلى الأنبار، وبعد مدة لحق خالد بالحيرة.

وخرج خالد من الحيرة وولّى عليها عياض بن غنم، وكان على

---

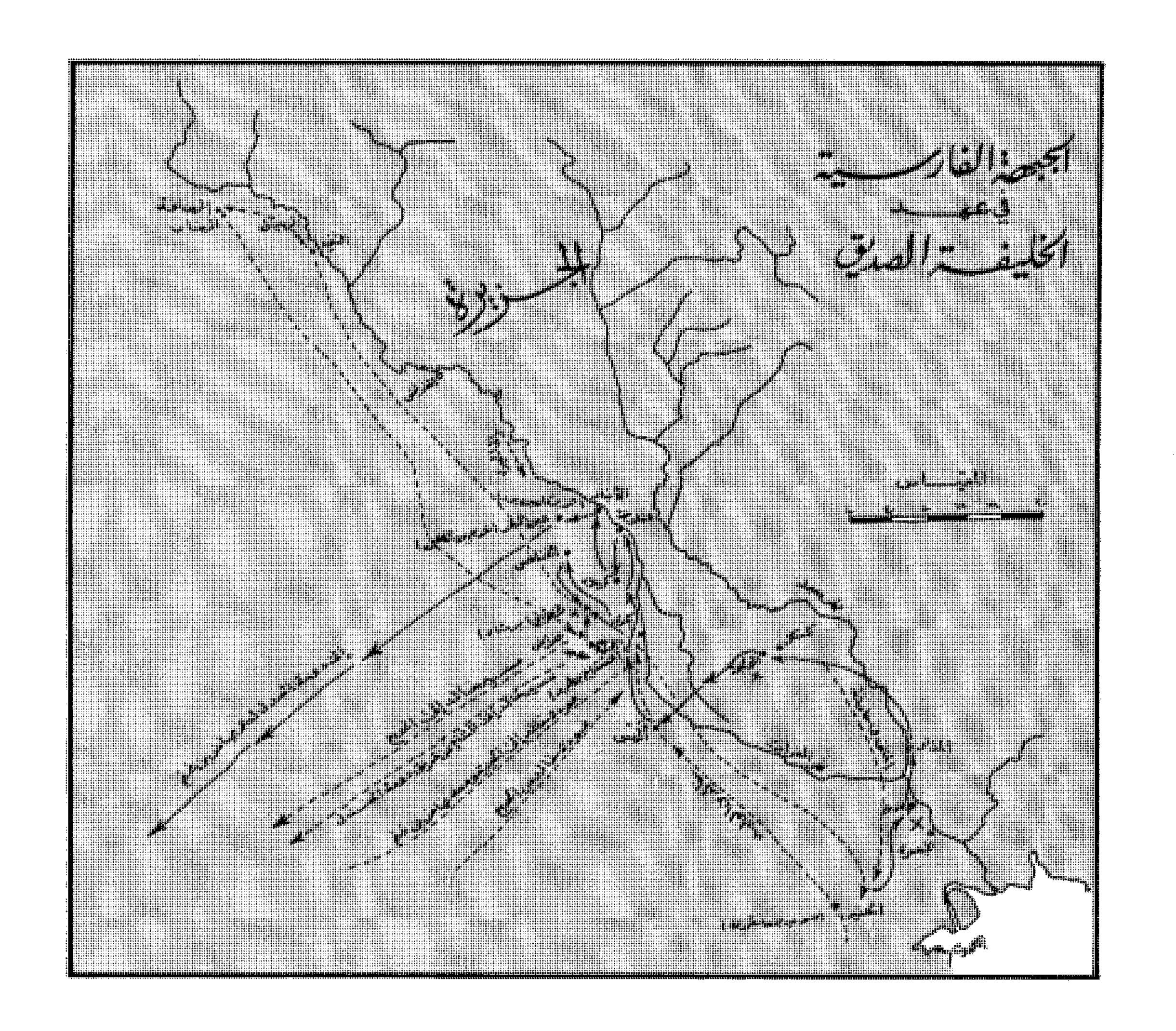
(١) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي: صحابي، من سادات العرب في الجاهلية، وفد على رسول الله مع وفد قومه وأسلم، وشهد فتح مكة، وحنين، والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، استشهد بخراسان بالجوزجان عام ٣١هـ أيام سيدنا عثمان.

(٢) الأنبار: تقع قريباً من ضفة الفرات اليمنى، وقريباً من الفلوجة.

(٣) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار، إلى الغرب منها.

(٤) دومة الجندل: وهي في شمال جزيرة العرب، ومكانها اليوم مدينة الجوف.

(٥) أكيدر بن عبد الملك الكندي: ملك دومة الجندل في الجاهلية، بعث رسول الله خالد بن الوليد إليه، فأسره، وقدم إلى المدينة، فأسلم وأعيد إلى بلاده، فلما توفي رسول الله نقض العهد، ومات عام ١٢هـ.


الجبهة الفارسية
في عهد
الخليفة الصديق
الجزيرة
المقياس

مقدمة خالد الأقرع بن حابس... ثم بعث وهو بـ (العين) أبا ليلى بن فركي إلى الخنافس[1] والقعقاع إلى حُصيد[2]. فانتصر القعقاع في حُصيد، وفر من بالخنافس إلى المُصَيّخ[3] إذ لم يجد أبو ليلى، بالخنافس كيداً. وسار خالد وأبو ليلى والقعقاع إلى المصيخ وكان قد اجتمع فيه من هرب من الخنافس والحصيد، وهناك انتصر المسلمون انتصاراً مبيناً. ثم ساروا إلى (الثني)[4] و (الزُمَيْل)[5] فانتصروا على أعدائهم، ثم ساروا إلى (الرضاب)[6]، وبها هلال بن عَقّة، وقد ارفض عنه أصحابه عندما سمعوا بدنو خالد وجيشه، ثم ساروا إلى (الفراض)[7] وهي على تخوم الشام والعراق والجزيرة وذلك في شهر رمضان، وتعاون الفرس والروم ضد المسلمين، والتقت الجموع على نهر الفرات فقتل من الفرس والروم والعرب المُتنصّرة أكثر من مائة ألف...

أقام خالد بن الوليد عشرة أيام بالفراض، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالناس، وأظهر خالد أنه في الساقة، وسار مع عدة من أصحابه إلى مكة يؤدي الحج، ورجع من الحج، فوصل إلى الحيرة ولم تدخل الساقة البلدة بعد، ولم يدر الخليفة أبو بكر، رضي الله عنه، بما فعل خالد إلا بعد مدة، فعتب عليه، وصرفه عن العراق إلى الشام.

وصل كتاب أبي بكر إلى خالد وهو بالحيرة وفيه: أن سر حتى تأتي

---

(١) الخنافس: موقع قرب الأنبار. (٢) حصيد: واد بين الكوفة والشام.

(٣) المصيخ: مصيّخ برشاء، وهو بين حوران والعراق، وهو غير معروف الآن، أما مصيخ بهراء فهو آخر ماء من بلاد الشام، ورده خالد بن الوليد بعد سُوى.

(٤) الثني: مكان بالجزيرة الفراتية يقع إلى الشرق من الرصافة، تجمعت فيه بنو تغلب.

(٥) الزميل: موقع إلى الشرق من الرصافة.

(٦) الرضاب: موقع إلى الشرق من الرصافة، أو مكانها قبل أن يعمرها هشام بن عبد الملك.

(٧) الفراض: موضع بين إلى الشرق من البوكمال على بعد ٤٠ كيلاً منها، قريبة من الحدود بين العراق وسورية اليوم.

جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشْجِ الجموعَ من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك، فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء.

وجاء فيما كتب أبو بكر لخالد: أما بعد فدع العراق وخلّف فيه أهله الذين قدمت عليهم، وهم فيه، وامض مختفياً من أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك في الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام.

سار خالد من الحيرة في العراق، وقد استخلف المثنى بن حارثة الشيباني على جند العراق، وسار هو إلى الشام، وكتب إلى أبي عبيدة[1]: أما بعد فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالمسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولي لأمرها، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته فأنت على حالك التي كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً، فأنت سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك تمم الله بنا وبك من إحسان ورحمنا وإياك من صلي النار والسلام عليك ورحمة الله.

سار خالد من الحيرة إلى دومة الجندل، وخرج منها مع وادي السرحان إلى الشمال.

ب ـ **فتوح الشام**: بعد أن رجع خالد بن سعيد بن العاص من اليمن

---

(١) أبو عبيدة الجراح: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي فاتح الديار الشامية، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، أمين الأمة، وهو من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ.

أمره أبو بكر أن ينزل بتيماء وأمره ألا يبرحها، وأن يدعوا من حوله بالانضمام إليه، وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله، حتى يأتيه أمره. فأقام فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر، فاستنفروا العرب الذين بالشام على المسلمين، فاستنفرت كلب، وتنوخ، ولخم، وجذام، وغسان، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أن أقدم ولا تحجم، واستنصر الله، فسار إليهم خالد بن سعيد، فلما دنا منهم تفرقوا، فاتخذ موقعه مكانهم، وكتب إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك. وحدث قتال؛ وطلب خالد بن سعيد من أبي بكر المدد، فأمده بالوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل، وانتصر على (ماهان) قرب القدس، وانتقل ماهان إلى دمشق فلحق به خالد بن سعيد، فلما كان بمرج الصفر جاءت جموع كبيرة من الروم بقيادة (ماهان) الأمر الذي جعل خالد بن سعيد يتراجع إلى ذي المروة على حين وقف عكرمة بن أبي جهل يحمي المتراجعين، ووصل المجاهدون من اليمن، وكانت قد دخلت السنة الثالثة عشرة، فطلب أبو بكر استبدال عمال الصدقات. ومنهم عمرو بن العاص الذي كان قد سيره في السنة الحادية عشرة إلى قضاعة، ثم استدعاه فولاه ما كان رسول الله ﷺ قد ولاه على صدقات عُمان ثانية، وكتب إليه أبو بكر، رضي الله عنه: إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاكه مرة، وسماه لك أخرى، ومبعثك إلى عُمان إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت ـ أبا عبد الله ـ أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه؛ إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك. فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها، وأخشاها، وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي.

وصل خالد بن سعيد بن العاص إلى ذي المروة[1] هرباً من جند

---

(١) ذو المروة: قرية بوادي القرى.

(ماهان)، ووصل الخبر إلى أبي بكر فكتب إليه: أقم مكانك، فلعمري إنك مقدام محجام، نجّاء من الغمرات، لا تخوضها إلا إلى حق، ولا تصبر عليه. ولما كان بعد؛ وأذن له في دخول المدينة ـ كما سنرى ـ.

عبأ أبو بكر الصديق الجيوش إلى الشام في مطلع السنة الثالثة عشرة فسار:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان[1] في سبعة آلاف بعد عزل خالد بن سعيد، وكانت وجهته دمشق، وكان أول الأمراء الذين ساروا إلى الشام، وكان في جنده سهيل بن عمرو. ثم أمد أبو بكر يزيد بن أبي سفيان بأخيه معاوية بجند كثير، ولما مرّ معاوية بذي المروة أخذ من بقي من جند خالد بن سعيد، وسمح بعدها الصديق لخالد بدخول المدينة.

٢ ـ عمرو بن العاص وكانت وجهته فلسطين.

٣ ـ شرحبيل بن حسنة وسار إلى الأردن، وقد استعمل على جند الوليد بن عقبة[2]، وأخذ عندما مر بذي المروة جمهور جند خالد بن سعيد.

٤ ـ أبو عبيدة بن الجراح وكانت وجهته حمص.

وبقي عكرمة في ستة آلاف من الجند ردءاً لجيوش المسلمين.

وعلم الروم بما عبأه المسلمون، فانتقل هرقل إلى حمص، وجمع جموعاً غفيرة من جنده، وأرسل أخاه (تذارق) ليواجه عمرو بن العاص، وبعث (جرجة بن توذرا) نحو يزيد بن أبي سفيان، ووجه (الدُّراقص) نحو

---

(١) يزيد بن أبي سفيان، أبو خالد، أسلم يوم فتح مكة، وبقي على صدقات بني فراس، وكان أحد قادة فتح الشام، ولاه عمر فلسطين، ثم دمشق، توفي في طاعون عمواس عام ١٨هـ.

(٢) الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أبو وهب: من فتيان قريش وشعرائهم، أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم فتح مكة، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، ولاه عمر صدقات بني تغلب، ولاه عثمان الكوفة ثم عزله، توفي عام ٦١هـ.

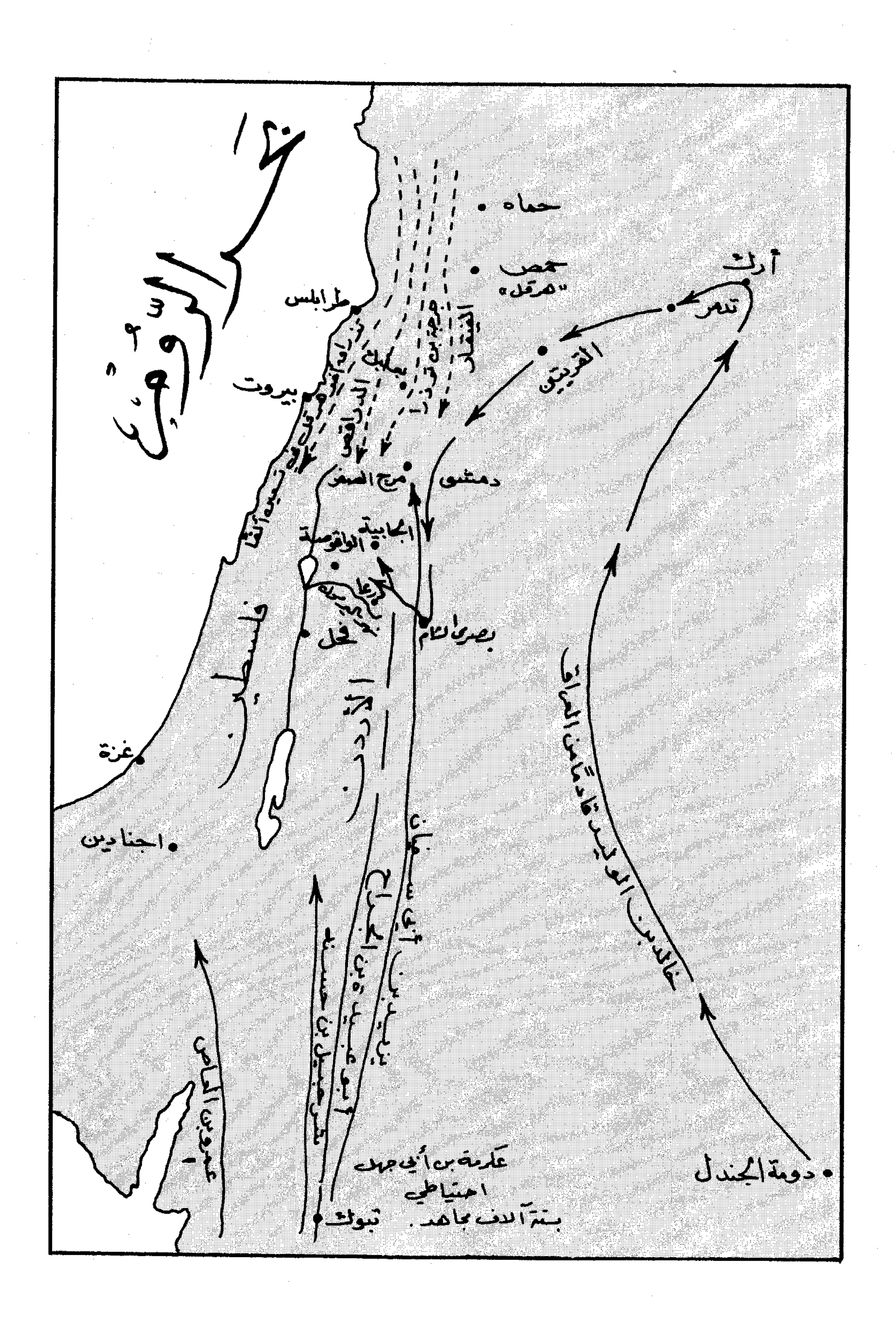
شرحبيل بن حسنة، وأعطى أوامره لـ (الفيقار بن نسطوس) أن يسير نحو أبي عبيدة بن الجراح، وصل عدد الروم يومذاك إلى ٢٤٠ ألف مقاتل على حين كان المسلمون واحداً وعشرين ألفاً و٦ آلاف مع عكرمة بن أبي جهل في المؤخرة دعماً لجموع المسلمين.

هاب المسلمون الروم لما رأوا كثرتهم فكتب قادتهم إلى عمرو بن العاص يستشيرونه، فاقترح أن يجتمع المسلمون في مكان يلتقون فيه مع الروم، ولن يهزموا من قلة حينذاك، كما كتبوا إلى الخليفة أبي بكر وطلبوا منه المدد، فكان رأيه الاجتماع كما رأى عمرو، وأضاف أن يكون مكان المعركة في موقع يسهل الاتصال فيه مع المدينة قاعدة الحكم، ووافق على اللقاء باليرموك، وكتب إلى خالد بالعراق أن يقدم إلى اليرموك لدعم المسلمين هناك، وأن يكون هو الأمير.

سار خالد بن الوليد من الحيرة إلى (قراقر) حيث شيعه إليها المثنى بن حارثة، ومنها إلى (سوى)، ثم تحرك إلى دومة الجندل، وأغار خالد على (مصيخ بهراء) ثم تحرك نحو الشمال مع وادي السرحان إلى شرقي جبل حوران (الدروز) حتى وصل إلى (أرك)[1] ومنها إلى تدمر فالقريتين[2]. ولما علمت غسان بذلك، اجتمعوا له بمرج راهط[3] فسار إليهم، وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتصر عليهم، ثم سار إلى بصرى الشام[4] وكانت أول مدينة افتتحها من بلاد الشام، ثم ذهب إلى اليرموك فوصل إلى المسلمين في تسعة آلاف وغدا جند المسلمين ستة وثلاثين ألفاً. وفرح المسلمون بوصول خالد لأن الروم كانوا قد وصلت إليهم إمدادات

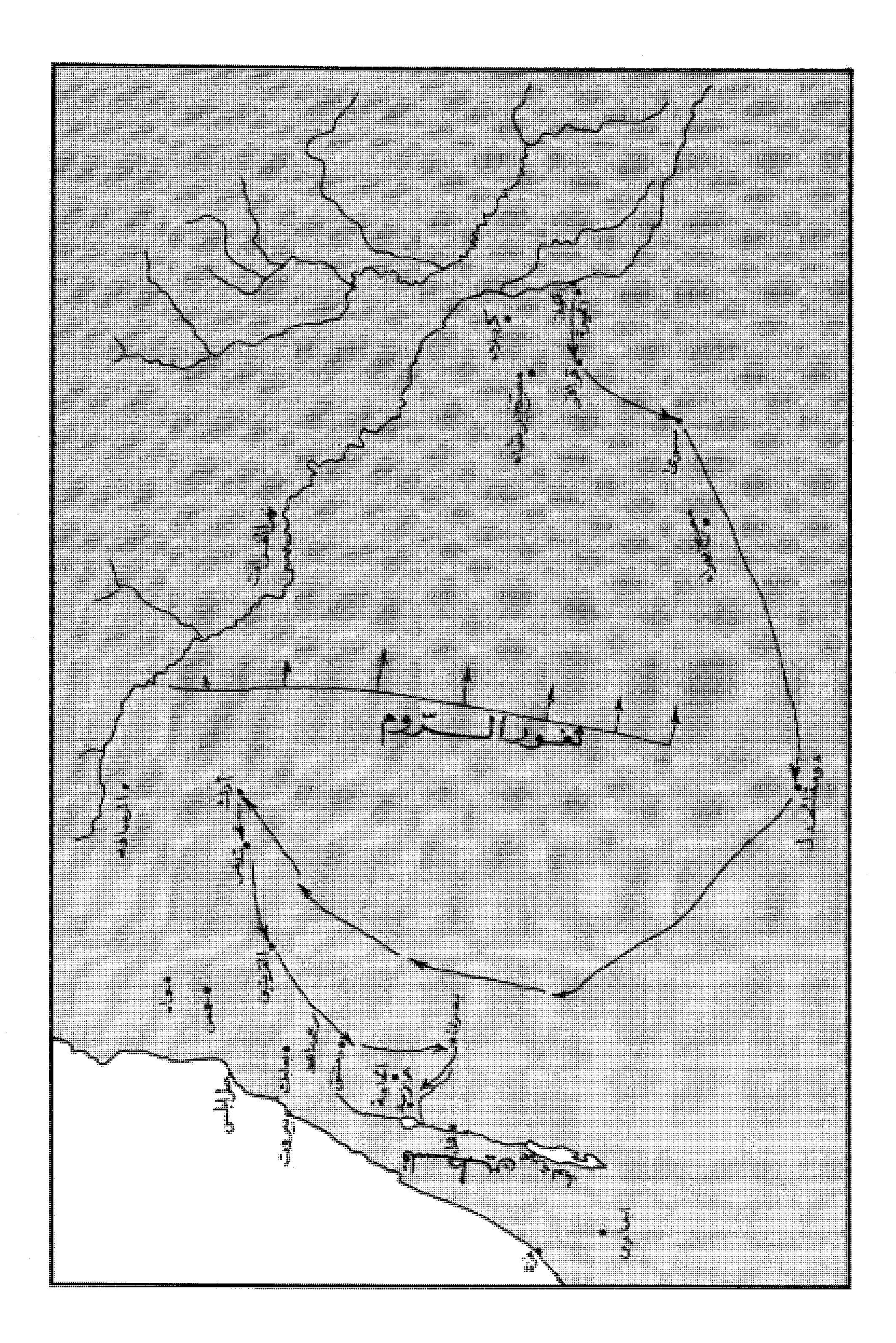
---

(١) أرك: مدينة صغيرة قرب تدمر، وهي ذات نخل وزيتون، وكل أهلها كانوا من النصارى.
(٢) القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص، وهي التي تدعى حوارين.
(٣) مرج راهط: يقع إلى الشمال من دمشق، والمسافر من دمشق إلى حمص ما كان على يساره فهو مرج راهط، ومن كان على يمناه فهو مرج عذراء حتى الثنايا (ثنية العقاب).
(٤) بصرى الشام: مدينة بحوران، من قواعد الغساسنة، وكانت مدينة رومانية، وفيها سوق دائمة للعرب. ولا تزال فيها آثار رومانية، منها المدرج الروماني الشهير.



حماه
حمص
«هرقل»
طرابلس
بيروت
بعلبك
أرك
تدمر
القريتين
دمشق
مرج الصفر
الجابية
الواقوصة
بصرى الشام
فحل
غزة
اجنادين
دومة الجندل
تبوك
عكرمة بن أبي جهل
احتياطي
ستة آلاف مجاهد
عمرو بن العاص
شرحبيل بن حسنة
خالد بن الوليد قادما من العراق

بإمرة ماهان ومعه القساوسة والمطارنة والرهبان من أجل تشجيع المقاتلين.
وربما يتساءل المرء لماذا هذه الطريق الطويلة التي قطعها خالد بن الوليد؟
إنه أراد ألا يصطدم مع الروم قبل الالتقاء بالمسلمين وبخاصة أنه أصبح أمير المقاتلين في الشام فلا بد من الوصول إلى جنده ليقودهم في القتال، وإن خطة المسلمين كانت تقضي أن يكون القتال مجتمعين لا متفرقين ليتمكنوا من قتال الروم الذين يملكون أعداداً كبيرة تفوقهم بعشرة أمثال، وللروم ثغور وسط البادية حيث كانت من قبل مسرحاً للمعارك الدائرة بينهم وبين الفرس، فلو سار من الحيرة مباشرة نحو الغرب لاصطدم بتلك الثغور، ولأضاع على المسلمين تجمعهم في اليرموك وقيادته لهم، ولهذا اضطر أن يسير نحو الجنوب ليتجاوز تلك الثغور عن طريق دومة الجندل ثم اتجه شمالاً، وعندما وصل إلى الشرق من بصرى الشام وجد نفسه أمام جبل حوران (الدروز اليوم) البركاني الصعب الاجتياز، فأراد الالتفاف حوله فوجد نفسه بسرعته المعروفة في منطقة تدمر، لذا عاد فرجع إلى الغرب عن طريق القريتين فثنية العقاب (الثنايا) فشرقي دمشق إلى بصرى ففتحها ومنها سار إلى اليرموك. هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن لخالد بن الوليد طريقته الخاصة في القتال وهي التحرك بسرعة في عمق العدو والإغارة على مواقع خصمه المتأخرة، ثم الانسحاب للخوض في معركة حاسمة، وعندها يشعر العدو أن مجموعات من خصمه لا تزال تعمل خلف خطوطه الأمامية، وستداهمه في الوقت المناسب من القتال الأمر الذي تضعف فيه معنوياته، ويبقى جزء من جنوده خارج المعركة لصد أي هجوم مرتقب من الخلف، وهذا ما رأيناه في قتاله في العراق إذ وصل إلى نقاط بعيدة من أرض العدو على حين لم تطهر أرض السواد بعد بل ولا منطقة الحيرة نفسها، ولم يأمن جانب المصالحين بشكل صحيح إذ سنراهم ينقضون العهد بعد ذلك. كما أن حركته كانت خلف ثغور الروم الأمر الذي جعل الروم لا يستطيعون ترك مواقعهم خوفاً من أن يكون هناك اتفاق بين المسلمين والفرس وبخاصة أن خالداً كان في أرض فارس، كل هذا يجعل حركة خالد سهلة ويتنقل بحرية كأنه يقوم بمناورة معروفة الخطة.



وصل خالد بن الوليد إلى اليرموك، وصلّى في اليوم الأول بجنده الذين قدموا معه من العراق، ورأى الروم مجتمعين فجمع المسلمين وخطب فيهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده؛ ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية، وأنتم على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي. وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته، قالوا: فهات، فما الرأي؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون، لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ. هلموا فإن هؤلاء تهيئوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الإِمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم.

قسم خالد المسلمين إلى كراديس يتراوح عددها بين ٣٦ ـ ٤٠ كردوساً ويضم الكردوس الواحد ما يقرب من ألف مقاتل. وكان أبو عبيدة في القلب، وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان في الميسرة، ومن أمراء الكراديس يومذاك القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، وعياض بن غنم، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص[1]،

---

(١) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص: صحابي، خطيب من الفرسان، ابن أخي سعد بن أبي وقاص، أقام بالشام بعد فتحها، فقد عينه باليرموك، وذهب مدداً لعمه سعد في القادسية، شهد صفين مع علي، وكان قائد الرجالة فيها، وقتل في آخر أيامها.

وسهيل بن عمرو[1]، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وحبيب بن مسلمة[2]، وصفوان بن أمية[3]، وسعيد بن خالد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص[4]، وعبد الله بن قيس[5]، ومعاوية بن حديج[6]، والزبير بن العوام[7]، وضرار بن الأزور.

وكان قاضي الجيش أبو الدرداء[8]، والقاص أبو سفيان بن

---

(١) سهل بن عمرو العامري القرشي: من الذين وقفوا في وجه الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، حسن إسلامه، خرج مجاهداً إلى الشام، وهو خطيب قريش، توفي بالطاعون بالشام عام ١٨هـ.

(٢) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري: قائد فاتح، خرج مجاهداً أيام أبي بكر، وشهد اليرموك، وفتح دمشق،، ولاه أبو عبيدة إنطاكية، توغل في أرمينية، تولى أمر الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان توفي عام ٦١هـ.

(٣) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي القرشي، أبو وهب: من السادات في الجاهلية والإسلام، وقف ضد الدعوة، أسلم بعد الفتح، شهد اليرموك، توفي عام ٤١هـ، بمكة المكرمة.

(٤) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: صحابي، من الولاة الغزاة، من أوائل الذين أسلموا، ونال العذاب من أبيه (أبو أحيحة)، هاجر إلى الحبشة، غزا مع النبي، حضر فتح مكة، وغزوة تبوك، كتب لرسول الله، وبعثه مع ملأ على اليمن، استدعاه أبو بكر، وخرج مجاهداً، استشهد في مرج الصفر عام ١٤هـ.

(٥) عبد الله بن قيس الحارثي، حليف فزارة: أمير البحر في صدر الإسلام، استشهد عام ٥٣هـ، وهو يطوف متخفياً في أحد الموانئ.

(٦) معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبر، أبو نعيم الكندي: الأمير الصحابي، شهد صفين مع معاوية، وتولى له مصر بعد أن أخذها له، وولي غزو المغرب عدة مرات، توفي عام ٥٢هـ.

(٧) الزبير بن العوام الأسدي القرشي، ابن عمة رسول الله، أبو عبد الله: الصحابي الشجاع، أول من سل سيفه في الإسلام، من أوائل الذين أسلموا، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وحضر اليرموك، وهو أحد رجال الشورى، قتل غيلة عام ٣٦هـ. بعد معركة الجمل.

(٨) أبو الدرداء: عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة، اشتهر بالشجاعة والعبادة، وفي الحديث «عويمر حكيم أمتي» و «نعم الفارس عويمر» ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، توفي عام ٣٢هـ.

حرب[١]، وعلى الغنائم عبد الله بن مسعود، وعلى الطلائع قباث بن أشيم، وكان المقرئ المقداد بن عمرو[٢]، وقد كان عدد الصحابة في اليرموك أكثر من ألف صحابي بينهم مائة من أهل بدر. وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس، فيقول: الله الله! إنكم ذادة العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك! اللهم إن هذا يوم من أيامك! اللهم أنزل نصرك على عبادك!

ونشب القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، ولم يلبث الأمر قليلاً حتى جاء البريد، يحمل موت أبي بكر، وتولية عمر، وعزل خالد وتأمير أبي عبيدة، رضي الله عنهم. وكان الرسول محمية بن زنيم، ولكن خالداً عندما سئل عن البريد، قال: السلامة، وقرب وصول الأمداد.

وكانت وفاة أبي بكر، رضي الله عنه، يوم الاثنين ٢٢ جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة من هجرة رسول الله ﷺ، وبذا تكون خلافته، سنتين وثلاثة أشهر، وعشرة أيام.

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الصديق تبدو ضيقة الرقعة إلا أننا يجب أن نضع في خلدنا الملاحظات التالية:

١ ـ قصر مدة خلافة الصديق.

٢ ـ القضاء على حروب الردة التي شملت الجزيرة كلها.

٣ ـ كانت المعارك التي جرت في عهد الصديق بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة ثانية، قد دوخت أعداء الإسلام، وأظهرت قوة المسلمين وإمكاناتهم القتالية.

---

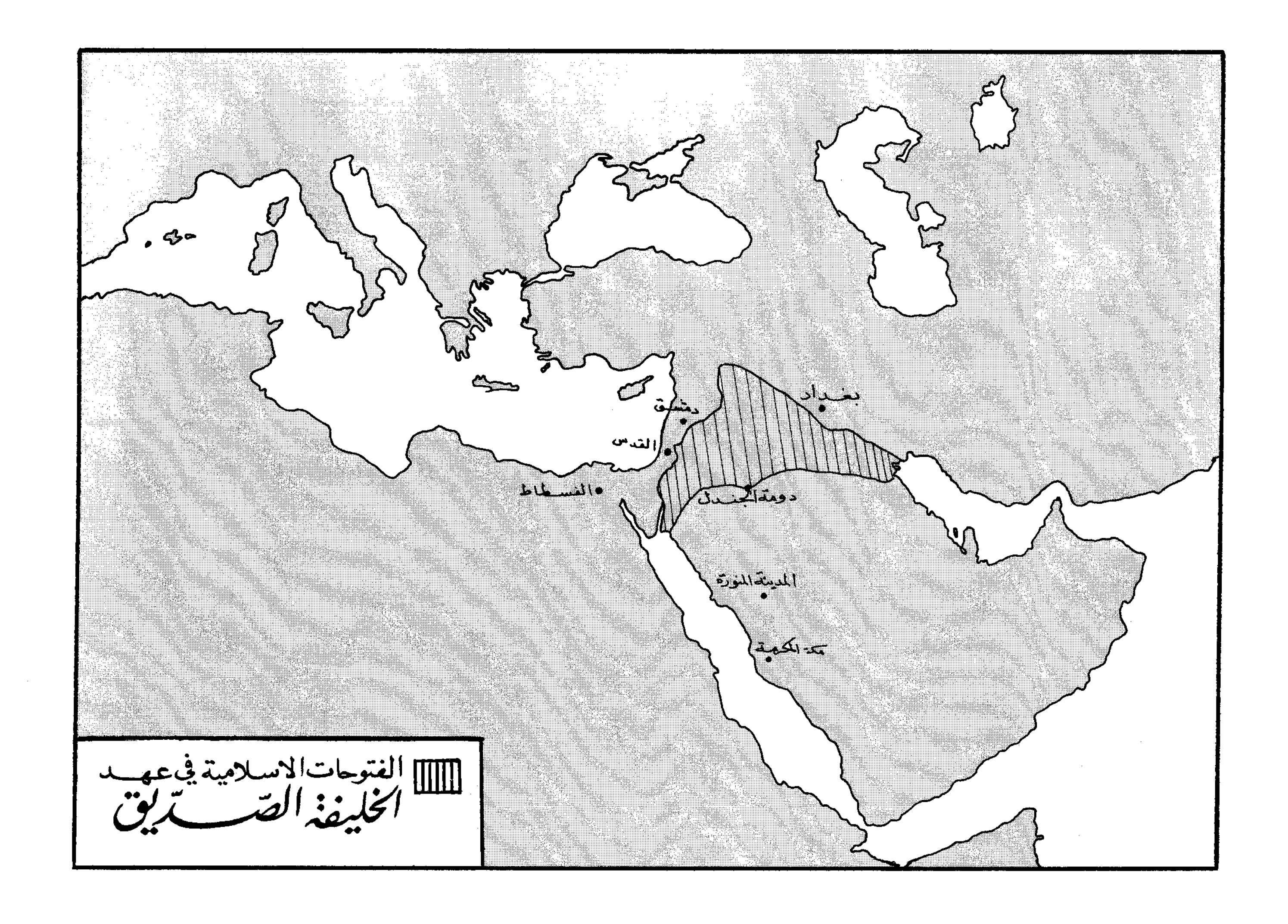
(١) أبو سفيان حرب: صخر بن حرب الأموي القرشي، وقف في وجه الإسلام، وقاد قريش في ذلك، أسلم يوم الفتح وهو وأولاده من الشجعان، قاتل تحت راية ابنه يزيد، فقد عينه الأولى في حنين والثانية في اليرموك، توفي عام ٣١هـ.

(٢) المقداد بن عمرو ويعرف بابن الأسود، أبو عمرو: صحابي، من الأبطال، من أوائل الذين أظهروا الإسلام، كان من سكان حضرموت فر منها إلى مكة، توفي عام ٣٣هـ.

شعر أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بشيء من الراحة النفسية بعد أن قضى على المرتدين، وانطلقت الفتوحات في كل الجهات، وتحطمت كبرياء الدولتين الكبريين اللتين كانتا تقفان في وجه الدعوة، وتدعمان المرتدين، وتستنفران قواتهما ومن والاها من العرب المتنصرة، كل ذلك في سبيل القضاء على الفكرة الجديدة، وفي الوقت نفسه، فقد شعر أن مهمته في الحياة قد انتهت، فقد توطد الأمر. وثبت كيان الإسلام، وسيتابع الأمر الخلفاء من بعده، كما زاد شعوره في هذا الأمر أن سنه قد اقترب من سن حبيبه ورسوله محمد ﷺ عندما فارق الحياة الدنيا، وانتقل إلى الرفيق الأعلى. كما شعر أن استخلاف رجل من بعده وهو على قيد الحياة، يجنب المسلمين الكثير من الصعاب، وقد أشفق عليهم أن يختلفوا، ويزهد في هذا المنصب أهله، ويبتعد عنه من يستحقه، وقد تداعى إلى ذهنه ما حدث عند وفاة رسول الله ﷺ عندما لم يخطر على بال المسلمين وفاة نبيهم، وحين ثقل عليهم مصابهم، والأمر لا بدّ له من خليفة يطبق منهج الله في الأرض. إذن لا بدّ من استخلاف رجل يخلفه، ولا بد من الاستشارة، ولاح في ذهنه أولئك الصحابة الذين كان رسول الله ﷺ يستشيرهم، وكبرت في نفسه شخصية عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومواقفه في الإسلام، وقوته في الحق، وهيبته في النفوس، ونظرة المسلمين إليه، ولكن كان لا بدّ من أخذ رأيهم واستشارتهم، ولو كان الأمر منهم لكان أفضل.

وشعر أبو بكر بالمرض، واشتد عليه، وثقل فجمع عدداً من الصحابة المعروفين الذين كان رسول الله ﷺ يشاورهم في الأمر، وقال لهم: إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظنني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم. فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي.

فقاموا في ذلك فلم يستقم لهم أمر، وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه، ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا:


بغداد
دمشق
القدس
الفسطاط
دومة الجندل
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الفتوحات الاسلامية في عهد
الخليفة الصدّيق

رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده..

دعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب: فقال له: ما تسألني عنه أمراً إلا وأنت أعلم به مني. فقال له: وإن، فقال عبد الرحمن: هو أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال له مثل ذلك، فقال: علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يسرّ خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريباً كانوا برأي واحد في عمر إلا رجل خاف من شدته، وقد عاتبه بعضهم باستخلافه فقال أبو بكر: لا والله ولا نعمة عين، هو والله خير لكم، والله لو وليتك لجعلت أنفك في السماء ولرفعت نفسك فوق قدرك حتى يكون الله هو الذي يضعك، تريد أن تردني عن رأيي وتفتني في ديني؟ فوالله لئن بلغني أنك عصيته أو ذكرته بسوء لأفعلن ولأفعلن... ثم دخل على أبي بكر عثمان، وعلي، فقال لهما مباشرة لعلكما تقولان في عمر ما قال فلان آنفاً؟

قالا: وماذا قال يا خليفة رسول الله؟

قال: زعم أن عمر أحدثكم إسلاماً و....

فقال عثمان، رضي الله عنه: بئس لعمر الله ما قال فلان، عمر بحيث يحب من قوته مع سابقته.

وقال علي رضي الله عنه: بئس ما قال، عمر عند ظنك به، ورأيك

فيه، إن وليته ـ مع أنه كان والياً معك ـ نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد، ودع مخاطبة الرجل فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن مالاً تظن لم ترد إلا الخير.

ودخل عبد الرحمن بن عوف على أبي بكر الصديق يعوده في مرضه الذي مات فيه فوجده مقنعاً، فقال له عبد الرحمن: أصبحت بحمد الله بارئاً، فقال: أبرء ذاك؟ قال: نعم، قال: أما إني على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد عليّ من وجعي، إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ورأيتم الدنيا قد أقبلت. ولما تقبل، وهي مقبلة، حتى تتخذوا ستور الحرير، ونضائد الديباج، وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي[1] كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان[2]، والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، ثم أنتم غداً أول ضال بالناس يميناً وشمالاً، لا تضيعوهم عن الطريق، يا هادي الطريق جرت، إنما هو الفجر أو البجر[3] فقال له عبد الرحمن: حفظ الله عليك يرحمك الله فإن هذا يهيضك إلى ما بك، إنما الناس في أمرك رجلان: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل رأى ما لم تر فهو يشير عليك بما يعلم، وصاحبك كما تحب أو كما يحب، ولا نعلمك أردت إلا الخير، ولم تزل صالحاً مصلحاً مع أنك لا تأسى على شيء من الدنيا.

ودخل بعض الصحابة على أبي بكر وقد علموا باستشارته في عمر، فقال أحدهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو إذا ولي كان أفظ وأغلظ؟ فقال أبو بكر: أجلسوني فلما جلس، قال: أبالله تخوفونني؟ خاف من تزوّد من أمركم بظلم. أقول:

---

(١) الأذربي: نسبة إلى أذربيجان، وهو صوف شديد النعومة.
(٢) حسك السعدان: نبات كثير الشوك.
(٣) البجر: الدهماء والمعنى في الفجر تبصر الطريق، وفي الظلمة تنزل بالمكروه.

اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل أبلغ عني ما قلت لك من وراءك.

ثم اضطجع ودعا بعثمان، فقال له: اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني أستخلف عليكم بعدي... وأخذته غشية قبل أن يسمي أحداً. فكتب عثمان، رضي الله عنه: إني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب... ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر، فكبر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً. ثم أمره أن يتمم فأملى عليه: فاسمعوا وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم أمره فختم الكتاب وخرج به مختوماً، ومعه عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير. وأشرف أبو بكر على الناس من كوته فقال: أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام علي، رضي الله عنه، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر.

فأقروا بذلك جميعاً، ورضوا به، ثم بايعوا، فرفع أبو بكر: رضي الله عنه، يديه فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أرشدهم. وقد حضرني من أول ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك ونواصيهم بيدك، فأصلح لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وهدي الصالحين بعده، وأصلح له رعيته، ثم دعاه فأوصاه.

وَصيَّـة أبي بَـكر

رضي الله عنه

قالت عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، قال: أما إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي، وابرأوا منه، فإني قد كنت أستحله، وأستصلحه جهدي.

وسأل عن يوم هذا فقيل له: الاثنين، قال: فأي يوم قبض رسول الله؟ فقيل الاثنين، وسأل عن كفن رسول الله فقيل له ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة. فقال أبو بكر: انظروا ملاءَتيَّ هاتين، فإذا مت فاغسلوهما وكفنوني فيهما. فقيل له: قد رزق الله وأحسن نكفنك في جديد، قال: إن الحي هو أحوج إلى الجديد ليصون به نفسه عن الميت، إنما يصير الميت إلى الصديد، وإلى البلى.

وقال: إن عمر لم يدعني حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها، وهذا المبلغ هو مجموع ما أخذه من بيت المال مدة خلافته كراتب له أو كتعويض عن تركه التجارة، واشتغاله بأمور المسلمين وهي حق له.

إذن كانت وصية أبي بكر، رضي الله عنه، ما يلي:

١ ـ يرد ما عنده من مال إلى بيت مال المسلمين عن طريق الخليفة عمر بن الخطاب.

٢ ـ يرد بستان يملكه إلى بيت مال المسلمين عوضاً عما أخذه من بيت المال مدة خلافته.

٣ ـ أن يتصدق بمقدار خمس ما يملك من أرض العالية[1]، وما يبقى يقسم بين أولاده وهم:

عبد الرحمن.

محمد.

أسماء.

عائشة.

وما تضع حبيبة بنت خارجة، ويتوقع أن تكون أنثى. وقد أوصى بها أولاده خيراً. (وبالفعل فقد وضعت أنثى ـ وهي أم كلثوم ـ).

٤ ـ أن يكفن بثوبيه بعد غسلهما.

٥ ـ أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس، وأن يدفن بجانب رسول الله ﷺ.

ولما مات أبو بكر أرسل أهله ما ترك إلى الخليفة، وإذا هي عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وناضح يسنى عليه فيسقي بستاناً له، وجرد قطيفة... فلما تسلمها الخليفة عمر سالت دموعه، وقال: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، ويردد هذه العبارة...

وأمر الغلام أن يرفع تلك التركة. فقال عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله! تسلب عيال أبي بكر عبداً حبشياً، وبعيراً ناضحاً، وجرد قطيفة ما تساوي خمسة دراهم؟ قال: فماذا تأمر؟ قال: تردهن على عياله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق لا يكون هذا في ولايتي أبداً ولم يكن أبو بكر ليخرج منهن عند الموت، وأردهن أنا على عياله، الموت أقرب من ذلك.

---

(١) من أموال بني النضير، كانت من نصيبه بعد إجلاء بني النضير عنها.

أما البستان، فقد قال عمر فيه: يرحم الله أبا بكر، لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالة، وأنا ولي الأمر من بعده قد رددتها على عياله، ورفض أن يأخذ البستان.

واستمر مرض أبي بكر مدة خمسة عشر يوماً، ثم توفي يوم الاثنين ليلة الثلاثاء في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، وكانت سنه ثلاثاً وستين سنة.

وغسلته زوجه أسماء بنت عميس حسب وصيته، ودفن جانب رسول الله ﷺ، وصلى عليه خليفته عمر بن الخطاب، ونزل في قبره عمر، وعثمان، وطلحة، وابنه عبد الرحمن.

وجاء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يوم وفاة أبي بكر فوقف بالباب وقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غناءً، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله خلقاً، وخُلقاً، وهدياً، وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً، صدقت رسول الله حين كذب الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقاً (والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون) يريد محمداً ويريدك، وكنت والله للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، لم تقلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك كنت كالجبل الذي لا تحركه المواصف، ولا تزيله القواصف ـ كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هوادة، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك.

نظرة إلى المجتمع
أيام خليفة رسول الله

إن أول وأهم صفة يتميز بها المجتمع الإسلامي عدم وجود الطبقات فيه، فالناس كلهم متساوون كأسنان المشط الواحد، لا فرق فيه بين الأجناس أو الألوان بل وحتى بين العقائد من حيث الحقوق والواجبات، وهذه المساواة مساواة حقيقية تنبع من العقيدة التي مقرها القلب، وليست مساواة نظرية مدونة تنطلق من النظريات الفلسفية التي يقصد منها المزاودة والمتاجرة لتأمين المصالح والوصول إلى بعض الأغراض. وأعضاء المجتمع الإسلامي يحترم فيه الكبير، ويعطف بينهم على الصغير، ويحرص على تأمين الحاجات لأصحابها. ويعيش الناس كلهم ضمن أسرة واحدةٍ كبيرةٍ متعاونةٍ متكاتفةٍ متكاملةٍ، فالخليفة وهو يمثل رأس السلطة لا يعد أفضلهم أو أكرمهم أو له ميزات تجعله يختلف عمن سواه أو يتميز عن غيره، فهو لا يتميز عن بقية أفراد المجتمع في ركوبه، أو لباسه، أو طعامه، أو في سكنه واحتجابه عن رعاياه، كما ليست له صفة تجعله في طبقة خاصة هو وأسرته يستطيع من خلالها التسلط أو نيل حقوق لا يتمكن غيره من الحصول عليها. بل هو فرد عادي أوصلته إمكاناته، واستعداداته الفطرية، وإخلاصه في عمله، وتضحياته من أجل عقيدته للوصول إلى مركز قيادة الأمة وإدارة شؤونها، فهو يعيش بين أفراد المجتمع، يسير معهم في الشوارع، ويذهب معهم إلى السوق يبيع ويشتري ويساوم، وقد يكون بيته أكثر تواضعاً، وليس له بيت عام يعيش فيه، وأثناء ذهابه هذا، وفي وقت وجوده في السوق يعطي التعليمات لمن يراها ضرورية له، ويلاحظ مقدار انسجام معاملة الناس مع الشريعة الإسلامية، ويراقب إن كان هناك ذوو

حاجة، ويُسأل في الطريق عن بعض الموضوعات، ويلتقي مع الأفراد في الندوات، ويتبادل معهم الآراء، ويناقش في ضرورات الناس وحاجاتهم، وما تقتضيه ظروف الدولة، وأخبار الجهاد، وأنباء المقاتلين.

لقد كان خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب شياه الحي لأصحابها، وفي الليل يتفقد الناس، ويسهر على مصالحهم، وهم نيام، ويحرس طرقات المدينة عندما خلت من القوة بعد تسيير بعث أسامة بن زيد، رضي الله عنهما.

وقد انصرف الناس أيامه إلى قتال المرتدين، وإلى الفتوحات، وبقي في المدينة عدد من الصحابة أمثال: عمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وأسيد بن حضير وغيرهم، ولم يكن بقاء هؤلاء تقاعساً عن الجهاد ـ معاذ الله ـ. وإنما استبقاهم الخليفة لاستشارتهم والاستنارة بآرائهم إضافة إلى حماية المدينة فقد كانوا ـ كما رأينا ـ على أنقابها، وعلى صلة مستمرة بالمسلمين الذين كانوا في المسجد مع الخليفة على أهبة الاستعداد لكل طارئ، وعلى اتصال بالخليفة نفسه، ولم يكن هؤلاء مع جلالة قدرهم ليتميزوا عن بقية المسلمين، وإن كانوا يلقون كل احترام وتقدير من كافة المسلمين، وما ذلك إلا بسبب سابقتهم في الإسلام وصحبتهم المستمرة لرسول الله، وجهادهم الطويل في سبيل الله، وتضحيتهم من أجل الدعوة، ومع هذه النظرة التي ملؤها التوقير، واستشارة خليفة رسول الله لهم فلم يكن لهم أية ميزة، بل كان كل فرد من المجتمع يمكن أن يقاضيهم، وأن يقتص منهم فيما إذا أخطؤوا، وأن يرد عليهم، وليس بينهم وبين أي فرد من عامة الناس أي فرق.

أما المجاهدون الذين اندفعوا إلى القتال من تلقاء أنفسهم، إذ لم تكن هناك جندية إجبارية أو إكراه على الخروج، وإنما كان المسلمون يخرجون للجهاد في سبيل الله لنيل الشهادة أو إحراز النصر والدعوة في سبيل الله، يدفعهم إلى ذلك كله طلبهم لإرضاء الله بأداء مهمتهم في الحياة على الصورة المطلوبة.

لقد كان هؤلاء المجاهدون كتلة واحدة وإخوة حقيقيين بمعنى الأخوة الإيمانية، وقد وقعت حوادث كثيرة كان الرجل فيها يسرع ليتلقى الضربة عن أخيه يسبقه فيها إلى الشهادة حرصاً على أخيه، ودفاعاً عنه، وتفضيلاً له، وكان طعامهم واحداً ولباسهم يتشابه في البساطة لا يختلف في ذلك الأمير قائد الجيش والجندي الصغير، بل إذا قُدّم طعام لأمير كان يسأل هل أكل الجند جميعاً من هذا النوع؟ ولم تكن يده لتمتد قبل أن يتأكد أن جنده كافة قد حصلوا على ما ناله هو، وقد يكون قائد الجند اليوم، ويصبح غداً جندياً يقاتل تحت إمرة أحد جنده بالأمس، ولا يختلف الأمر عنده أبداً بين كونه قائداً أو جندياً، لا من حيث القتال فقط، وإنما من حيث احترام الأفراد له، ولكن تختلف طاعة الأفراد له، وتنفيذ الأوامر والسؤال في الخطة وأسلوب القتال.

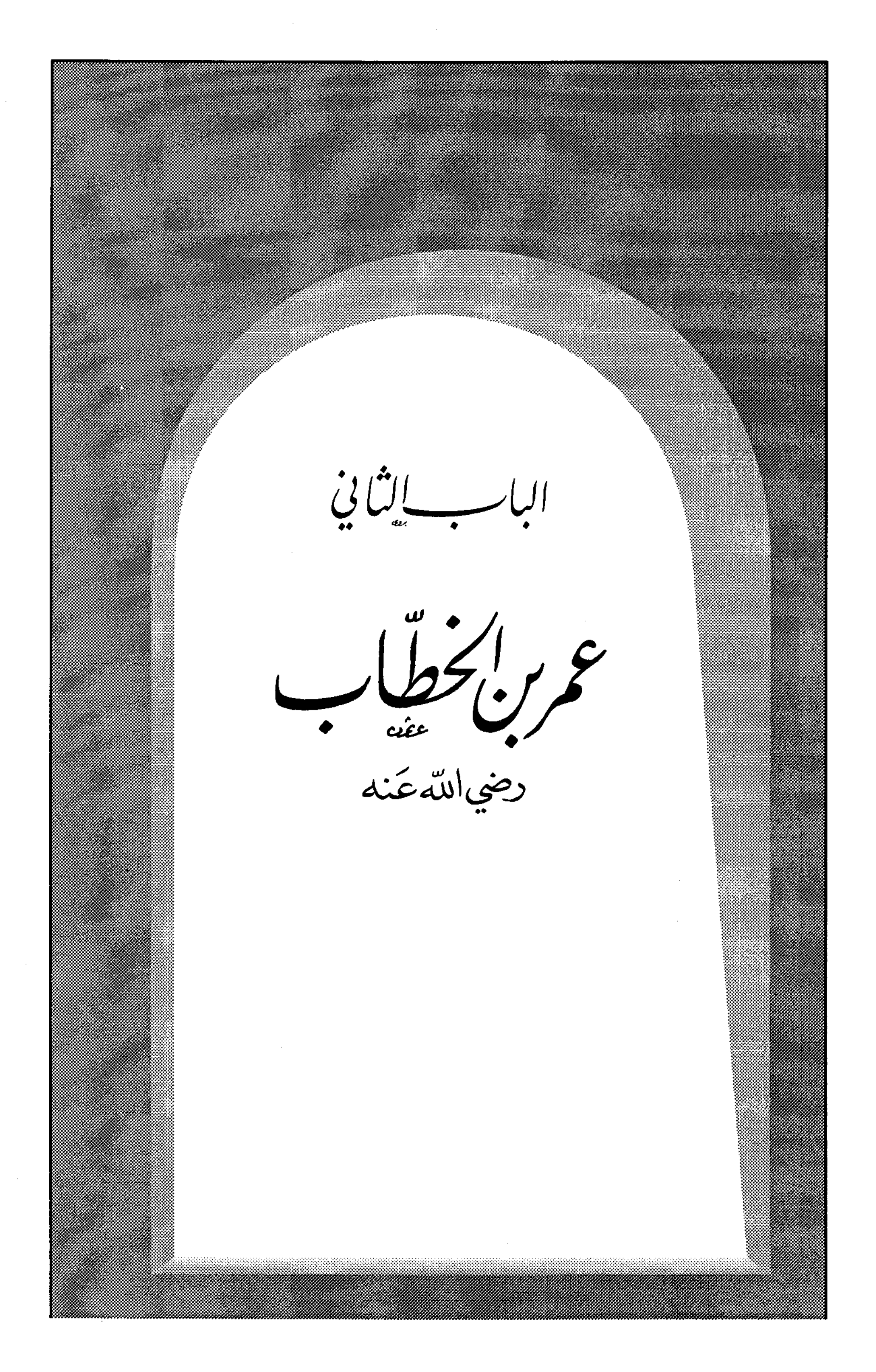
ولم يكن الجندي في الثغور ليفكر في أهله أو بلده،، إذ أن أهله يعيشون بين أفراد مجتمعهم الذين هم إخوانهم، وهم يكفلونهم إضافة إلى العقيدة الراسخة التي تقضي أن يعتقد المرء أن الله هو وليهم في الدنيا والآخرة، ومن هذا المنطلق لم يفكروا في بلدهم، فإن لها حماتها، وهم المسؤولون عنها، وعمن يعيش فيها، والخليفة هو المسؤول الأول. أما الجند فكان همهم الجهاد ونشر الدعوة.

وتوزع الغنائم بالتساوي بين المشاة، وكذلك بين الفرسان، ومن قتل رجلاً فله سلبه، وما كان القتال والالتقاء حول الرايات حسب القبائل إلا لتمتاز بالشجاعة، ومحاولة عدم الهزيمة حتى لا تعير، وقد كان عباد بن بشر، رضي الله عنه، ينادي الأنصار يوم اليمامة أن يمتازوا عن غيرهم بالإقدام والحمل على الأعداء.

وأفراد المجتمع الذين يعيشون في المدن والقرى والبادية، ولم يخرجوا للقتال لضعفهم، وكلهم من النساء والأطفال والعجزة، ولا يعدّ الإنسان نفسه عاجزاً ما دام يستطيع حمل السلاح. وكم من رجل قد جاوز الثمانين فإذا دعا داعي الجهاد انخرط بين صفوف المقاتلين وراح يقلد

الشباب، وذلك لأن الجهاد غاية يسعى كل مقاتل للحصول عليها. وهؤلاء القعدة متعاونون بعضهم مع بعض الآخر حدود التعاون، وكل إنسان موجود بينهم يعدهم أهله، وهو مسؤول عنهم في كل شيء. وهم يشرون ويشترون بكل صدقٍ وأمانة، لا يوجد غش ولا خداع، ولا يعرف مكر ولا نزاع في أية قضية من القضايا ما دامت الشريعة تمنع هذا وتحاربه. وأعضاء هذا المجتمع متعاونون أشد أنواع التعاون، متكافلون، ولم تحدث هناك حوادث أخلاقية أو جرائم إذ أن تطبيق الحدود يحول دون استشراء الفساد بل على العكس يعمل على الحد منها، وما حدثت من حوادث أيام تطبيق الإسلام كلها سوى حوادث لا تصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة.

والمرأة تؤدي دورها كاملاً، فهي تعرف حاجة الأمة وتلبي ذلك، بتربية الأولاد التربية الصالحة، وشحنهم بالإيمان الشحنة الكافية، والحياة مع الضرائر، إن تعددوا، حياة الأخوة الحقة، ومع الجوار تعيش عيشة الإخلاص والتضحية، تشارك في المواساة والتعزية،فتئن مع أنينهم، وتبكي لبكائهم، وكذا في المسرات فتضحك مع ابتسامة الحياة لهم، وتوحي إليهم بأعمالها أنها تسعد بحياتهم السعيدة.


الباب الثاني
عمر بن الخطّاب
رضي الله عنه



حياتــه في الجاهليّـة

عمر بن الخطاب من بني عدي، وهم بطن صغير من قريش، وقد عُرف أبو الخطاب بجلافة طبعه، وقسوة قلبه، فعرف بعذابه لابن أخيه زيد بن عمرو الذي أنكر على قريش عبادتهم للأصنام مع من أنكر أمثال ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث. إذ اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عليه ويدينون له، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وهم الذين ذكرناهم، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية، دين إبراهيم.

لقد همّ زيد بن عمرُو بالخروج من مكة يطلب دين إبراهيم إلا أن زوجه صفية بنت الحضرمي كانت له بالمرصاد، فكلما رأته تهيأ للخروج وأراده أعلمت عمه الخطاب بن نفيل فمنعه من الخروج، وهو الذي كان قد كلف صفية بذلك، وقال لها: إذا رأيتيه قد همّ بأمر فآذنيني به. ولم يدخل زيد في يهودية ولا نصرانية، ولكنه فارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة، والدم، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وكان زيد يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم

أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته. وكان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد، قال: لبيك حقاً حقاً، تعبّداً ورقاً.

وكان الخطاب يعذب زيداً، ويعاتبه، ويلومه على مفارقة دين قومه، ويمنعه من الخروج، وكل هذا بمنتهى الشدة والجلافة، والقسوة وعدم الشفقة. وورث عمر عن أبيه هذه الطباع.

ولد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في السنة الثانية والأربعين قبل الهجرة، فكان عمره يوم بعث رسول الله ﷺ تسعة وعشرين عاماً، واستمر بعدها على جاهليته مدة ست سنوات إذ معلوم أنه قد أسلم في السنة السادسة للبعثة، ثم دخل في الإسلام، وبذا يكون قد عاش في الجاهلية خمسة وثلاثين عاماً، وعاش ثلاثين عاماً في الإسلام.

عاش عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خمسةً وثلاثين عاماً في الجاهلية لم يكن له فيها مركز ولا شهرة، ولولا الإسلام لما اشتهر، ولما عرفه أحد بعد ذلك. قضى تلك المدة في الجاهلية، وعرف أنه كان سفير قريش بينها وبين القبائل الأخرى فيما إذا وقع بينها خلاف أو حدث قتال. ولم تكن هذه التسمية إلا صورة لأن قريشاً لم تكن قبيلة محاربة، ولم تعرف بالغزو والقتال، وإنما كانت قبيلة متحضرة تجارية يهمها الأمن والاستقرار حرصاً على قوافلها ومصلحة لتجارتها، وهي تعيش في حرمها آمنة مطمئنة... هذا إضافة إلى أن مركزها بين القبائل العربية الأخرى كان موضع الاحترام لا موضع الخصام والعناد لأنها تعيش في الحرم الآمن، وتحج القبائل إلى البيت الأول الذي فيه ذكر أبيهم إبراهيم وإسماعيل، وتؤدي المناسك، وقريش تقوم بسدانة البيت وحجابته، كما تقوم برفادة الحجاج وسقايتهم. وما وقع من حروب الفجار، واشتركت فيه قريش ومن معها من كنانة ضد قيس عيلان، وهو آخر ما وقع من حروب، فقد كان عمر، رضي الله عنه، آنذاك صغيراً لم يتجاوز التسع سنوات من العمر، وهذه آخر الحروب التي وقعت بين قريش وغيرها أيام عمر، وبالتالي لم تكن هناك من سفارات، أو أن عمر لم تكن له مهمة في قريش، فهو فرد عادي في المجتمع، وبالأحرى فهو عضو مهمل الذكر ضعيف الشأن،

شأنه في ذلك شأن أسرته القليلة الأهمية بين الأسر المعروفة آنذاك مثل بني عبد مناف، وبني مخزوم، وبني عبد الدار وغيرها، بل كان أقل أهمية من أسرته التي كان عضواً فيها، إذ أن المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش فيه يقوّم الرجال حسب مقاييس معينة واعتبارات محددة، ولعل أهم هذه المقاييس هو المال وعمر لا يملك إلا القليل منه، والقوة أيضاً أحد جوانب هذه المقاييس، والقوة تتعلق بالأسرة وكبرها، وكثرة أفرادها، وبنو عدي عدد قليل كما ذكرنا، وعمر لا يملك إلا أخاً واحداً أسن منه، وهو زيد، إضافة إلى صبية صغار. وليست هذه السفارة إلا أنه يمثل بطناً من بطون قريش.

ومات زيد بن عمرو ومات عمه الخطاب، وبقي عمر وجيه بني عدي، وسفير قريش، وطباعه الجلفة هي التي تميّزه، ويُعرف بها.

وشع نور الإسلام في مكة، وآمنت به جماعات من فئات شتى، وقبائل عدة، وكان من بني عدي أن آمن سعيد بن زيد، ابن عم عمر، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، ونُعيم بن عبد الله، من قوم عمر، وآخرون من بني عدي، أما عمر فلم يسلم، وتمسك بجاهليته تمسك الإِنسان الجلف الذي إذا اقتنع بشيء لا يمكن أن يغيّر أبداً إلا إذا اقتنع بشيء آخر ولن يكون هذا بسهولة. وإذا عمر قد ورث عن أبيه هذه الطباع الصعبة، إلا أنه قد أخذ عن خاله أبي جهل عمرو بن هشام معاداته الصريحة للإِسلام، والوقوف في وجهه، فأم عمر حنتمة بنت هشام، وهي أخت أبي جهل عمرو بن هشام، لذا فقد قسى على ابن عمه سعيد بن زيد زوج أخته فاطمة قسوة كبيرة، كما قسا القسوة نفسها على شقيقته فاطمة إذ أسلما دون علمه.

كان رسول الله ﷺ يجمع المسلمين الاثنين والثلاثة والأربعة منهم في بيت من البيوت، ويرسل إليهم من يعلمهم مبادئ الإسلام ويقرئهم القرآن، وكان من جملة هذه الأسر، أسرة ضمت سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، ونعيم بن عبد الله النحام رجل من قوم عمر، وكان خبّاب بن الأرت[1] يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام.

---

(١) **خبّاب بن الأرت**: رجل ينتسب إلى تميم، وقع في السبي، فاشترته أم أنمار بنت سباع =

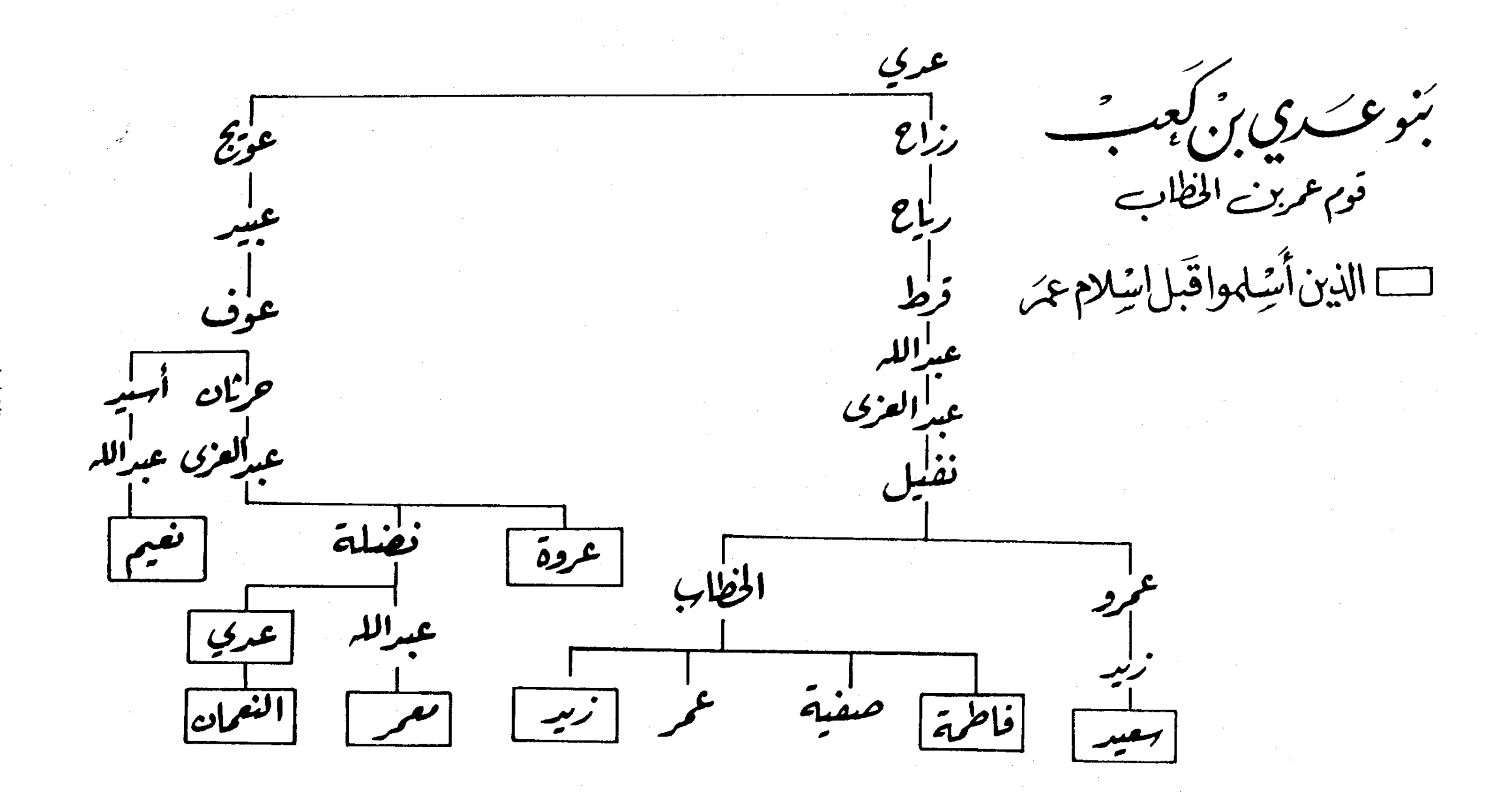
شعر عمر بن الخطاب بالغضب الشديد، والأسى الكبير، عندما لاحظ تفرّق كلمة قريش بين مسلمها وكافرها، بعد أن وقف وجهاء قريش في وجه الدعوة، وحاولوا منعها. وبينما كان مرة في البيت إذ ذكروا له أن محمداً ﷺ يجتمع مع رهط من أصحابه الذين لم يهاجروا إلى الحبشة أمثال حمزة بن عبد المطلب، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وذلك في بيت عند الصفا فاشتد غضبه، فتوشح سيفه نحوهم، يريد إنهاء هذه المشكلة، ويقضي على ما حلّ في قريش من تفرقة، وانطلق يبدو على وجهه الغضب، والتقى بالطريق مع نُعيم بن عبد الله، وهو رجل من قومه، ومن الأسرة المسلمة التي يلتقي فيها سعيد بن زيد ابن عم عمر، وزوجه فاطمة أخت عمر. . . وسأل نعيم عمر، إلى أين يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما، قال نعيم ذلك: خوفاً من انطلاق عمر إلى رسول الله، فلربما حدث ما يكره، ففضل أن ينال سعيد وزوجه فاطمة بعض الأذى وينجو محمد «عليه الصلاة والسلام». . . ولم يقل ذلك كراهية بالإِسلام، إذ كان هو مسلماً، بل ومن الأسرة المسلمة التي تجمعه معهما، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهو يعرف رقة قلب عمر إن لم يكن مغضباً، ولم يثره أحد. وهكذا تغيّرت وجهة سير عمر، وكانت النتيجة أن تغيرت عقيدته ودخل في الإسلام ـ كما سنرى ـ.

= الخزاعية، وأعتقته، فكان لذلك خزاعياً بالولاء، وكان أبوها حليفاً لبني زهرة، لذا نشأ زهرياً بالحلف، كان من أوائل الذين أسلموا، وتفقه في الدين، وتولى تعليم غيره، حضر المشاهد كلها. توفي بالكوفة سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد أن شهد مع علي صفين، والنهروان.

بنو عدي بن كعب

قوم عمر بن الخطاب

الذين أسلموا قبل إسلام عمر



مع شدة عمر وجلافة طبعه كان رقيقاً طيب القلب، إذا لم توجه إليه كلمات تغضبه أو إذا لم تكن إثارة مباشرة له. فمع ما عرف من عناده للإسلام في جاهليته وشدة إيذائه للمؤمنين فإن قلبه كان يرق عليهم أحياناً، إذ عندما انطلق المهاجرون الأوائل إلى الحبشة، وكان فيهم عامر بن ربيعة، وهو من بني عدي بالحلف، ومعه زوجه ليلى (أم عبد الله) بنت أبي حثمة بن حذافة بن غانم، فمر عليهم عمر بن الخطاب، وهو على شركه، وكان عامر قد مضى لبعض حاجته، فوقف عمر على زوجة عامر، فقال لها: إنه للانطلاق يا أم عبد الله، قالت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قال: صحبكم الله، ورأت له رقة لم تكن تراها، لقد وجدت حزنه على خروجهم، فلما جاء عامر من حاجته قالت له، يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، فقال لها: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، فقال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، وذلك يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على المسلمين.

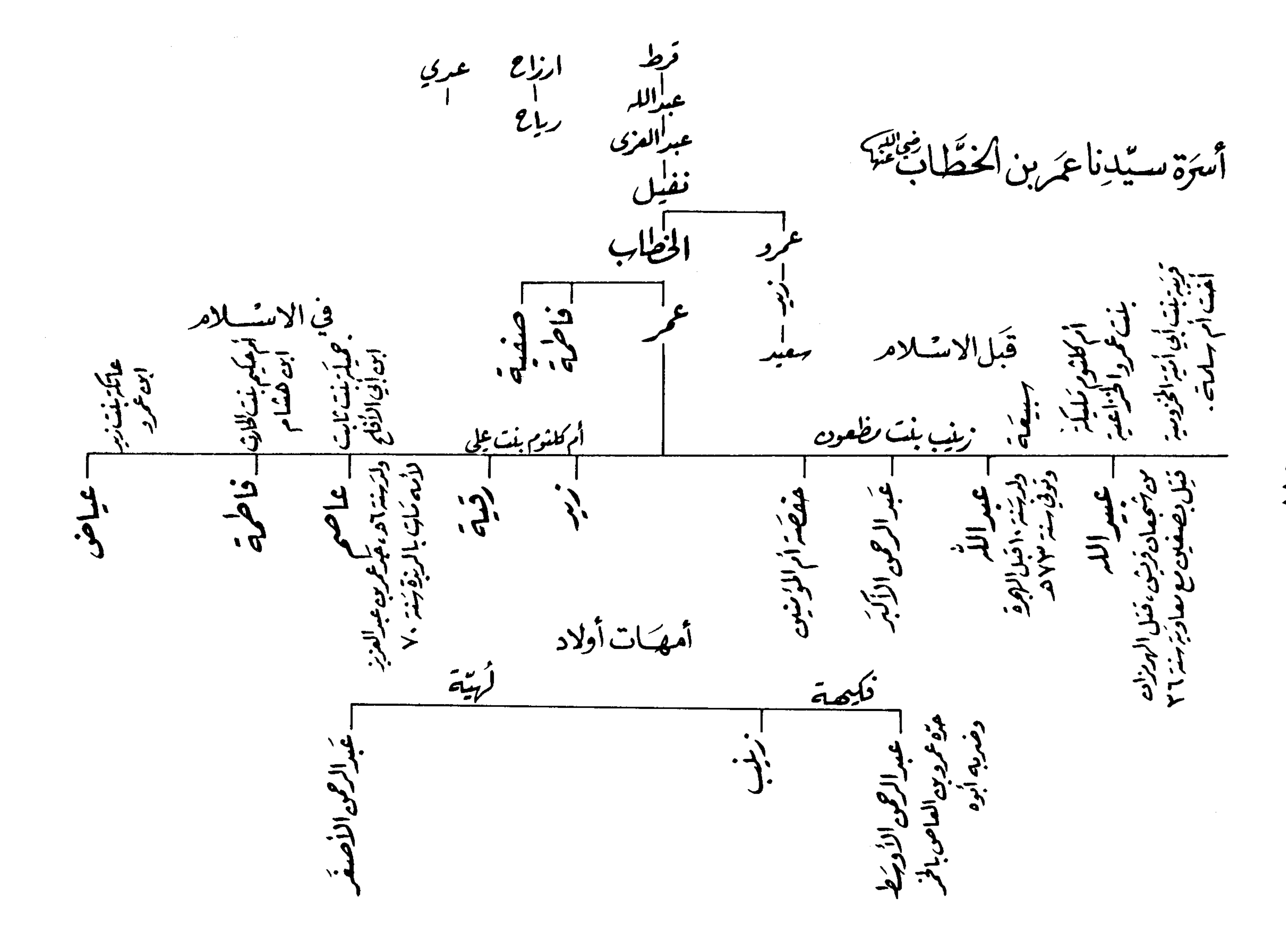
وتزوج عمر قبل الإسلام أربع نساء وهن:

١ ـ زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون: وقد أنجبت له: حفصة أم المؤمنين، التي تزوجت خنيس بن حذافة السهمي، فلما توفي عنها، تزوجها رسول الله ﷺ. كما أنجبت له عبد الرحمن الأكبر. وعبد الله الذي ولد في العاشرة قبل الهجرة.

٢ ـ سبيعة: ولم تنجب له.

٣ ـ أم كلثوم مليكة بنت عمرو الخزاعية: وقد ولدت له عبيد الله الذي يعد من شجعان قريش، وهو الذي قتل الهرمزان الذي اتهم مع أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة بقتل أبيه الخليفة عمر بن الخطاب، وانجبت له أيضاً زيد الأصغر، وحضر عبيد الله صفين مع معاوية، وقتل يومذاك.

٤ ـ قريبة بنت أبي أمية المخزومية: وهي أخت أم المؤمنين أم سلمة، ولم تنجب له أيضاً.



أسرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه
عدي
ارزاح
رياح
قرط
عبد الله
عبد العزى
نفيل
الخطاب
عمرو
زيد
سعيد
عمر
فاطمة
صفية
في الإسلام
قبل الإسلام
عاتكة بنت زيد
ابن عمرو
عياض
أم حكيم بنت الحارث
ابن هشام
فاطمة
جميلة بنت ثابت
ابن أبي الأفلح
عاصم
ولد سنة ٦هـ، جد عمر بن عبد العزيز
لأمه مات بالربذة سنة ٧٠
أم كلثوم بنت علي
رقية
زيد
زينب بنت مظعون
حفصة أم المؤمنين
عبد الرحمن الأكبر
عبد الله
سبيعة
ولد سنة ١٠ قبل الهجرة
وتوفي سنة ٧٣هـ
أم كلثوم مليكة
بنت عمرو الخزاعية
عبيد الله
من شجعان قريش، قتل الهرمزان
قتل بصفين مع معاوية سنة ٣٦
قريبة بنت أبي أمية المخزومية
أخت أم سلمة.
أمهات أولاد
لهية
فكيهة
عبد الرحمن الأصغر
زينب
عبد الرحمن الأوسط
حده عمرو بن العاص بالخمر
وضربه أبوه



حياته في الإسلام

اتجه عمر بن الخطاب إلى ابن عمه سعيد بن زيد، وإلى أخته فاطمة يرى شيئاً عن إسلامهما بعد ما ذكر له نُعيم بن عبد الله ما ذكر، وكان عندهما خبّاب بن الأرت، ومعه صحيفة فيها (سورة طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيّب خبّاب في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما، فلما دخل، قال: ما هذه الهمهمة (الصوت الخفيف الذي لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب، لتكفه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم وندم على ما صنع، ورجع، وقال لأخته وقد رقّ قلبه، أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، انظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذ قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، ولا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها سورة طه. فقرأها، فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خبّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم عمرو بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على

محمد ﷺ حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فاذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له؛ فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذه بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم.

ويروى عن إسلام عمر أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة، عند دور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال: فخرجت فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني، قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت إلى محمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوت منه استمع منه لأروِّعنّه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ يصلي يقرأ القرآن، حتى

قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، قال: فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه حتى يجزع[1] المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عوف الزهري، ثم دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته، وكان مسكنه ﷺ في دار الرقطاء، التي كانت بيد معاوية بن أبي سفيان. قال عمر، رضي الله عنه: فتبعته، حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني فظن رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأوذيه، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته.

ويروى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لما أسلم قال: أيّ قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ فما راجعه حتى قام يجرّ رداءه، واتبعه عمر، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر من خلفه كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وأعياه التعب، فقعد وقاموا على رأسه، فقال لهم: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا، وبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش، عليه حُلّة حِبْرة، وقميص

---

(١) يجزع: يقطع.

موشى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلوا عن الرجل. قال عبد الله بن عمر: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يقاتلونك؟ جزاه الله خيراً. قال يا بني، ذاك العاص بن وائل، لا جزاه الله خيراً.

ويروى أن عمر كان يقول: لمّا أسلمت تلك الليلة، تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل. قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه. قال: فخرج إليّ أبو جهل، قال: مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدّقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: وقبّح ما جئت به.

وكان عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

وكان عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، يقول أيضاً: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

ويروى أن عمر بن الخطاب لما أسلم قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قا ﷺ: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق، إن متم إن حييتم. قال: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن، وكان الرسول على ما يبدو قد رأى أنه قد آن الأوان للإعلان، وأن الدعوة التي كانت كالوليد الضعيف الذي لا بدّ له من الرعاية والحفظ، قد غدت قوية تمشي وتستطيع أن تدفع عن نفسها، فأذن بالإعلان وخرج ﷺ في صفين، عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر،

ولهم كدير ككدير الطحين، حتى دخل المسجد، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها قط، وسماه رسول الله ﷺ يومئذٍ الفاروق.

إلا أن عمر لم يكن يجرؤ أحد من قريش على إيذائه، بينما يصيب الأذى المسلمين الآخرين، ولعل هذا كان من أكثر ما يزعج عمر، فكان يقول: لا أحب إلا أن يصيبني ما أصاب المسلمين. لذا كان يتعرض لرؤوس الكفر، ويعلن أمامهم إسلامه، بل يذهب إلى بيوتهم، ويطرق أبوابهم ليخبرهم بنبأ إسلامه، علهم يقومون بشيء ضده، فيناله ما ينال إخوانه المسلمين، ويستطيع في الوقت نفسه أن ينتقم من تلك الرؤوس. ولم يرد عمر أبداً أن يكون في نعمة ليست للمسلمين، فيكون هو في عافية وراحة وهم في إيذاء وتعب. وعندما أعلن إسلامه، وبدأت قريش تقاتله وثب على عتبة بن ربيعة، فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل إصبعه في عينه، فجعل عتبة يصيح، الأمر الذي جعل الناس يتنحون عن عمر، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من دنا منه، حتى أحجم الناس عنه.

واشتد أذى قريش على المسلمين، وكان قد انتشر الإسلام في يثرب، فطلب رسول الله ﷺ من المسلمين أن يهاجروا إلى إخوانهم في المدينة، وابتدأت وفود المسلمين تترك مكة متجهة إلى المدينة وكلها متخفية في هجرتها وانتقالها، إلا هجرة عمر، فقد روي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة، تقلّد سيفه وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف في البيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذا المعاطس، من أراد أن يثكّل أمه، أو يوتّم ولده، أو يرمّل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي، رضي الله عنه: فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ثم مضى لوجهه.

وكان لما عزم على الهجرة قد أخبر صديقيه عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وهشام بن العاص، واتفقوا على الصحبة على أن يجتمعوا في منازل غفار على عشرة أميال من مكة، فمن تخلف عن الموعد تركوه ورحلوا، فجاء عمر، وعياش، وحُبس هشام في مكة، وفُتن عن دينه، فواصلا حتى وصلا قباء، فنزلا على رفاعة بن عبد المنذر فلحقهما أبو جهل عمرو بن هشام، وأخوه الحارث بن هشام، وهما أخوال عمر، وأبناء عمّ عياش وأخواه لأمه، أما عمر فلم يخاطباه لما يعلمان من شدته في الحق وصلابته، أما عياش فقد قالا له: إن أمك قد نذرت ألا يظلها سقف، ولا يمسّ رأسها دهن حتى تراك، فاستشار عمر، فأجابه: والله ما أرادا إلا ردك عن دينك، فاحذرهما ولا تذهب، فوالله لو آذى أمك القمل لادهنت وامتشطت، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت: إلا أن عياشاً قد مال إلى الذهاب معهما، فبدأ يوجد المبررات لنفسه، فقال: إن لي بمكة مالاً لعلي آخذه فيكون قوة للمسلمين، وأكون قد بررت قسم أمي.

فقال عمر: إنك لتعلم إني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. فأبى عياش إلا أن يخرج معهما، فلما أبى، قال له: أما إذا قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فلما كان بضجنان[1] قال أبو جهل: والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك؟ قال عياش: بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض أوثقاه رباطاً، حتى دخلا به مكة، فقالا: كذا يا أهل مكة فافعلوا بسفهائكم. ثم حبسوه.

ولبث عمر عند رفاعة بن عبد المنذر حتى لحق به أهله وقومه: أخوه زيد بن الخطاب، وابن عمه سعيد بن زيد، وخنيس بن حذافة السهمي صهره زوج ابنته حفصة، وواقد بن عبد الله حليف لهم. ثم قدموا المدينة.

ولكن عمر بقي يذكر صديقيه، ويتمنى لهما الخلاص من ظلمة

---

(١) ضجنان: جبل إلى الشمال من مكة على ٤٠ كيلاً منها.

الكفر، ومن ربقة الأسر، حتى أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن الوليد بن المغيرة أخا خالد بن الوليد ليخلّص عيّاشاً، وقد استعمل الوليد الحيلة والقوة حتى أنقذ عيّاشاً ومعه سلمة بن هشام وعاد بهما إلى المدينة.

كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من الصحابة الذين يستشيرهم رسول الله ﷺ فيما يعرض له من مشكلات، ولربما نزل الوحي بما يؤيد رأي عمر. ويعد عمر الصحابي الثاني بين المسلمين بعد أبي بكر، رضي الله عنهما، وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان فيها من الرجال المعدودين بالقوة وشدة البأس، ومن الذين يقفون بجانب رسول الله ﷺ يدافعون عنه، ويحمونه من الأعداء كأبي بكر، ولم يكن من الذين يجولون في الميدان. وكان يتقيد بأوامر رسول الله ﷺ حرفياً، ولم يحاول أن يجتهد، ويفسر الأمر من عنده.

وكان يؤثر رغبة رسول الله ﷺ على هوى نفسه، فقد فرح بإسلام العباس بن عبد المطلب عم رسول الله يوم أسلم أكثر من فرحه بإسلام أبيه الخطاب لو أسلم، وذلك لأن إسلام العباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

سار رسول الله ﷺ مع المسلمين إلى بدر للتعرض لعير أبي سفيان، إلا أن القافلة قد نجت، ولكن كان لا بدّ من اللقاء مع جيش مكة الذي خرج لإنقاذ القافلة وتأديب المسلمين على حد زعم رؤوس الكفر آنذاك، فأراد رسول الله ﷺ أن يستشير المسلمين وبخاصة الأنصار الذين كانوا يشكلون أكثرية المسلمين، فوقف أبو بكر فتكلم فأحسن، وتكلم عمر فأجاد، وتكلم المقداد بن عمرو فأحسن، وكان رسول الله يقول في كل مرة أشيروا عليّ أيها القوم حتى وقف سعد بن معاذ، رضي الله عنه وقال: كأنك تريدنا يا رسول الله فقال: أجل فتكلم رضي الله عنه فأحسن وأعلن الاستعداد لخوض المعركة.

وكانت إرادة الله في اللقاء، وكانت غزوة بدر الكبرى، وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين، ولم يرد العير التي لا يؤدي أخذها إلى

شــيء ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ ﴾[1].

وكانت نتيجة المعركة أن انتصر المسلمون انتصاراً كبيراً على الرغم من قلة عددهم التي لا تصل إلى ثلث عدد الكفار، هذا بالإضافة إلى قلة الاستعدادات المادية والمعنوية، إذ كانوا قد خرجوا للقاء القافلة وليس للحرب، كما أن سلاحهم قليل، وركابهم أقل، ودروعهم وطعامهم كله غير كاف. وترك المشركون نتيجة المعركة سبعين قتيلاً من صناديد قريش ورؤوس الكفر فيهم، وراح مثلهم أسرى بيد المسلمين من وجهاء القوم.

وكانت هذه أول معركة تدور رحاها بين الإسلام والكفر، وتميزت من أول المطاف أن العقيدة هي الرابطة الوحيدة التي تربط الناس بعضهم إلى بعض، وهي الوشيجة القوية بين المسلمين، وليس هناك من مهادنة مع الكفر مهما كان نوعه. وقد قتل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في هذه المعركة خاله العاص بن هشام ضارباً بالقرابة عرض الحائط أمام رابطة العقيدة، بل كان يفخر في ذلك تأكيداً لهذه الفكرة، ومرّ يوماً عمر بسعيد بن العاص، فوجد منه إعراضاً فقال له: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن إني قتلت أباك في بدر، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، وأما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور فحدت عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله.

وساق المسلمون أمامهم سبعين أسيراً منهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، ومنهم عقيل بن أبي طالب ابن عم رسول الله، وقد شاور

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥ ـ ٨.

رسول الله أصحابه فيما يفعل بالأسرى، وكان ممن استشار أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن رواحة، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم فدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال عمر: لا والله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، حتى يُعلم أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار، هؤلاء صناديدهم، وقادتهم، وأئمتهم، وأيد عمر كل من علي، وعبد الله بن رواحة. وسكت رسول الله ﷺ ولم يجبهم. ودخل بيته. ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]، ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3]. ومثلك مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4]، ثم قال رسول الله ﷺ أنتم عالة، فلا يطلقن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق.

قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: فلما أن كان من الغد غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر، وإذ هما يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. قال النبي ﷺ: الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، لقد عُرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة)،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.
(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.
(٣) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) سورة يونس: الآية ٨٨.

وأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[1]، ثم أنزل الله بعد ذلك آية: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[2].

وكان من بين الأسرى خطيب قريش سهيل بن عمرو، فقال عمر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنتزع ثنيتي سهيل بن عمرو فيدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، وإن عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه (وهذا ما حدث فعلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ همّ عدد من أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، حتى خافهم والي مكة عتّاب بن أسيد فتوارى، فقام سهيل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ، وقال: (إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس عن رأيهم).

وكان من بين أسرى قريش يوم بدر وهب بن عمير بن وهب الجمحي، وكان أبوه عمير بن وهب من شياطين قريش، ومن الذين يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة، وجلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في الحجر، وكان صفوان بن أمية مفجوعاً بأبيه أمية بن خلف وأهله الذين قتلوا يوم بدر مع المشركين، وتحدثا عن قتلى بدر والأسرى، فقال صفوان: والله ما لنا في العيش بعدهم خير، فقال له عمير: صدقت، أما والله لو لا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم. فاستغل صفوان ذلك وقال له: عليّ دينك أنا أقضيه عنك. وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء، ويعجز عنهم. قال له عمير: فاكتم شأني وشأنك. قال أفعل.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.
(٢) سورة محمد: الآية ٤.

وكان عمر بن الخطاب في المدينة في مجلس قرب المسجد يتحدثون عن بدر وما أكرم الله عباده المؤمنين، وبينما هم كذلك إذ نظر عمر فرأى عميراً متوشحاً سيفه، وقد أناخ راحلته أمام المسجد، فقال: هذا الكلب، عدو الله، عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر وهو الذي حرّش بيننا وحَزَرَنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله، عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله عليّ. فأقبل عمر إلى عمير، وقيّده بحمالة سيفه، وطلب من بعض الأنصار أن يكونوا معه، خوفاً على رسول الله من هذا الشيطان فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه رسول الله مقيداً قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير! فدنا عمير وقال أنعموا صباحاً: فقال رسول الله، ﷺ، قد أكرمنا الله بتحية خيراً من تحيتك يا عمير بالسلام ـ تحية أهل الجنة فقال: أما والله يا محمد وإن كنت بها لحديث عهد. قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه. قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك! قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله. قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هو هداني للإِسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

واستدر عام من بدر، وكانت غزوة أحد، وأصاب المسلمين ما أصابهم بعد نصر، وثبت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مع من ثبت، وذاد عن رسول الله مع من ذاد، ولما انتهت الغزوة، وأراد قائد المشركين أبو سفيان الانصراف وقف على مرتفع ثم صرخ بأعلى صوته أفيكم محمد؟

فقال ﷺ: (لا تجيبوه) ثم سأل ثانية وثالثة فلم يجيبوه ثم قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، قالها ثلاثاً، ثم قال أفيكم ابن الخطاب قالها ثلاثاً فلم يجيبوه أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يتمالك عمر نفسه أن قال كذبت يا عدو الله. إنا أحياء ولك منا يوم سوء. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، اعل هبل، فقال عمر: اسمع يا رسول الله ما يقول عدو الله! فقال رسول الله ﷺ لعمر: قل، الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: هلم يا عمر، فقال النبي لعمر: ائته فانظر ما شأنه. فجاءه. فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن. فقال: أنت أصدق من ابن قمئة (الذي زعم أنه قتل محمداً، على حين كان قد قتل مصعب بن عمير، رضي الله عنه).

وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى بني المصطلق الذين تجمعوا يريدون غزو المدينة، فانطلق إليهم رسول الله قبل أن ينهوا استعدادهم، فالتقوا على ماء (المريسيغ)، وانتصر رسول الله على بني المصطلق، وأخذ جلهم أسرى، واستاق شياههم، وأنعامهم، وذراريهم. وبينما كان المسلمون على ذلك الماء إذ ازدحم عليه أجير عمر وهو جهجاه من بني غفار، وسنان الجهني حليف الخزرج، واقتتلا فنادى سنان يا معشر الأنصار، ونادى جهجاه يا معشر المهاجرين! ووصل الخبر إلى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وكان في جماعة من الخزرج بينهم غلام صغير يدعى زيد بن أرقم، فقال عبد الله بن أبي: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أمرنا وجلابيب قريش هذه، إلا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن منها الأعز الأذل، ثم التفت إلى قومه الذين كانوا معه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. وعندما سمع ذلك الفتى الحدث المؤمن هذا الكلام من عبد الله بن أبي انطلق إلى رسول الله ﷺ، ونقل إليه مقالة ابن أبيّ، وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله، فقال عمر: مُر عبّاد بن

بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا. ولكن أذّن بالرحيل. وصار الخزرج قوم ابن أبيّ هم الذين يعاتبونه ويعنفونه على مقالته تلك. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب بعدما حدث من تعنيف الناس لعبد الله بن أبيّ: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لارعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

وأرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في سرية تضم ثلاثين مقاتلاً، ووجهها إلى (تربة) في الجنوب الشرقي من مكة، وهي بلدة تقع على وادٍ يحمل اسمها، حيث تجمعت هوازن هناك للنيل من المسلمين، فسار عمر، وكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل يرشده على الطريق، فلما وصل إلى هدفه وجد عدوه قد ابتعدوا بمواشيهم وأموالهم، فرجع إلى المدينة، وأثناء عودته قال له الدليل: هل لك في تجمع آخر من خثعم. فلم يرض عمر وقال: لم يأمرني رسول الله بذلك، وإنما أمرني بقتال هوازن.

وسار رسول الله ﷺ بأصحابه من المدينة إلى مكة يريد زيارة البيت وتعظيمه، إلاّ أن قريشاً قد وقفت في وجهه في الحديبية ومنعته من ذلك، وظنت أنما جاء مقاتلاً، كما خشيت أن تسمع العرب بذلك فتقل هيبتها وتقوى سمعة المسلمين. وأراد رسول الله ﷺ أن يبعث رسولاً له إلى قريش يعلمها أنه إنما جاء زائراً للبيت ومعظماً له، ووقع اختياره على عمر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله إن أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فأرسل رسول الله عثمان، وجرت مباحثات ـ كما مرّ معنا في السيرة ـ وأخيراً جرى الصلح بين الطرفين، ولم يبق إلا كتابة ما اتفقوا عليه، فجاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولم يرق له الصلح، أو لم يفهم بُعده، فقال: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال:

بلى، قال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال أبو بكر يا ابن الخطاب! إنه رسول الله، ولم يضيعه الله أبداً. وكان عمر قد ذهب إلى رسول الله، وسأله الأسئلة نفسها، فكانت الأجوبة نفسها تقريباً، ثم أنزل الله سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر. فقال عمر: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: نعم. يقول عمر بعد ذلك. فما زلت أتصدق، وأصلي، وأصوم، وأعتق مخافة كلامي هذا الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً، وبينما كان رسول الله ﷺ يملي على علي بن أبي طالب نصوص الصلح، وسهيل بن عمرو مندوب قريش يراجعه في الصيغة، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف بالقيود وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه يضربه على وجهه، ويقول: يا محمد قد لجّت القضية بيني وبينك، إذ كان من شروط الصلح أنه إن جاء إلى رسول الله رجلاً من قريش مسلماً دون إذن أهله فعليه أن يرجعه... ولم تكن بنود الصلح قد انتهت كتابتها إلا أنه قد اتفق مشافهة على بنودها، ويقصد سهيل أن أبا جندل قد جاء مسلماً ودون إذن، فعلى المسلمين أن يرجعوه إلى قريش. أما أبو جندل فكان يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ ولقد أثار هذا الصراخ المسلمين ووقعوا في أمر عظيم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل! اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ولا نغدر بهم. أما عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد وثب يسير مع أبي جندل ويحرضه ضمناً على قتل أبيه، ويقرب منه السيف، ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب... إلا أن أبا جندل لم ينتبه إلى هذه القضية، إذ كان يعيش مع نفسه فيما آل إليه أمره أو أنه لم يقس على أبيه فتطاوعه نفسه بقتله. وكتب الصلح وشهد عمر بن الخطاب على الصلح مع من شهد من المسلمين ومن أعدائهم.

ونقضت قريش صلح الحديبية، وغدرت بالمسلمين، إذا دعمت حلفاءها بني بكر على حلفاء المسلمين بني خزاعة الأمر الذي جعل بُدَيل بن ورقاء الخزاعي ينتقل إلى المدينة، ويلتقي برسول الله ﷺ، يستنصره على قريش، ويشرح له غدر قريش بقومه. وشعرت قريش بالأمر، فأرسلت أبا سفيان ممثلاً عنها يجدد صلح الحديبية، ويؤكد تمسك قريش، ويزيد في مدته إن استطاع. وسار أبو سفيان إلى المدينة، ودخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، ورغب أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ إلا أن أم المؤمنين قد طوته عنه، فقال لها أبوها أبو سفيان: يا بنية! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. وخرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله ﷺ وكلمه فلم يرد عليه بشيء، ثم ذهب إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فكلمه أن يكلم له رسول الله. فقال عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعنده فاطمة، رضي الله عنها، بنت رسول الله ﷺ وعندهما ولدهما الحسن، رضي الله عنه، يدبّ بين يديهما، فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن لما جئت خائباً فاشفع لي عند رسول الله، فقال علي: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد! هل لك أن تأمري بُنيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يجير بين الناس. وما يجير أحد على رسول الله. قال يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال: والله ما أعرف لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، ففعل.

وعمد المسلمون بإمرة رسول الله إلى السير إلى مكة لفتحها، وساروا حتى أضحوا على مقربة منها حيث عسكروا هناك، ونظر العباس إلى قوة المسلمين، وكان قد أسلم، ورغب في نفسه أن يأتي أهل مكة يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها عليها عنوةً، وإذ بصوت أبي سفيان فأخذه العباس وأردفه وراءه على بغلة رسول الله، وكان كلما مرّ على نار سأله عن أهلها حتى إذا وصل إلى نار عمر بن الخطاب رآه فأراد أن يقتل أبا سفيان إلا أن العباس قد أسرع بالبغلة فوصل إلى رسول الله ﷺ قبل وصول عمر إليه، فلما وصل عمر إلى رسول الله قال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. فقال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرته. وألح عمر في شأن أبي سفيان، فقال العباس: مهلاً يا عمر، لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، أو لكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم.

وتقدمت قوافل المسلمين نحو مكة، وكانت راية الأنصار بيد سعد بن عبادة، فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، وسمع عمر بن الخطاب ذلك، فأسرع إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة؟ فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها.

ودخل المسلمون مكة، والتقى رسول الله ﷺ بقريش، وعفا عنهم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، والتقى بالرجال فبايعهم، فلما انتهى من مبايعتهم، اجتمعت إليه نساء من قريش، فبايعهن على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف. وكانت بين النساء هند بنت

عتبة زوجة أبي سفيان، وتناقش رسول الله، وكان عمر حاضراً، ويضحك من مناقشتها، ثم قال رسول الله لعمر: بايعهنّ، واستغفر لهن رسول الله. فبايعهن عمر.

وعندما عرض رسول الله ﷺ الإِسلام على أبي سفيان، فقال: كيف أصنع بالعزى، فسمعه عمر، رضي الله عنه، فقال له: تخرأ عليها.

وانطلق رسول الله ﷺ بعد فتح مكة إلى حنين لمداهمة هوازن وثقيف ومن والاهما، وقد اجتمعوا للهجوم على المسلمين قبل أن يشتد ساعدهم على حدّ زعمهم، إلا أن هوازن وجموعها قد كمنت للمسلمين وفاجأتهم، وكانوا قد أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً، ففروا، وولوا مدبرين، وثبت حول رسول الله ﷺ جماعة من المسلمين منهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه ربيعة بن الحارث.

وجاء في فتح الباري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن يحيى عن عبيد بن حنين أنه سمع ابن عباس، رضي الله عنهما، يحدث أنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة، وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به. قال: ثم قال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسّم لهن ما قسم، قال: فبينما أنا في أمر أتأمره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: مالك ولم ها هنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت عجباً لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. فقام

عمر فأخذ رداءه، وانطلق حتى دخل على حفصة، فقال لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله، وغضب رسول الله ﷺ. يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ إياها ـ يريد عائشة ـ قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه. فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. فقلت: رغم أنف حفصة، وعائشة، فأخذت ثوبي فخرجت حتى جئت، فإذا رسول الله ﷺ في مَشْرُبَةٍ له يرقى عليها بعجلة، وغلام لرسول الله ﷺ أسود على رأس الدرجة، فقلت له: قل: هذا عمر بن الخطاب. فأذن لي. قال عمر: فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظاً مصبوراً، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟

وتوفي رسول الله ﷺ، وقد مر معنا في بحث أبي بكر، رضي الله عنه، موقف الصديق رضي الله عنه المستشار له، واليد اليمنى له، والمشارك له في تسيير شؤون الدولة، ثم استخلفه من بعده.

وتزوج عمر في الإسلام ابنة عمه عاتكة بنت زيد بن عمرو، وأنجبت له عياضاً. كما تزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومية، وكانت

تحت عكرمة بن أبي جهل، وأولدها عمر فاطمة. كما تزوج جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، وهي أخت عاصم، وأنجبت له عاصماً وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه، وقد ولد في السنة السادسة، ومات بالربذة عام ٧٠هـ. ثم تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وكان له منها زيد، ورقية. وكانت عنده فكيهة، وأنجب منها زينب وعبد الرحمن الأوسط، ولهيّة وولدت عبد الرحمن الأصغر.

ولم يعرف عن عمر أنه بكى في الجاهلية إلا أنه في الإسلام أصبح رقيق القلب شديد العاطفة كثير البكاء، إذ كان يبكي كلما قرأ أو سمع آيات التخويف والوعيد في القرآن الكريم، كما كان يبكي كلما رأى شظف الحياة التي يحياها رسول الله ﷺ، وإذا ذكّر بالله أو قرئ أمامه وكان على درجة من الغضب لا يلبث أن يبكي ويرق قلبه.

وكان صاحب خمر في الجاهلية إلا أنه في الإسلام كان يتمنى دائماً أن تحرم الخمرة ويتنزل الوحي في تحريمها، وكان يصرح بهذا الرأي، ويكثر في رغبته تلك، وعندما أنزلت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1] لم يرض عمر كلياً، وبقي يتمنى تحريماً كلياً، ويسأل الله تعالى أن يبين أمر الخمر بياناً شافياً، فلما أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[2]، وهنا طابت نفس عمر.

وكذلك كان موقفه من الحجاب، فكان يتمنى أن يفرض الحجاب وبخاصةٍ على نساء النبي، وكلم رسول الله ﷺ في ذلك، وطابت نفس عمر كذلك عندما نزلت آيات الحجاب.

وتوفي عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وجاء ابنه يسأل

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

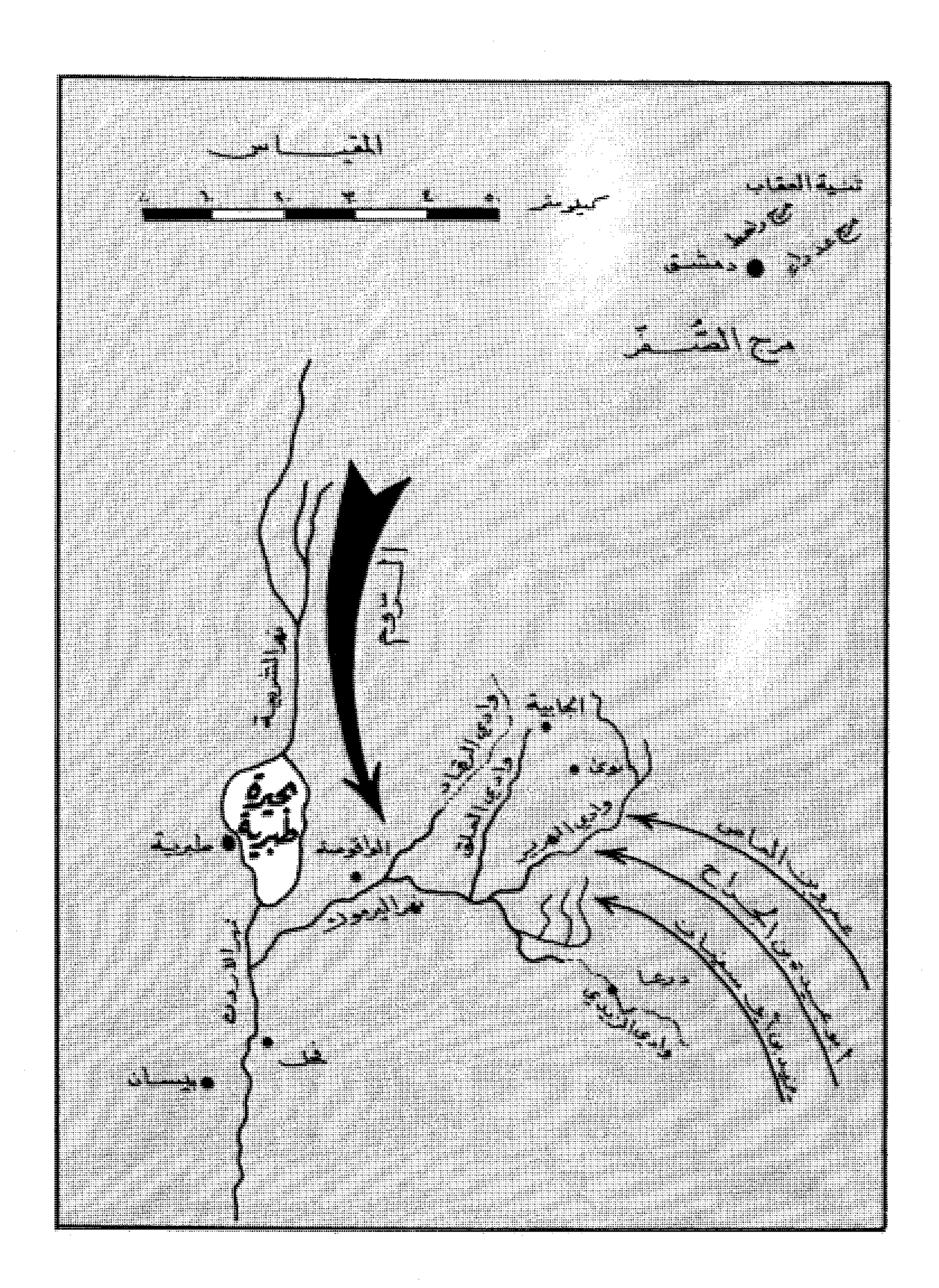
(٢) سورة المائدة: الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

النبي ﷺ أن يصلي عليه، فأجابه النبي إلى ما أراد، وذهب رسول الله، وصلى على ابن أبي، إلا أن عمر راجعه وجادله، ثم جاء الوحي مطابقاً لرأي عمر، حيث أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[1].

وكما كان مع رسول الله ﷺ في مراجعة له في أمور كثيرة، فقد كان كذلك يراجع أبا بكر، ونراه كيف كان يلح في عزل خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص عن الإمارة، وعندما تولى الأمر أسرع فعزل خالداً وأعطى الإمرة لأبي عبيدة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨٤.


المقياس
كيلومتر
ثنية العقاب
دمشق
مرج الصفر
الجابية
نوى
طبرية
الواقوصة
بيسان
فحل



الفتوحات في عهد عمر

يبدو أن القيادة الإسلامية في المدينة المنورة بعد أن انتهت من حروب الردة، وقررت مواجهة الدولتين العظميين آنذاك، كانت الخطة الموضوعة أن تفتح المعركة بكل ثقلها على جبهة، وتقوم بدور الدفاع على الجبهة الثانية، وتعتمد على سرعة الحركة بالانتقال من جبهة إلى أخرى حيث تبقى الدولتان في ذعر شديد، وضعف معنوي كبير يحول دون التفاهم بينهما، إذ تستمر المعركة قائمة على الجبهتين معاً حيث تخاف كل دولة على وجودها فلا تحرص أن تتفق الواحدة مع الأخرى، وإزالة ما كان بينهما من آثار الحرب.

ومع انتهاء حروب الردة كانت الدولة الفارسية هي التي تشكل الخطر الأكبر بالنسبة إلى المسلمين إذ كان الفرس يدعمون المرتدين، ويحاولون إن استطاعوا القضاء على المسلمين، ويمدون كل متنبئٍ كذابٍ، أو مرتدٍ خارجٍ على الحكم بكل ما يمكنهم دعمه، لذا كانت الخطة البدء بالقتال على الجبهة الفارسية، لذا وافقت قيادة المدينة المنورة على طلب المثنى بن حارثة الشيباني بالتحرش بالفرس ومنازلتهم. وعندما انتهى خالد بن الوليد من حروب الردة طلبت منه القيادة التوجه إلى العراق لدعم المثنى بن حارثة، كما طلبت ذلك من عياض بن غنم، وأعطته قوة يتحرك بها نحو شمالي العراق.

استطاع خالد بن الوليد أن ينتصر على الفرس، وأن يجول بأرض العراق، وأن تجوس خيله منطقة السواد وجزءاً من أرض الجزيرة، هذا بالإضافة إلى مناطق غربي الفرات، وهذا ما جعل الفرس يشعرون بقوة

الجيش الإسلامي وإمكاناته القتالية والتعبوية ـ على عكس ما كانوا يظنون ـ الأمر الذي جعلهم يستعدون الاستعداد الكبير للمعركة الحاسمة المقبلة، وحشد الجنود لذلك. وفي هذا الوقت كانت القوة الإسلامية على الجبهة الرومية تقوم بالدفاع فقط حيث كان خالد بن سعيد بن العاص يرابط بقواته قرب مناطق سيطرة الروم والقبائل العربية المتنصّرة المتحالفة مع الروم. ثم جهز الخليفة الصديق الجيوش وأرسلها إلى الشام ـ كما رأينا ـ إلا أن الروم كانوا يستعدون لذلك، ويتوقعون حرباً عامة شاملة، لذا فقد جمعوا أعداداً كبيرة، وبعثوها باتجاه الجيوش الإسلامية الأربعة، كما نقل هرقل مقر قيادته إلى حمص لتكون على مقربة من ساحة المعركة، ولما رأى المسلمون ذلك طلبوا المدد من المدينة والدعم، وكان على القيادة الإسلامية أن تنقل المعركة الرئيسية من العراق إلى الشام إذ كان الفرس في حالة من الضعف بعد الهزيمة التي منوا بها، وهم بحاجةٍ إلى مدة للاستعداد والتفاهم على الحكم بعد الخلاف الواقع بينهم، لذا طلب الخليفة من خالد بن الوليد أن ينتقل بمن معه من الجند الذين كانوا معه في نجد، والذين جاءوه دعماً من المدينة واليمن إلى الشام لدعم المسلمين هناك.

انتقل خالد بن الوليد إلى الشام وجرت معركة اليرموك بين الروم والمسلمين، وكانت معركة حاسمة، ولم تبدأ حتى كانت الخلافة قد آلت إلى عمر بن الخطاب، وبعد انتهاء المعركة كان استعداد الفرس قد تم، واتفاقهم قد حصل بعد اختلاف، وقرروا تصعيد القتال ضد المسلمين، الأمر الذي جعل القيادة الإسلامية في المدينة تطلب من القيادة العسكرية في الشام إعادة قسم من جند العراق بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى العراق، هذا بالإضافة إلى إعلان النفير في جزيرة العرب للسير إلى العراق ودعم قوة المسلمين هناك وبدأت الإمدادات تصل، قوة إثر أخرى إلى العراق. أما في الشام فقد تمّ طرد الروم وإنهاء الوجود البيزنطي فيها بعد عددٍ من المعارك، وهذا ما نلاحظه في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وبدأت المعارك في العراق ثم انتقلت إلى فارس حتى قضي على

الدولة الفارسية نهائياً، ولم ينته عهد الفاروق بعد. وبانتهاء المقاومة على الجبهة الشرقية عاد القتال إلى الجبهة الغربية، إذ انتقل القتال إلى مصر، وشمالي إفريقية، وجزر البحر المتوسط، واستمر ذلك في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

معركة اليرموك: تولى عمر بن الخطاب الخلافة في بداية القتال العنيف على الجبهة الغربية، إذ كان المسلمون قد تجمعوا في اليرموك أمام تحشدات الروم الهائلة.

كان تجمع المسلمين في المنطقة الغربية من درعا اليوم، وقد أخطأ كثير من المؤرخين، فجعلوا نهر اليرموك المنطقة الفاصلة بين المسلمين والروم، ومن يجول في تلك البقعة يدرك مباشرة أنه لا يمكن لهذا الوادي السحيق أن يكون ميداناً لمعركة أو تكون جنباته ساحة لها، هذا بالإضافة إلى أن الخليفة الصديق كان قد طلب من القيادة العسكرية في بلاد الشام أن يكون تجمع جندها في مكان يسهل معه الاتصال مع المدينة لإمكانية وصول الإمدادات وسهولة الاتصال، ولو قطع المسلمون الوادي قبل احتدام المعركة وانتقلوا منه إلى الجهة الثانية وبصعوبة كبيرة لما أمكن وصول الإمدادات إليهم، ولما أمكن الاتصال مع المدينة بعد نشوب الحرب، فكيف بالانتقال والحركة السريعة أثناء القتال كما يحلو لبعض المؤرخين أن يخططوا ذلك، لهذا كله فقد جعل المسلمون مؤخرة جندهم إلى الشمال الغربي من درعا، لتكون درعا طريقاً لوصول الدعم إليهم والاتصال مع المدينة، حيث يمكن في هذا المكان قطع الوادي بسهولة. هذا مع العلم أن خالد بن الوليد قد انتقل إلى اليرموك من بصرى فيكون طريقه عن درعا أو إلى الشمال قليلاً منها. وتكون معركة اليرموك قد وقعت على جانبي أحد روافد اليرموك وهي إما (الرقاد) أو (العلق)، ويكون عمرو بن العاص الذي كان على ميمنة المسلمين إلى الشمال، ويزيد بن أبي سفيان الذي كان على الميسرة في الجنوب، على مقربة من نهر اليرموك وأبو عبيدة بينهما.

عمرو بن العاص

معاذ بن جبل

خالد بن الوليد في الخيل

سعيد بن زيد

القعقاع بن عمرو

عكرمة بن أبي جهل

يزيد بن أبي سفيان

نفاثة بن اسامة الكناني

قيس بن هبيرة في الخيل

أبو عبيدة بن الجراح

النساء

وخرج المسلمون على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد، وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه، ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة، ورهبانهم يتلون الإنجيل، ويحثونهم على القتال، وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش، فساق بفرسه إلى أبي عبيدة فقال له: إني مشير بأمر، فقال: قل ما أمرك الله أسمع لك وأطيع. فقال له خالد: إن هؤلاء القوم لا بدّ لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة، وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين وأجعلها وراء الميمنة والميسرة حتى إذا صدّوهم كانوا لهم ردءاً فنأتيهم من ورائهم. فقال له: نعم ما رأيت. فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة، وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله حتى إذا رآه المنهزم استحى منه ورجع إلى القتال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة، رضي الله عنهم. وساق خالد إلى النساء أن يكنّ من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها، فقال لهن: من رأيتموه مولياً فاقتلنه. ثم رجع إلى موقفه، رضي الله عنه.

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، واشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

وخرج معاذ بن جبل[1] على الناس فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن: كان عمره يوم=

القرآن، ومتحفظي الكتاب، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق، ألم تسمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ الآية، فاستحيوا ـ رحمكم الله ـ من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم في قبضته وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويثبت عليه، ويمقت الكذب، ويجزي بالإحسان إحساناً ـ لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً[1] وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل.

وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين أنتم العرب، وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين، وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء، والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة وأن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن، ثم عاد

= هجرة المصطفى عشرين عاماً، أسلم وهو فتى، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبيه جعفر بن أبي طالب، شهد العقبة الثانية، ثم حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، كان عالماً بالحلال والحرام، أرسله رسول الله إلى اليمن مرشداً، خرج مجاهداً إلى الشام، كان مع أبي عبيدة، واستخلفه عندما أصيب، وأقر ذلك عمر، ولكنه توفي في ذلك العام ١٨هـ، ولم ينجب.

(١) الكفر: المزرعة.

فنادى: يا معشر أهل الإِسلام حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم. ثم سار إلى موقفه رحمه الله.

وقد وعظ الناس أبو هريرة أيضاً فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين، وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم. ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم(١).

ولما تقارب الناس تقدم أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، ومعهما ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام، وأبو جندل بن سهيل بن عمرو، ونادوا: إنما نريد أميركم لنجتمع له، فأذن لهم في الدخول عن تذارق، وإذا هو جالس في خيمة من حرير. فقال الصحابة: لا نستحل دخولها، فأمر لهم بفرش بسط من حرير، فقالوا: لا نجلس على هذه، فجلس معهم حيث أحبوا.. وهكذا كان الصحابة، رضوان الله عليهم، لا يقبلون الاستهانة بشيء من حرمات الله مهما قل، ومع أنه ليس فيه اللباس إلا أنهم رغبوا أن يأخذوا أنفسهم بالشدة، ورفض هذه الأمور وأمثالها، الأمر الذي جعلهم يعظمون في عين أعدائهم فيسايرونهم، ويرتفعون في أنفسهم. وهذا ما وضعهم حيث وضعوا هم أنفسهم، وتميزوا بشخصيتهم فكان لهم ما تمنوا.

وعرض الصحابة على الأعداء: الإسلام، أو الجزية، أو السيف، وكان من تعنت الروم أن كان لا بدّ من القتال.

وطلب ماهان خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم، فقال ماهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً، وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها، فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك. فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

كنا نحدث به عن العرب، وهكذا كلمة واحدة بعزة النفس تميت معنويات الخصم.

تقدم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو ـ وهما على مجنبتي القلب ـ أن ينشبا القتال، وهكذا بدأت المعركة. وكان ذلك في أوائل شهر رجب من السنة الثالثة عشرة، وحملت ميسرة الروم على ميمنة المسلمين فمالوا إلى جهة القلب، وكان معاذ بن جبل، رضي الله عنه، يقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل السكينة علينا، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء. وانكشفت زبيد، ثم تنادوا فتراجعوا، وحملوا على الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف، وردت النساء من فرّ، فرجع الناس إلى مواقعهم.

وقال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى من يبايع على الموت؟ فبايعه ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام، عم عكرمة، وعدد من المسلمين، ووصل عددهم إلى أربعمائة رجل من أعيان الناس، وقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جرحى، وقتل منهم عدد كبير منهم ضرار بن الأزور. ويذكر أنهم استسقوا ماء وهم جرحى فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً، ولم يشربها أحد منهم.

ثم حمل خالد بن الوليد بالخيل على ميسرة الروم التي حملت على ميمنة المسلمين، فأزالهم إلى القلب، وقتل المسلمون في حملتهم هذه ستة آلاف من الروم، ثم حمل بمائة فارس على ما يقرب من مائة ألف من الروم فانهزموا أمامهم بإذن الله، وتبعهم... ولما عاد المسلمون من حملتهم جاء البريد ـ الذي ذكرنا ـ يحمل وفاة الصديق، وبيعة عمر، وتولية أبي عبيدة إمرة القتال.

وخرج من بين الروم أحد أمرائهم الكبار وهو (جرجه) واستدعى

خالد بن الوليد إلى بين الصفوف حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال جرجه: يا خالد أخبرني فاصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا! قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا كذبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به، وبايعناه، فقال لي: أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين. ودعا لي النصر، فسميت سيف الله بذلك فأنا أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجه: يا خالد إلى ما تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل: قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب، ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا. قال جرجه: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنه وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقةٍ ونيةٍ كان أفضل منا، فقال جرجه: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال: تالله لقد صدقتك، وأن الله ولي ما سألت عنه. فعند ذلك قلب جرجه الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فشنّ عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين... فحملت الروم عند ذلك على المسلمين حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم إلى المدافعين أمثال عكرمة بن أبي جهل، وعمه الحارث بن هشام.

وحمل خالد، وجرجه بالمسلمين على الروم حتى هزموهم بإذن الله. . . وقتل جرجه، رحمه الله، ولم يصل سوى هاتين الركعتين مع خالد، وصلى المسلمون يومذاك صلاة الظهر والعصر إيماء، وأخّروا صلاة العشاءين. وفرّ الروم ليلاً إلى الواقوصة، وسقط الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل.

وكان ممن شهد اليرموك الزبير بن العوام، رضي الله عنه، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذ جرحين في كتفه. وقُتل عكرمة بن أبي جهل وعمه الحارث بن هشام، وابنه عمرو بن عكرمة، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وهشام بن العاص، وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي. وانهزم يومذاك عمرو بن العاص في أربعة حتى وصلوا إلى النساء فزجرنهم فعادوا. وانكشف شرحبيل بن حسنة وأصحابه فتراجعوا فوعظهم الأمير فرجعوا. وثبت يزيد بن أبي سفيان وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرّ به فقال له: يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمور المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله، فقاتل يومئذ قتالاً شديداً وكان من ناحية القلب، رضي الله عنه.

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد.

وروي أن الأشتر قد شهد اليرموك ولم يشهد القادسية، فخرج يومئذٍ رجل من الروم، فقال: من يبارز؟ فخرج إليه الأشتر؛ فاختلفا ضربتين، فقال للرومي: خذها وأنا الغلام الإيادي، فقال الرومي، أكثر الله في قومي مثلك! أما والله لو أنك من قومي لآزرت الروم، فأما الآن فلا أعينهم[1].

وروي أن هرقل قال وهو على إنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني[2].

وروي أن أحد أمراء الروم وهو (القُبُقلار) بعث رجلاً عربياً من قضاعة عيناً له بين المسلمين، وقال له: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة، ثم ائتني بخبرهم. قال: فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر، فأقام فيهم يوماً وليلة، ثم أتاه فقال له: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم، لإقامة الحق فيهم. فقال له القبقلار: لئن صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم علي[3].

وفقد عدد من المسلمين عيونهم يوم اليرموك منهم: أبو سفيان، وكان قد فقد عينه الأولى يوم الطائف، والثانية في اليرموك، وعاش بعدها ضريراً، والمغيرة بن شعبة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كرب، وقيس بن المكشوح وغيرهم.

---

(١) تاريخ الطبري: الجزء الثالث.
(٢) البداية والنهاية: الجزء السابع.
(٣) تاريخ الطبري: الجزء الثالث.

وبعد معركة اليرموك التي فر منها الروم، وتابعهم المسلمون فصالحهم أهل دمشق، وأهل حمص، إذ خلت أكثر هذه المناطق من الجنود الروم، كما أن هرقل قد انتقل من مقره في حمص إلى إنطاكية التي اتخذها قاعدة له يسير فيها الجند، وتصدر عنه الأوامر.

وانتقل أبو عبيدة بالجيش من اليرموك إلى مرج الصفر ببقية الجيش الذي لم يلاحق الروم، وفي المرج وصل إليه الخبر بأن الروم قد تجمعوا بفحل بغور الأردن، فتوقف لا يدري بأي الأمرين يبدأ، أبدمشق، ويتركزّ المسلمون فيها أم يعود إلى فحل؟ فكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الموقف، ويستشيره بالأمر، وجاء الأمر من أمير المؤمنين أن ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام، وبيت مملكتهم، فانهد لها، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيول تكون تلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن فتحت دمشق قبلها فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله عليكم فحل فسر أنت وخالد إلى حمص واترك عمراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين.

معركة فحل: بعث أبو عبيدة عمارة بن مُخِشّ إلى فحل، فوجد أن الروم يقاربون ثمانين ألفاً، وقد طوفوا المياه في المنطقة إلا أن المسلمين استطاعوا، بإذن الله، إحراز النصر، ودخول (فحل) و (بيسان)، وذلك قبل فتح دمشق.

فتح دمشق: أرسل أبو عبيدة أبا الأعور السلمي إلى طبريا ليفتحها وليكون ردءاً للمسلمين المتجهين إلى دمشق، وحائلا دون وصول إمدادات رومية إلى دمشق التي نقض أهلها الصلح بعد أن رأوا أن الروم لا تزال لهم قوة في المناطق الجنوبية، وكذلك أهل حمص، ويبدو أن المناطق الداخلية من بلاد الشام كان تقدم المسلمين فيها سهلاً وذلك لقلة السكان إذا استثنينا المدن، ولسهولة حركة الجند، ووجود الحياة القبيلية التي يمكن أن يكون لها أثر في الصلح أو الخوف ومغادرة الديار على حين كانت المناطق الساحلية في المنطقة الجنوبية كثيرة السكان لخصوبتها، ومنها مدينة القدس

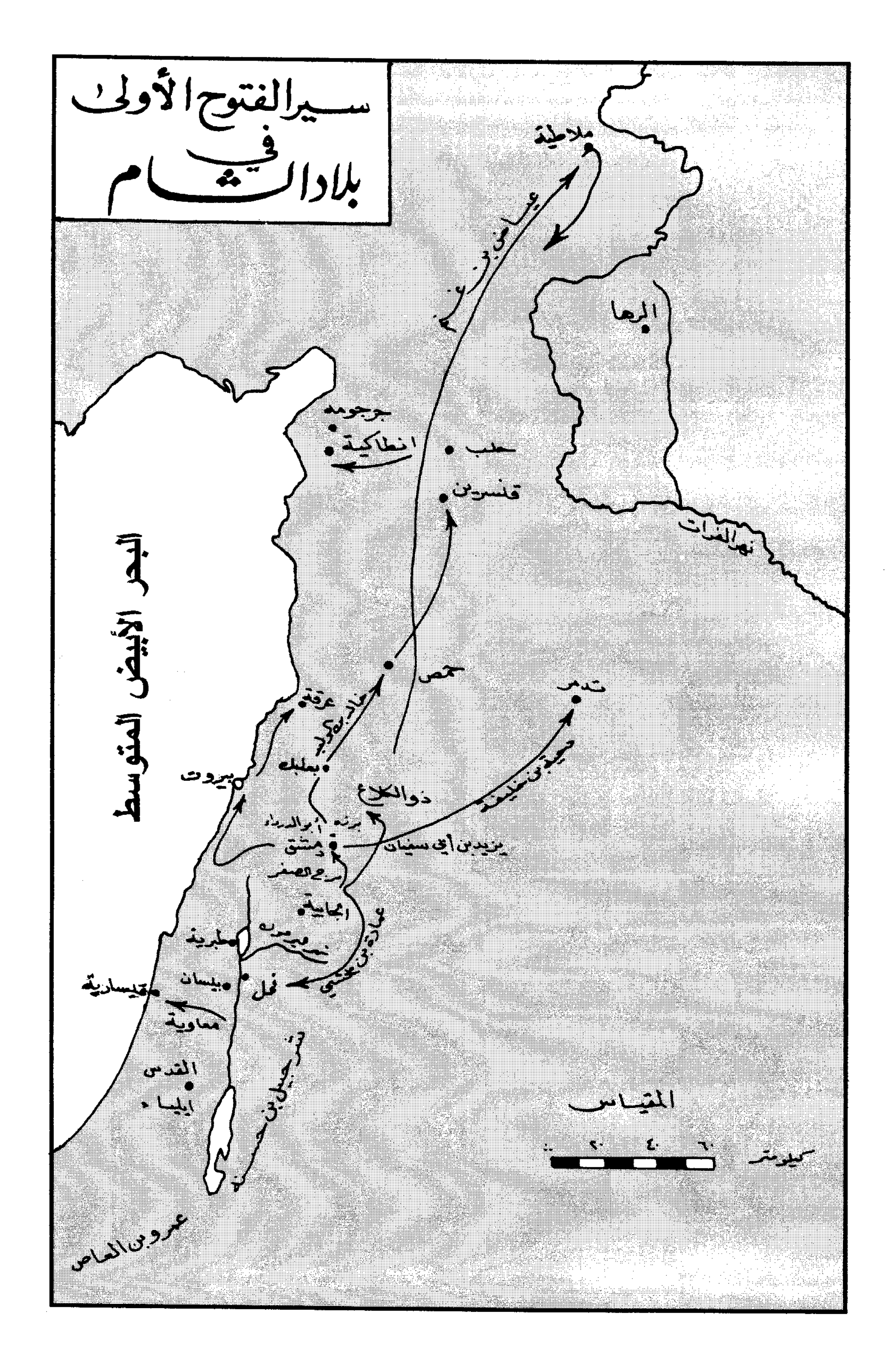
ذات الطابع الديني، والدفاع عنها يكون كبيراً لذلك السبب، والمناطق الشمالية من الجهات الساحلية جبلية وعرة المسالك، إضافة إلى قسوة السكان لطبيعة بلادهم الجبلية، وكان فيها المردة والجراجمة، وهم من قدامى السكان، وبعضهم من بقايا العمالقة، ولهم ارتباطات كبيرة بالروم أيضاً.

سار أبو عبيدة باتجاه دمشق، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب، وسار هو في الميسرة، وعمرو بن العاص في الميمنة، وكان عياض بن غنم على الخيل، وشرحبيل بن حسنة على الرجالة. وفي الوقت نفسه بعث ذا الكلاع في فرقة لترابط بين دمشق وحمص لتحول دون وصول الإمدادات إلى دمشق من جهة الشمال، كما جعل أبا الدرداء في فرقة أخرى لتكون في برزة على مقربة من دمشق ردءاً للجيش الإسلامي الذي يحاصر المدينة.

وبعث أبو عبيدة طليعة تتألف من ثلاثة عناصر أحدهم وأميرهم أبو أمامة الباهلي الذي يقول: فسرت فلما كنا ببعض الطريق، أمرت أحد من معي أن يكمن، وبعد مسافة أمرت الآخر فكمن هناك وسرت أنا وحدي حتى باب البلد، وهو مغلق في الليل وليس هناك أحد، فنزلت وغرزت رمحي بالأرض ونزعت لجام فرسي، وعلقت عليه مخلاته ونمت، فلما أصبح الصباح قمت فتوضأت وصليت الفجر، فإذا باب المدينة يقعقع فلما فتح حملت على البواب فطعنته بالرمح فقتلته، ثم رجعت والطلب ورائي، فلما انتهينا إلى الرجل الذي في الطريق من أصحابي ظنوا أنه كمين فرجعوا عني، ثم سرنا حتى أخذنا الآخر، وجئت إلى أبي عبيدة فأخبرته بما رأيت، فأقام أبو عبيدة ينتظر كتاب عمر فيما يعتمده من أمر دمشق، فجاءه الكتاب يأمره بالمسير إليها، فساروا إليها حتى أحاطوا بها، واستخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب في خيل هناك[1].

---

(١) البداية والنهاية ـ الجزء السابع ـ ابن كثير.



سير الفتوح الأولى في بلاد الشام
ملاطية
الرها
جرجومة
انطاكية
حلب
قنسرين
نهر الفرات
البحر الأبيض المتوسط
حمص
تدمر
عرقة
بعلبك
بيروت
ذو الكلاع
دمشق
يزيد بن أبي سفيان
مرج الصفر
الجابية
طبرية
بيسان
فحل
قيسارية
معاوية
القدس
إيلياء
عمرو بن العاص
المقياس
كيلومتر

ولا شك فإن الإيمان وحده هو الذي كان سبب نصر المسلمين في معاركهم التي خاضوها ضد أعدائهم على الرغم من قلتهم وقلة إمكاناتهم، وبالإيمان نفسه استطاع هذا الصحابي الجليل أبو أمامة أن ينطلق منفرداً إلى باب مدينة دمشق، وأن يبيت ليلة ونفسه مطمئنة، وفكره هادئ فيما سيكون وأن يصبح فيتوضأ ويصلي الفجر، ويقتل البواب وينطلق... وهذا ما أرعب الروم، وأخاف السكان، وأضعف المعنويات إذ شعروا أن الغارات قد بدأت تصل إليهم، وأن الفرد من المسلمين وحده يمكن أن يكون غارة، يغير، ويقتل، وينصرف ولا يبالي.

انطلق الجيش الإسلامي نحو دمشق، فدخل الغوطة واحتلها كي لا يأمل أهل دمشق بمساعدات وتموينات منها، ووصل إلى دمشق من ناحية الشرق، فتوزع يحاصرها حسب التشكيل الذي يسير عليه، فتوقف خالد، وهو على قلب الجيش، على الباب الشرقي وحتى باب كيسان، وسارت الميسرة على جنوب دمشق، فنزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير وإلى باب كيسان، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية من جهة الغرب وحتى الباب الصغير. وسارت الميمنة على شمالي دمشق فنزل عمرو بن العاص على باب توما، ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، وباب السلام.

استمر حصار دمشق عدة أشهر، وشعر أهل دمشق أن الإمدادات لا يمكن أن تصل إليهم، وجاء وقت البرد، وكان قاسياً، فصعب القتال، وفي إحدى الليالي ولد لبطريق المدينة مولود، فأقام وليمته للجند والناس، فباتوا ليلتهم تلك سكارى، وشعر خالد بن الوليد بذلك نتيجة ضعف قتال الذين فوق الأسوار، وقلة حركة الناس عامة، ونتيجة المعلومات التي وصلت إليه من العيون، وهو على عين يقظة لا ينام إلا قليلاً ولا ينيم، وكانت عنده سلالم مهيأة. فلما أحس بذلك استدعى بعض صناديد القوم أمثال القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، وأحضر جنده عند الباب، وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا فوق السور فارقوا إلينا. ثم إنه قطع الخندق وهو

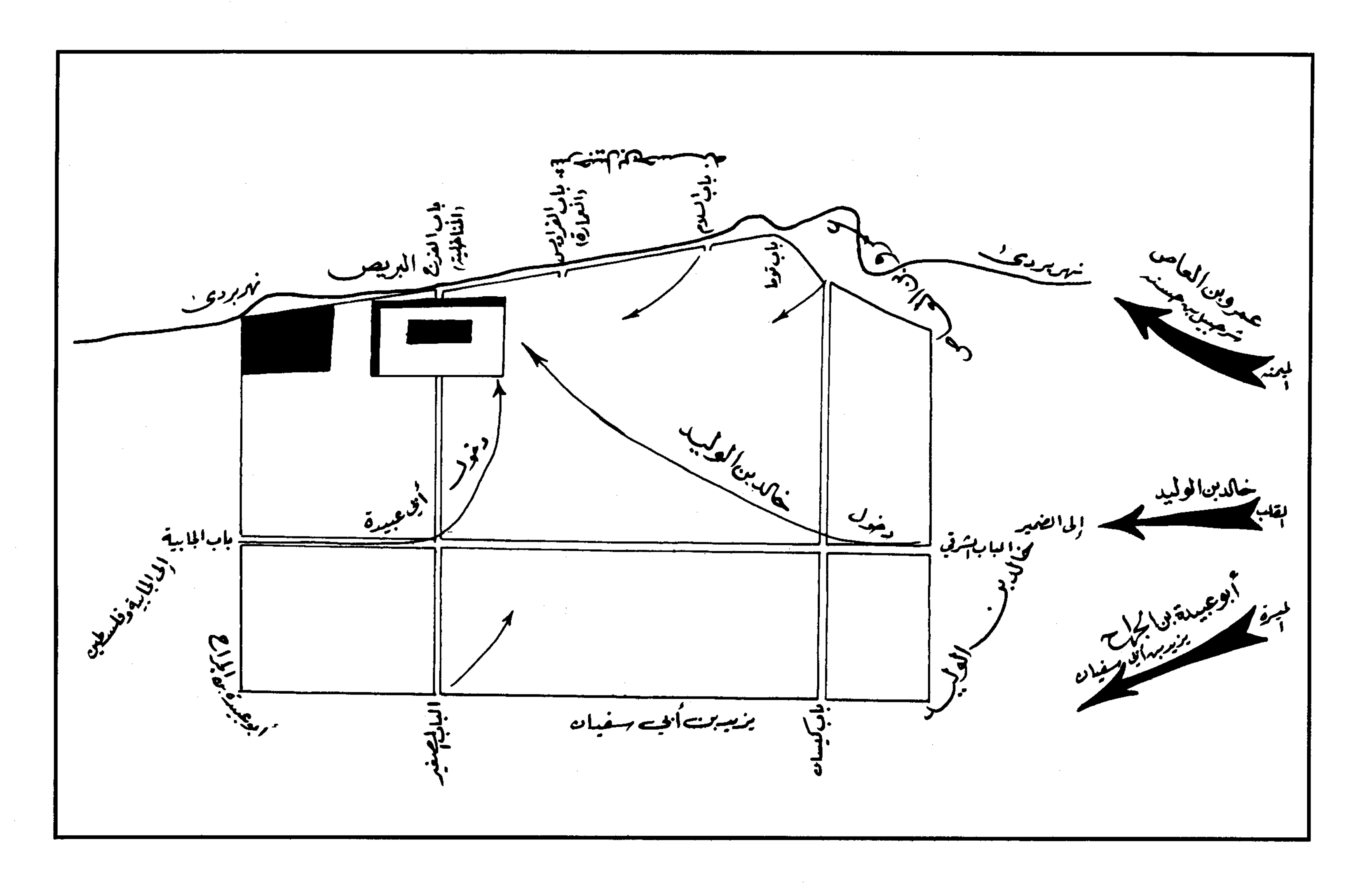
وأصحابه سباحة وقد وضعوا قرباً في أعناقهم تساعدهم على السباحة. إذ كانت الخنادق تحيط بدمشق وهي مليئة بالماء عدا الجهة الشمالية حيث كان نهر بردى هناك يعد بمثابة الخندق، وكان السور على ضفافه يتعرج حسب المجرى على حين كانت الأسوار في الجهات الأخرى تسير بشكل مستقيم، وأثبت خالد وصحبه السلالم على شرفات السور، وصعدوا عليها، فلما صاروا أعلى السور رفعوا أصواتهم بالتكبير لإرهاب العدو، ونزلوا على حراس الباب فقتلوهم، وفتحوا الباب عنوة، وقد كسروا مغاليقه، واندفع الجند من الباب إلى الداخل.

وانطلق خالد بن الوليد مع جنده داخل المدينة يعمل فيمن وقف في وجهه قتلاً، ويتجه نحو مركزها، وأسرع وجهاؤها نحو بقية الأبواب وخاصة نحو الغرب حيث باب الجابية خوفاً من أن ينالهم القتل، فيعلنون الاستسلام وفتح مدينتهم، وطلب الصلح، ودخل بقية قادة المسلمين وجيوشهم من الأبواب الأخرى صلحاً يتجهون نحو داخل المدينة والتقوا مع مركزها، خالد يعمل السيف، وهم في السلم، فقالوا له: يا أبا سليمان إن القوم قد استسلموا، وطلبوا الصلح، وفتحوا الباب لنا، ودخلنا سلماً، فقال لهم: وإنما دخلت أنا ومن معي المدينة عنوة، ولم يزل يعمل السيف حتى طلب منه أبو عبيدة الكف عن ذلك. والتقى الأمراء عند المقسلاط قرب سوق النحاسين اليوم (المناخلية). وكان فتح دمشق في رجب من السنة الرابعة عشر أي بعد معركة اليرموك بسنة كاملة. وقد استمر حصارها عدة أشهر.

وبعد فتح دمشق طلب أمير المؤمنين من أبي عبيدة أن يسير بعض جند العراق الذين جاءوا منها مع خالد بن الوليد إلى العراق مرة ثانية ليدعموا الفاتحين فيها، فسيرهم بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.

وولى أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وسيّر شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، أي سار كل من الأمراء إلى المنطقة التي كانت وجهته الأولى إليها.

بعث يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق دحية بن خليفة إلى تدمر، كما



الميمنة
عمرو بن العاص
القلب
خالد بن الوليد
الميسرة
أبو عبيدة بن الجراح
يزيد بن أبي سفيان
نهر بردى
البريص
باب الفرج
(المناخلية)
باب الفراديس
(العمارة)
باب السلام
باب توما
خالد بن الوليد
دخول
إلى الضمير
الباب الشرقي
خالد بن الوليد
باب كيسان
يزيد بن أبي سفيان
الباب الصغير
باب الجابية
أبو عبيدة
دخول
إلى الجابية وفلسطين

بعث أبا الزهراء القشيري إلى حوران فصالح أهلها، إذ كان طريق المسلمين إلى دمشق عن طريق مرج الصّفرّ ومن جهة الغرب من حوران، لذا فقد بقيت حوران دون مصالحة.

في البقاع: وأرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى البقاع، وعندما وصل إلى تلك الجهة جاءت حملة من الروم عن طريق ما يعرف اليوم باسم ظهر البيدر تحت إمرة سنان، واستطاع قتل عدد من المسلمين عند (عين ميسون)، وعرفت تلك العين بعد ذلك باسم عين الشهداء. ثم تابع خالد سيره في البقاع نحو الشمال فصالحه أهل بعلبك.

معركة مرج الروم وفتح حمص: وكان أبو عبيدة قد اتجه إلى الشمال أيضاً فنزل على ذي الكلاع[1] الذي كان في آخر ثنية العقاب، ويشرف على (القطيفة) اليوم، وإذ وصل إليه خبر إرسال هرقل بطريقاً من قبله يدعى (توذرا) إلى مرج الروم (منطقة الصبورة اليوم) لينازل دمشق فسار إليه أبو عبيدة وخرج (إلى توذرا)، وجاء خالد من الخلف، وبدأ القتال فلم ينج من الروم إلا من شرد، وقتل خالد (توذرا)، وكان أبو عبيدة قد التقى ببطريق آخر يدعى (شنس) نزل بجانبه فتنازلاَ، وقتل أبو عبيدة شنس أيضاً، وفر أتباعه باتجاه حمص فلاحقهم أبو عبيدة، ولما انتهى خالد من (توذرا) تبع أبا عبيدة نحو حمص فحاصراها معاً، وطال الحصار، وجاء فصل الشتاء، وكان شديد البرد، وصبر الصحابة صبراً عظيماً، ولما انسلخ الفصل البارد اشتد الحصار، وأجبر الأهالي المسؤولين بالاستسلام، وطلبوا الصلح حسب الصلح الذي صالح عليه أهل دمشق على نصف المنازل، وضرب الخراج على الأرض، وأخذ الجزية على الرقاب حسب الغنى والفقر. وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الله بن مسعود... كما طلب منه الرأي بشأن هرقل... فجاءه الجواب بالبقاء في حمص بالنسبة إلى أبي عبيدة.

---

(١) ذو الكلاع: يزيد بن النعمان.

فتح قنسرين: وأرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فقاتل أهلها بعد حصار واعتذار بعد هزيمة أولى، وإثر ذلك دخل المدينة عنوة، وذلك في السنة الخامسة عشرة من هجرة رسول الله ﷺ. هذا التقدم السريع في المناطق الداخلية كان لا يوازيه تقدم آخر في المناطق الساحلية للأسباب التي سبق أن ذكرناها، الأمر الذي اقتضى أن يقوم عمرو بن العاص الذي ولي أمر فلسطين بحرب عنيفة في مناطقه الجنوبية حتى يستطيع المسلمون أن يتقدموا في الساحل والداخل بصورة متوازية، واقتضى الأمر من القيادة أن توجه حملات من الداخل إلى الساحل لتقطع المناطق الساحلية إلى وحدات، ولتقلل الضغط أمام الفاتحين المسلمين المتقدمين من الجنوب، وليُضعف معنويات المتعنتين من الروم، وليقلل أملهم في إمكانية التشبث بالأرض والبقاء في تلك الجهات، لذا أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان بالتحرك نحو قيسارية وتولي أمورها وكتب إليه: أما بعد فقد وليتك قيسارية فسر إليها، واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا فنعم المولى ونعم النصير. فسار إليها فحاصرها، وقاتل أهلها عدة مرات وفي النهاية انتصر عليهم، وقتل منهم ما يقرب من ثمانين ألفاً، وبهذا الفتح انقطع رجاء الروم في النصر... ثم كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى إيلياء (بيت المقدس).

فتح أجنادين: سار عمرو بن العاص إلى أجنادين وهي موقع قريب من الفالوجة ومكان عبور فلسطين من الجنوب، إذ رابط فيها الأرطبون، كما كانت قوة للروم في الرملة، وأخرى في بيت المقدس، وكانت إذا جاءت قوات داعمة إلى عمرو أرسل بها تارة إلى الرملة، وأخرى إلى بيت المقدس ليشاغلوا الروم في تلك الجهات خوفاً من دعمهم للأرطبون في أجنادين. وطال تأخر الفتح في أجنادين، وسارت الرسل بين الطرفين، ولم يشف أحدها غليل عمرو، فسار بنفسه باسم رسول، ودخل على الأرطبون، وجرى الحديث بينهما، استنتج الأرطبون على أن هذا الرسول إنما هو

عمرو بالذات أو أنه شخص ذو قيمة وأثر بين المسلمين، وقال في نفسه: ما كنت لأصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله. فدعا حرسياً فسارّه وأمره بالفتك به فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مرّ بك فاقتله، ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون: أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعت كلامي، وإني واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره. وقد أحببت أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت. فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فائتني بهم، ودعا رجلاً فسارّه فقال: اذهب إلى فلان فردّه. وقام عمرو بن العاص فرجع إلى جيشه، ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص نفسه فقال: خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب. وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: لله درّ عمرو. وحدث قتال عظيم في أجنادين كقتال اليرموك.. ثم دخل المسلمون أجنادين، وتقدموا نحو بيت المقدس.

فتح بيت المقدس: لقي المسلمون عناداً قوياً من الروم الأمر الذي جعل الجيوش الإسلامية تجتمع مرة أخرى، وولى أبو عبيدة على دمشق سعيد بن زيد، وسارت الجيوش لتحاصر بيت المقدس وتضيق على من فيها حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. أرسل أبو عبيدة إلى عمر يخبره الخبر، واستشار عمر الصحابة فأشار علي بن أبي طالب عليه بالمسير، ورأى عثمان بن عفان غير ذلك، فأخذ عمر برأي علي، وولاّه على المدينة، وسار هو إلى الشام وعلى مقدمته العباس بن عبد المطلب، واستقبله في الجابية أمراء المسلمين أبو عبيدة، وخالد، ويزيد، ومن الجابية سار عمر إلى بيت المقدس، ثم صالح النصارى، واشترط عليهم إخراج الروم خلال ثلاثة أيام، ثم دخل المسجد من حيث دخل رسول الله ﷺ يوم الإسراء، وصلى فيه مع المسلمين، ثم سار إلى الصخرة، وجعل المسجد في قبلة بيت المقدس. وبعد فتح بيت المقدس رجع كل أمير إلى مكانه.

فتح حمص ثانية: وما أن وصل أبو عبيدة إلى مركزه في حمص حتى

حاصره الروم، وقد استنفروا معهم أهل الجزيرة، وكان أبو عبيدة قد استشار المسلمين في التحصن بالمدينة أو قتال الروم خارجها، فأشاروا عليه بالتحصن إلا خالد بن الوليد الذي كان قد استقدمه من قنسرين لمساعدته ودعمه، فقد رأى قتال الأعداء خارج البناء، إلا أن أبا عبيدة رأى ما رآه بقية المسلمين، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين يعلمه الخبر. وكانت بقية بلدان بلاد الشام كل منها مشغول بما فيه، ولو جاءته نجدة من أية مدينة فلربما اختل النظام في بلاد الشام كافة. وبخاصة أن هناك جيوباً رومية كثيرة، ويختلط السكان، لذا فقد كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص في العراق يطلب منه أن يسيّر مدداً بإمرة القعقاع بن عمرو إلى حمص، وأن يبعث بعثاً بإمرة عياض بن غنم إلى بلاد الجزيرة الذين مالؤوا الروم. خرج من الكوفة جيشان أولاهما اتجه نحو حمص وقوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة القعقاع بن عمرو، والآخر اتجه نحو الجزيرة بقيادة عياض بن غنم، وفي الوقت نفسه خرج عمر بن الخطاب نفسه من المدينة لينصر أبا عبيدة. علم أهل الجزيرة أن الجيش الإسلامي قد طرق بلادهم، فتركوا حمص ورجعوا إلى أرضهم. وأخبر الروم أن أمير المؤمنين قد سار إلى الشام ليدعم حمص فانهارت معنوياتهم، وضعف أمرهم، وأشار خالد على أبي عبيدة بأن يبرز لهم ليقاتلهم فوافق، فنصر الله عباده المؤمنين على أعدائهم، ولم يصل بعد القعقاع إذا وصل إلى حمص بعد انتصار المؤمنين بثلاثة أيام، كما أن عمر بن الخطاب كان قد وصل إلى الجابية وجاءه خبر المعركة وهو فيها، وعدّ المدد بين المقاتلين ونال نصيبه من الغنائم. كما صالح أهل حلب، ومنبج، وإنطاكية.

فتح الجزيرة: أما عياض بن غنم فقد وصل إلى الجزيرة، وصالح أهل (حران)، و(الرها)، و (الرقة)، وبعث أبا موسى الأشعري إلى (نصيبين)، وعمر بن سعد بن أبي وقاص إلى (رأس العين)، وسار هو إلى (دارا)[1]

---

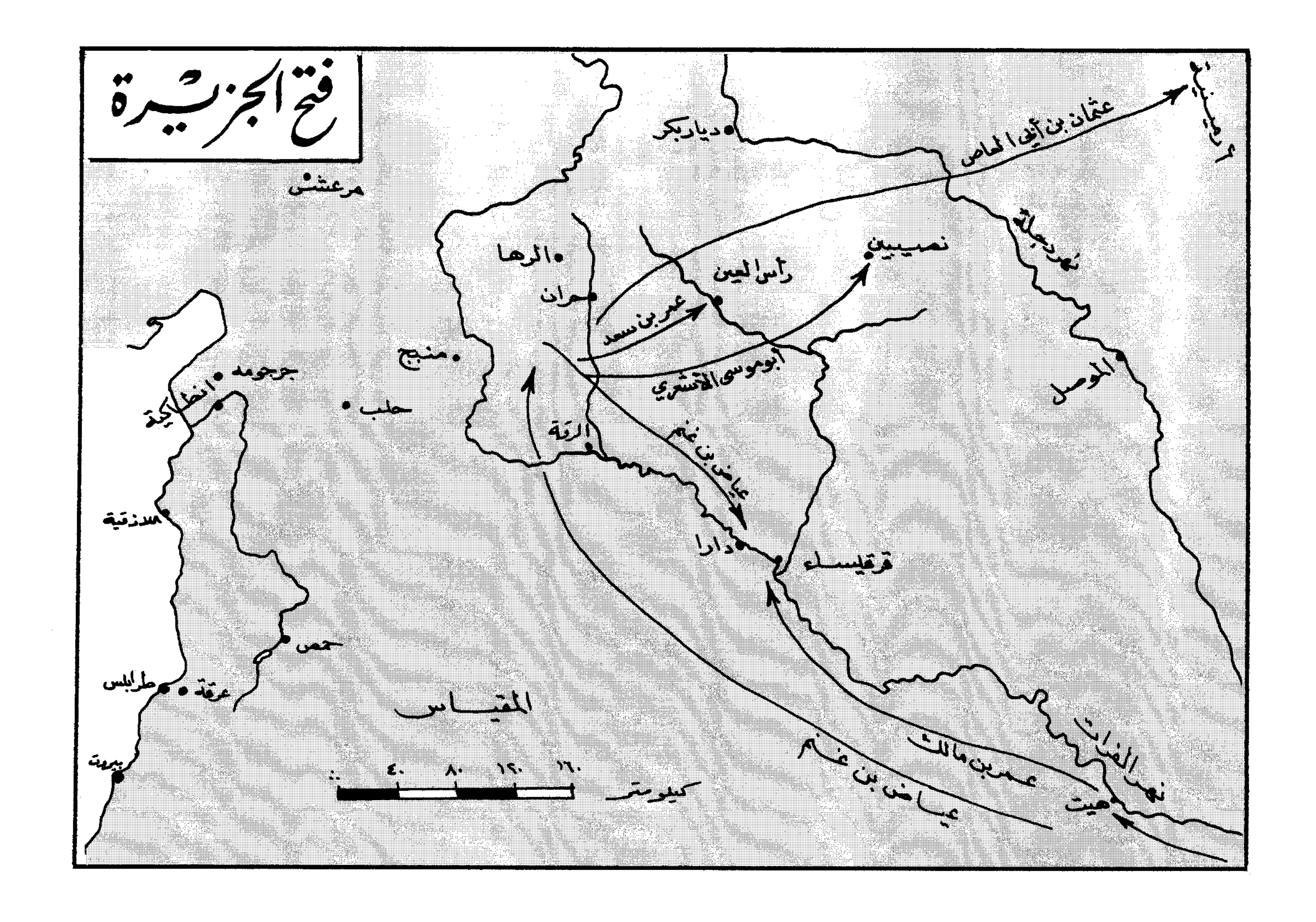
(١) دارا: مكان دير الزور اليوم، وهي قرب قرقيساء التي هي مكان البصيرة عند التقاء نهر الخابور بنهر الفرات.

ففتحت هذه المدن، كما أرسل عثمان بن أبي العاص إلى أرمينيا فحدث قتال ثم صالح عثمان أهل البلاد على جزية مقدارها دينار على كل أهل بيت.

فتح سواحل الشام: وفتحت (قرقيساء) على يد عمر بن مالك، وصالح أهل (هيت)، وكان يزيد بن أبي سفيان قد أرسل أخاه معاوية على مقدمته ففتح بناء على أوامر أبي عبيدة المدن الساحلية صور، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وعرقة[1]، وطرابلس. وبهذا أصبحت بلاد الشام كلها بيد المسلمين. إلا أن خطأ قد وقع أثناء الفتح، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليمشّطوا البلاد التي يفتحونها تمشيطاً كلياً حيث يخلونها من كل من يمكن أن يتمرد في المستقبل أو يكون عوناً للروم الذين يفكرون في استعادة بلاد الشام، ويعتقدون أنه لا تزال لهم مراكز قوة فيها، إذ أن المسلمين كما رأينا قد بدؤوا بالمناطق الداخلية التي هي مجال حركتهم، وعلى صلة بالمدينة المنورة قاعدة الحكم الإسلامي، بناءً على أوامر القيادة العامة، وحاولوا الابتعاد عن السواحل التي كانت للروم فيها قواعد بحرية، والأسطول الرومي يجوب تلك السواحل على حين لم يكن للمسلمين بعد أية قوة بحرية، فهم بالدرجة الأولى أبناء داخل وصحارى ولربما كان أكثرهم لم ير البحر بعد، ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه. وكذلك فقد تركوا الجزر الجبلية والتفوا حولها ظناً منهم أن أولئك السكان الذين كانوا على درجة من القلة لا تمكنهم من عمل شيء، لذا فإنهم ينزلون على حكم المسلمين راضين أو كارهين إضافة إلى فقر تلك الجهات، هذا، ويزيد ذلك وعورة تلك الأماكن وصعوبة مسالكها، وهذه الخطيئة نفسها تكررت في الأندلس، فكان من تلك الجزر الجبلية البلاء العظيم الذي أطاح بالمسلمين من الأندلس بعد مدةٍ طويلةٍ من الزمن، والذي لا نزال نذوق منه الويلات في بلاد الشام حتى الآن، إذ كان سكان الجبال عوناً للروم ودعماً لهم كلما

(١) عرقة: مدينة كانت تقع إلى القرب من طرابلس، وهي غير موجودة الآن.

ظهر الروم على الشواطئ الشامية، وهذا ما كان يستشعره الروم من أن لهم قوةً تعتصم في المناطق الجبلية كلما دعت الحاجة، كما أن قوةً أخرى كانت لهم، وهي أن الروم عندما أُجبروا على ترك البلاد الشامية جلت معهم بعض القبائل العربية الحليفة لهم، والمتنصّرة من غسان، وتنوخ، واياد، ولخم، وجذام، وعاملة، وكندة، وقيس، وكنانة ظناً من هذه القبائل أن الروم لا يمكنهم أن يتركوا الفاتحين الجدد في البلاد الشامية، وكان لهذه القبائل مراكزها وأنصارها في المنطقة، كل هذا كان يشجع الروم على التفكير ومحاولة استرجاع البلاد، وقد تمكن الروم فعلاً من استعادة بعض السواحل اللبنانية، ولكنهم لم يلبثوا أن طُردوا منها. ولعل من الأخطاء التي وقعت آنذاك الاستعانة بالجراجمة، وهم سكان منطقة الجرجومة وهي مدينة تقع في جبل الأمانوس (اللكام) شمال إنطاكية، وقد كانت لهم دولة مركزها مرعش، ويعتقد أنهم من بقايا الحثيين. وعندما صالح أبو عبيدة بن الجراح أهل إنطاكية همّ الجراجمة بالانتقال إلى بلاد الروم خوفاً على أنفسهم، إلا أن المسلمين لم يأبهوا بهم آنذاك، ولكن إنطاكية لم تلبث أن نقضت العهد، واضطر المسلمون إلى فتحها ثانية، وعين أبو عبيدة عليها (حبيب بن مسلمة الفهري) الذي استعد لغزو جرجومة، فاضطر أهلها لطلب الصلح، وكانوا يساعدون المسلمين أحياناً عندما يرون فيهم القوة، ولكنهم إن وجدوا في الروم قوة كاتبوهم على أن ينقضّوا على المسلمين، وهذا ما كان يشجع الروم، ويُبقي عندهم الأمل في العودة إلى بلاد الشام، ولربما كان المسلمون بحاجة إلى الجند آنذاك، وقد وجدوا في الجراجمة عنصراً محارباً ودعماً عسكرياً فاستفادوا منهم، إلا أنه لا يؤمن لهم ولا لعهودهم ما داموا لا يدينون دين الحق، ولا ينظرون إلا إلى مصالحهم، وهذا ما كان يجعلهم يقفون بجانب الروم أحياناً وبجانب المسلمين مرة أخرى، ثم توزعوا في المناطق الجبلية الغربية عوناً للروم، وبقي لهم خطر على البلاد ولأحفادهم الذين اعتقدوا عقائد غريبة حتى الآن.


فتح الجزيرة
مرعش
ديار بكر
الرها
حران
رأس العين
نصيبين
نهر دجلة
الموصل
منبج
جرجومه
انطاكية
حلب
الرقة
عمر بن سعد
أبو موسى الأشعري
عياض بن غنم
عثمان بن أبي العاص
دارا
قرقيسياء
اللاذقية
حمص
طرابلس
عرقة
بيروت
المقياس
كيلومتر
٤٠
٨٠
١٢٠
١٦٠
عمر بن مالك
عياض بن غنم
نهر الفرات
هيت

فتح مصر: لما انتهى فتح المسلمين لبلاد الشام، وانتهى عمرو بن العاص من فتح فلسطين، طلب عمرو بن العاص من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السير إلى مصر للفتح، فوافق عمر، وسيّره إليها، ثم أمده بالزبير بن العوام، ومعه بسر بن أرطأة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي، فالتقوا مع أهل مصر عند باب مصر، ولقيهم أبو مريم، ومعه الأسقف أبو مريام وقد بعثه المقوقس من الإسكندرية، فدعاهم عمرو بن العاص إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وأمهلهم ثلاثة أيام، فطلبوا منه أن يزيد المدة فزادها لهم يوماً واحداً، ثم نشب القتال، فهُزم أهل مصر، وقتل منهم عدد كبير، منهم الأرطبون الذي فرّ من بلاد الشام إلى مصر، والذي أجبر أهل مصر على المقاومة، وحاصر المسلمون عين شمس، وارتقى الزبير بن العوام السور، فلما أحس السكان بذلك انطلقوا باتجاه عمرو على الباب الآخر، إلا أن الزبير كان قد اخترق البلد عنوة، ووصل إلى الباب الذي عليه عمرو، فصالحوا عمراً، وأمضى الزبير الصلح، وقبل أهل مصر كلهم الصلح، إذا كان عمرو بن العاص قد وجه عبد الله بن حذافة إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل صلح الفسطاط.

ثم أرسل عمرو جيشاً إلى الإسكندرية حيث يقيم المقوقس، وحاصر الجيش المدينة، واضطر المقوقس إلى أن يصالح المسلمين على أداء الجزية، واستخلف عمرو بن العاص عليها عبد الله بن حذافة. وأُنشئت مدينة الفسطاط مكان خيمة عمرو حيث بني المسجد الذي ينسب إليه الآن، وأقيمت البيوت حوله.

وأَرسل عمرو قوة إلى الصعيد بإمرة عبد الله سعد بن أبي سرح بناءً على أوامر الخليفة ففتحها، وكان الوالي عليها، كما أرسل خارجة بن حذافة إلى الفيوم وما حولها ففتحها وصالح أهلها، وأرسل عمير بن وهب الجمحي إلى دمياط، وتنيس وما حولهما فصالح أهل تلك الجهات.

ثم سار عمرو بن العاص إلى الغرب ففتح برقة، وصالح أهلها،

وأرسل عقبة بن نافع ففتح (زويلة)، واتجه نحو بلاد النوبة، ثم انطلق عمرو إلى طرابلس ففتحها بعد حصار دام شهراً، كما فتح (صبراته)، و (شروس) ومنعه عمر بن الخطاب أن يتقدم أكثر من ذلك إلى جهة الغرب.

٢ ـ الجبهة الشرقية: كان الفرس على خلاف فيمن يحكمهم، كما كان الحكام على خلاف فيما بينهم، فلما غادر خالد بن الوليد العراق إلى الشام شعر الفرس بقلة من بقي من جند المسلمين هناك، فأرادوا النيل منهم، وطردهم من أرض العراق، فأرسل شهريار مالك الفرس جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل إلى المثنى بن حارثة الشيباني قائد جند المسلمين، إلا أن الفرس قد هُزموا هزيمةً منكرةً أيضاً.

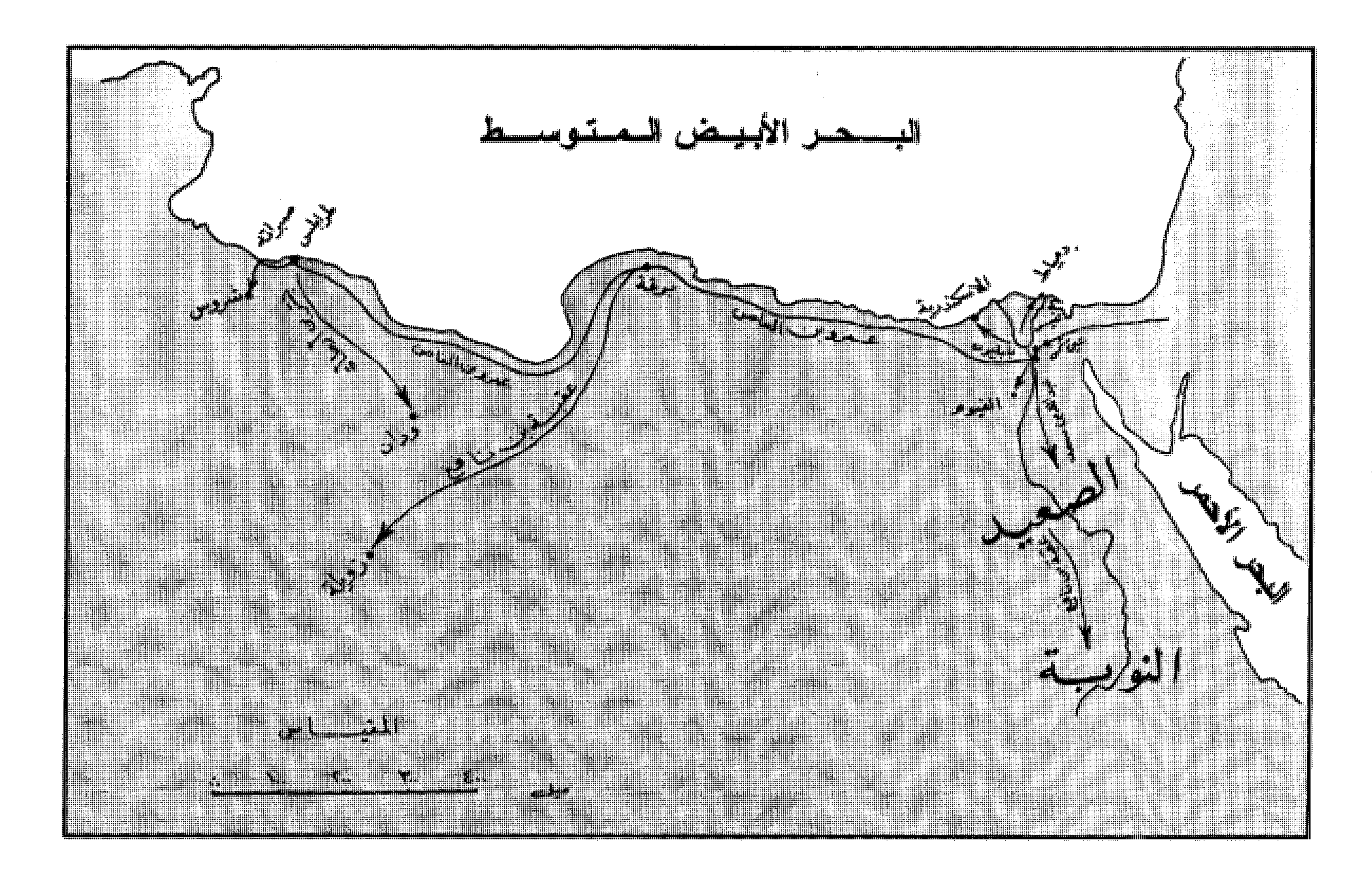
طلب المثنى بن حارثة المدد من المدينة، إلا أن أخبار الصديق قد تأخرت عليه لانشغاله بقتال الشام الأمر الذي جعل المثنى يسير بنفسه إلى المدينة، وقد خلّف وراءه على المسلمين بشير بن الخصاصية، فلما وصل المثنى إلى قاعدة الحكم وجد أبا بكر في آخر عهده، وقد استخلف عمر من بعده. فلما رأى أبو بكر المثنى قال لعمر: إذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى، وإذا فتح الله على أمرائنا بالشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أعلم بحربه. فلما مات الصديق ندب عمر المسلمين إلى الجهاد في أرض العراق، وأمر على المجاهدين أبا عبيد بن مسعود الثقفي حيث كان أول من لبى النداء، ولم يكن من الصحابة، مع العلم أن عمر لم يكن ليولي إلا من كان صحابياً، وعندما سئل في هذا الأمر أجاب: إنما أؤمر أول من استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإن هذا هو الذي استجاب قبلكم، ثم دعاه فوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً. وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ، وسار المجاهدون إلى العراق.

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الوقت نفسه إلى أبي عبيدة في الشام أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد بن الوليد إلى العراق، فسيّرهم أبو عبيدة بعد فتح دمشق بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.

وأرسل عمر أيضاً مدداً آخر بقيادة جرير بن عبد الله البجلي قوامه أربعة آلاف، فسار باتجاه الكوفة، والتقى بقائد فارس فهزمه شر هزيمة، وسقط أكثر جند الفرس في النهر.

معركة النمارق: بعث رستم جيشاً لقتال أبي عبيد فالتقى الطرفان في النمارق بين الحيرة والقادسية، وكان على خيل المسلمين المثنى بن حارثة، فهُزم الفرس، وولّوا الأدبار، وساروا إلى (كسكر) فلحقهم أبو عبيد، ثم هزمهم ثانيةً بعد أن جاءتهم قوة داعمة لنصرتهم، وفرّ الفرس إلى المدائن.

معركة الجسر: بعد أن هزم الفرس في النمارق وما بعدها اجتمعوا إلى رستم، فأرسل جيشاً كثيفاً ومعهم راية (كسرى)، وراية (أفريدون) التي تسمى (الدرفس)، وسار هذا الجيش نحو المسلمين فالتقوا، وبينهم جسر، فقال الفرس: إما أن تعبروا إلينا، أو نعبر إليكم، فقال المسلمون لأبي عبيد: امرهم أن يعبروا إلينا، فقال أبو عبيد: ما هم أجرأ منا على الموت بل نعبر إليهم ثم اقتحم الجسر إليهم، وجرت معركة عنيفة بين الطرفين. وكانت فيلة الفرس تؤذي المسلمين حيث تخافها خيولهم الأمر الذي جعل أبا عبيد يأمر المسلمين بقتل الفيلة فقتلوها وكان بين الفيلة قبل عظيم هجم عليه أبو عبيد، فضرب خرطومه، فاستدمى الفيل، وصرخ، وقتل أبا عبيد، وبرك فوقه، وقتل القادة الذين تولوا أمر المسلمين بعد أبي عبيد، حتى جاء دور المثنى بن حارثة في الإمارة، وكان قد ضعف أمر المسلمين، وأرادوا التراجع، وعبر بعضهم الجسر، ولتزاحمهم عليه تحطم، الأمر الذي جعل ظهور المسلمين للفرس، وبدأ القتل فيهم حتى عظم، فقتل منهم من قتل، وغرق من غرق. فجاء المثنى ووقف عند مدخل الجسر يحمي المسلمين ليقطعوا الطريق ببطء فأصلحوا الجسر وعبروا خلاله، حتى انتهوا، والمثنى وشجعان المسلمين يحمونهم. وقد وقعت هذه المعركة بعد معركة اليرموك بأربعين يوماً أي في شهر شعبان في السنة الثالثة عشرة للهجرة، واختلف الفرس ثانية على الحكم إذ خلعوا رستم، ثم عادوا فولوه، وأضافوا إليه الفيرزان، وسار الفرس إلى المدائن فلحقهم المثنى، وهزم من اعترض


البحر الأبيض المتوسط
صبراتة
طرابلس
برقة
الإسكندرية
دمياط
الفيوم
ودان
زويلة
الصعيد
النوبة
البحر الأحمر
القياس
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠
ميل

سبيله منهم، وأسر عدداً كبيراً ضرب أعناقهم، وطلب النجدة والمدد من أمراء المسلمين، فوافوه، كما كان قد وصل إليه جرير بن عبد الله البجلي ومن معه.

معركة البويب: لما علمت الفرس باجتماع عدد من جيوش المسلمين بعثت جيشاً كثيفاً، والتقى الطرفان في مكان يقال له (البويب) قرب الكوفة، وطلبت الفرس أن يعبر المسلمون إليهم، أو يعبرون هم إلى المسلمين، فأجاب المثنى بأن يعبر الفرس، فعبر الفرس، وجرت معركة عنيفة هُزمت فيها المجوس، وقتل منهم عدد كبير قتلاً وغرقاً في النهر، وكانت هذه المعركة عظيمة إذ اقتص فيها المسلمون من معركة الجسر، ونالوا غنائم عظيمة، وقتل فيها قائد الفرس مهران، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة.

وبعد معركة البويب التي أقضت مضاجع الفرس اجتمع أمراؤهم على تمليك يزدجرد بن شهريار بن كسرى، واتفقوا على ذلك فيما بينهم، وأرسلوا بالخبر إلى أتباعهم في الأمصار كافة، الأمر الذي جعل المجوس، وأنصارهم الذين صالحوا المسلمين، وأظهروا الطاعة ينقضون العهد. وأخبر المسلمون بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

حث عمر بن الخطاب المسلمين على الجهاد وخرج بنفسه على رأس الجيش من المدينة بعد أن ولّى مكانه علي بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان، وسادات الصحابة حتى وصل إلى ماء يقال له (الصرار) فعقد مجلساً استشارياً في الذهاب، وقد أرسل إلى علي أن يأتي من المدينة، فكلهم وافقه على رأيه إلا عبد الرحمن بن عوف فإنه قال له: إني أخشى إن كسرت أن تضعف أمر المسلمين في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث رجلاً وترجع إلى المدينة، فمال عمر إلى هذا الرأي، ووقع الاختيار على سعد بن أبي وقاص قائداً للجيش، فأوصاه، وكتب إلى المثنى بن حارثة، وجرير بن عبد الله البجلي في إطاعة سعد، كما أصبح جميع أمراء العراق تبعاً له، ولكن المثنى قد توفي قبل وصول سعد إذ انتقض عليه جرحه الذي أصابه يوم الجسر.

اجتمع المسلمون في القادسية حسبما واعدهم سعد بن وقاص بناء على أوامر الخليفة عمر بن الخطاب، كما طالب الخليفة أن يكون على القضاء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، والقاص سلمان الفارسي، وكان في الجيش أكثر من ثلاثمائة من الصحابة، بينهم أكثر من سبعين من أهل بدر.

ولما بلغ سعد ماء العذيب اعترضه جيش للفرس، فهزمه، وغنم منه غنائم كثيرة. ويبدو من هذه المعارك أن المسلمين كانوا يتوغلون في أعماق العدو دون تطهير كامل للمناطق الخلفية مما يجعل الفرس يستطيعون تحريك جيوشهم إلى قرب أماكن المعارك الأولى.

معركة القادسية: ثم سار سعد حتى نزل القادسية، فمكث فيها شهراً لم ير فيه أثراً للفرس، وكان يبث سراياه في كل الجهات، فكانت تأتيه بالغنائم الأمر الذي جعل الفرس وحلفاءهم يتضايقون جداً، وأخبروا ملكهم (يزدجرد) بأنه إن لم ينجدهم فإنهم سيضطرون إلى تسليم ما بأيديهم إلى المسلمين أو يصالحونهم، وهذا ما جعل (يزدجرد) يدعو رستم، ويؤمّره على الحرب بجيشٍ كثيفٍ، وقد حاول رستم أن يعفيه الملك من ذلك، وأبدى الأعذار بأن إرسال جيش كثيف واحد إلى المسلمين فيه شيء من الخطأ، وإنما من الصواب أن يرسل جيشاً إثر آخر لإضعاف المسلمين، إلا أن الملك قد أصر على إرساله بهذا الجيش اللجب الذي يبلغ قوامه مائة وعشرين ألفاً، ويكون مثلها مدداً لها.

سار رستم وعسكر بساباط، وكان سعد يكتب في كل يوم إلى الخليفة حسب أوامره إليه، ولما اقترب رستم من المسلمين بعث إليه سعد جماعة من سادات المسلمين يدعونه إلى الله عز وجل وكان بينهم: النعمان بن مقرن، والمغيرة بن شعبة، والأشعث بن قيس، وفرات بن حبان، وعطارد بن حاجب، وحنظلة بن الربيع، وعمرو بن معد يكرب. فقال لهم رستم: ما أقدمكم؟ فقالوا: جئنا لموعود الله إيانا، أخذ بلادكم، وسبي نسائكم وأبنائكم، وأخذ أموالكم، ونحن على يقينٍ من ذلك. وقد تأخر رستم في الخروج من المدائن للقاء سعد في القادسية مدة أربعة أشهر عسى

أن يضجر سعد ومن معه من المسلمين، كما أن رستم كان يعتقد أن النصر سيكون حليف المسلمين لما يرى ويسمع عن معاركهم وأخلاقهم. وقد ضعفت معنويات رستم ومن معه بعد أن سمعوا كلام الوفد، وما فيه من ثقةٍ بالله ويقينٍ بالنصر.

ولما اقترب الجيشان طلب رستم من سعد أن يبعث له رجلاً عاقلاً عالماً يجيبه عن بعض أسئلته، فأرسل له سعد المغيرة بن شعبة. فقال له رستم: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إن ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ. فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، فقال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً، قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضاً، وأي شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم، قال: وحسن أيضاً؛ ثم قال رستم: أرأيتم إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: وحسن أيضاً: وإن هذا الحديث قد زاد إلى إضعاف معنويات رستم والفرس، وزاد يقينهم في انتصار المسلمين، وزادت قناعتهم بهذا الدين الجديد حتى إن رستم قد ذاكر وجهاء قومه في الدخول في الإسلام، فأنفوا وأبوا فأخزاهم الله.

وحاول رستم والفرس أن يلجؤوا إلى طريق الإغراء فزينوا مجلس رستم بالنمارق المذهبة والحرير، وأظهروا اللآلئ والياقوت والأحجار الكريمة الثمينة، وزينوا الزينات العظيمة، وجلس رستم على سرير واسع من الذهب، وعليه تاج مرصع، ثم طلب رستم ثانية من سعد إرسال رجل

آخر، فأرسل إليه ربعي بن عامر، فسار إليه بثياب صفيقة، وأسلحة متواضعة، وفرس صغيرة، ولم يزل راكبها حتى داست على الديباج والحرير، ثم نزل عنها وربطها في قطع من الحرير مزقها مما رأى أمامه، وأقبل على رستم وعليه سلاحه الكامل، فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فنقلوا ذلك لرستم فقال: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق أكثرها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله؟ قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا! ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

وبعث الفرس في اليوم الثاني يطلبون رجلاً آخر يديدون أن يعرفوا نماذج من المسلمين، فهل كلهم على هذا اليقين وهذا الرأي؟ علهم يجدون ثغرة يستطيعون أن ينفذوا منها، فبعث إليهم سعد بن أبي وقاص رجلاً آخر هو حذيفة بن محصن، فتكلم على النحو الذي تكلم فيه ربعي بن عامر.

وتكرر الطلب في اليوم الثالث فأرسل إليهم سعد ثالثاً هو المغيرة بن شعبة. فقال رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخول أرضنا مثل الذباب رأى العسل. فقال: من يوصلني إليه وله درهمان؟ فلما سقط عليه غرق فيه، فجعل يطلب الخلاص فلم يجده، وجعل يقول: من يخلصني وله أربعة دراهم؟ ومثلكم كمثل ثعلب ضعيف دخل حجراً في كرم، فلما رآه صاحب الكرم ضعيفاً رحمه فتركه، فلما سمن أفسد شيئاً كثيراً فجاء صاحب الكرم بجيشه، واستعان عليه بغلمانه فذهب ليخرجه فلم يستطع لسمنه فضربه حتى قتله، فهكذا تخرجون من بلادنا، ثم ازداد غضباً وحمقاً، وأقسم بالشمس لأقتلنكم غداً.

فقال المغيرة: ستعلم. فقال رستم للمغيرة: قد أمرت لكم بكسوة ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب وتنصرفون عنا.

فقال المغيرة: أبعد أن أوهنا ملككم وضعفنا عزكم، ولنا مدة نحو بلادكم، ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون وستصيرون لنا عبيداً على رغمكم؟

كان سعد بن أبي وقاص مريضاً لا يستطيع الركوب، لذا فقد جلس في القصر متكئاً على صدره فوق وسادة ينظر إلى الجيش يدبر أمره ويصدر تعليماته، وقد أعطى القيادة إلى خالد بن عرفطة، وكان على الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح.

بدأت المعركة بعد الظهيرة وبعد أن صلى سعد الظهر بالناس، وخطب فيهم وحثهم على القتال، واستمر القتال حتى الليل، ثم استؤنف في اليوم الثاني ولمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع اشتد أثر الفيلة الفارسية على الجيش إذ كانت الخيول تنفر منها الأمر الذي جعل الصحابة يوجهون اهتمامهم إليها حتى قتلوها مع من عليها، وقد أبلى جرير بن عبد الله البجلي، والقعقاع بن عمرو، وطليحة الأسدي، وعمرو بن معد يكرب، وخالد بن عرفطة، وضرار بن الخطاب بلاء كبيراً، إذ كانوا يقلعون عيون الفيلة فتشرد بمن عليها، ثم تقتل، ويقتل أصحابها، فلما كان الزوال من

ذلك اليوم الذي عرف بالقادسية وهو الاثنين الرابع عشر من شهر محرم من السنة الرابعة عشرة هبت ريح شديدة على الفرس فأزالت خيامهم وما كان منهم إلا الهرب. وقد قتل القعقاع بن عمرو التميمي وهلال بن علقمة التميمي رستم قائد الفرس، وفرّت جماعة منهم، ولحقهم المسلمون حتى دخلوا وراءهم مدينة المدائن مركز الحكم ومقر يزدجرد بن شهريار. وقد قتل من الفرس في اليوم الرابع عشرة آلاف ومثلهم في الأيام السابقة، فكان مجموع القتلى عشرين ألفاً، وهو ما يقرب من ثلثي الجيش الفارسي، واستشهد من المسلمين في الأيام كلها ألفاً وخمسمائة شهيد، وغنم المسلمون غنائم كبيرة جداً، وأرسلت البشارة إلى أمير المؤمنين الذي كان في غاية الاهتمام بالمعركة حتى كان يخرج وحده أحياناً إلى خارج المدينة يسأل الركبان، ويتقصى الأخبار حتى جاءه النبأ. وكانت المناطق التي فيها خالد بن الوليد من قبل قد نقضت العهد، فلما كانت معركة القادسية رجع أهلها إلى عهودهم، وادعوا أن الفرس قد أجبروهم على ذلك النقض.

ثم تقدم المسلمون بإمرة زهرة بن حوية أميراً إثر أمير نحو المدائن فالتقوا بجيش فارسي فهزموه، واتجه المنهزمون نحو بابل، وانطلقت جماعة أخرى نحو نهاوند، فأقام سعد في بابل عدة أيام، ثم سار نحو المدائن، فالتقى بجيشٍ آخر من الفرس فهزمه، وفي ساباط التقى بكتائب أخرى ليزدجرد أصابها كلها ما أصاب سابقتها، وقتل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص أسد يزدجرد الذي وضع في الطريق لإخافة المسلمين، وكان ذلك في نهاية السنة الرابعة عشرة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

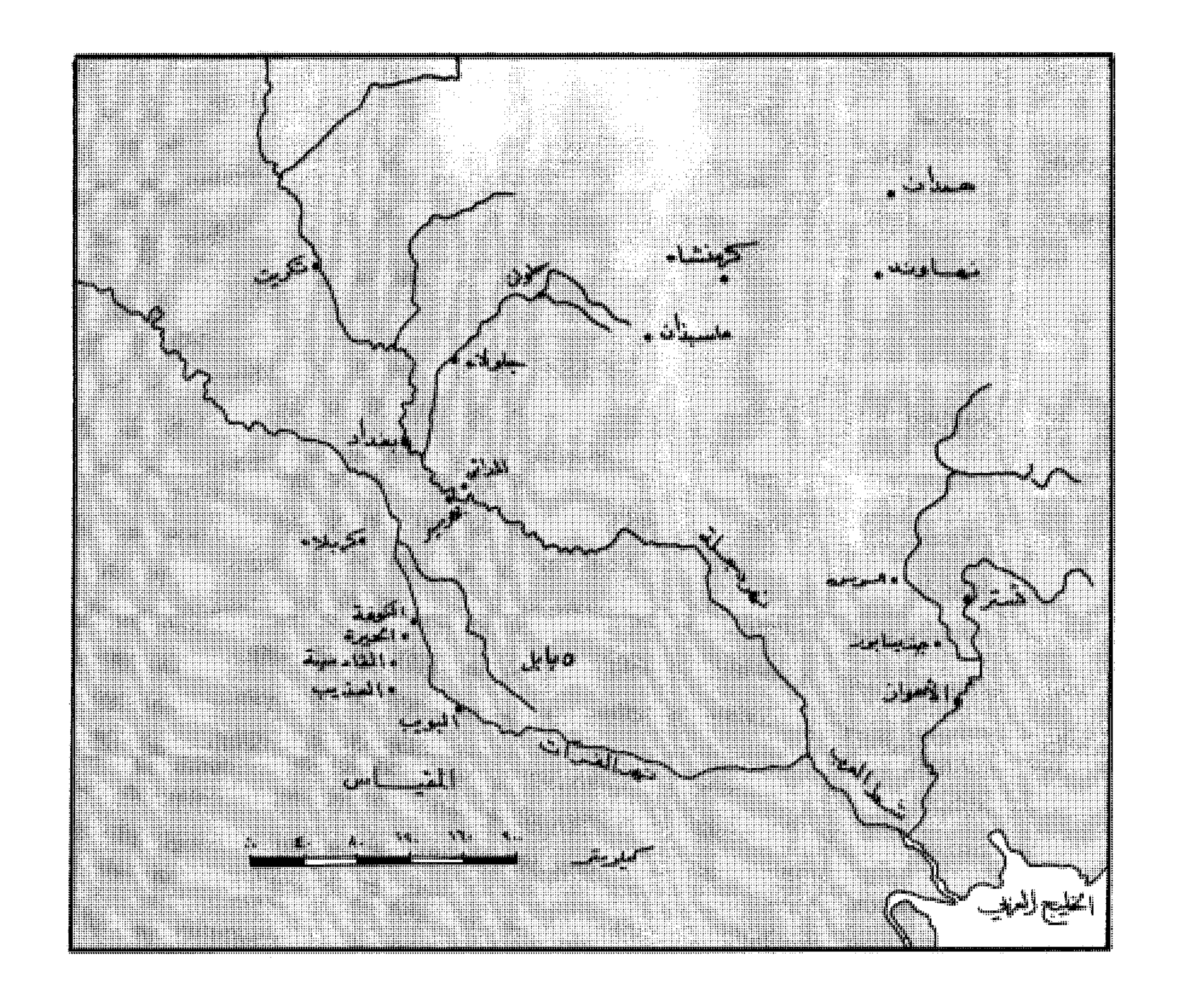
وتحصن الفرس في (بهرسير) وهي قرية من المدائن لا يفصل بينها سوى نهر دجلة بعد أن هزموا أمامها، إلا أن حصارهم لم يهن من عزيمة المسلمين، وكان أن فرّ الفرس إلى المدائن، وسار المسلمون وراءهم، فلما اقتربوا منها لاح لهم القصر الأبيض قصر كسرى. وكان المسلمون قد قطعوا نهر دجلة، وكان في حالة فيضان كبير الأمر الذي جعل الفرس يخافون لقاء المسلمين ويهابونهم.

فتح المدائن: ودخل المسلمون المدائن فلم يجدوا بها أحداً بل فرّ أهلها كلهم مع الملك سوى بضعة من المقاتلة بقوا في القصر الأبيض، فدعاهم سلمان الفارسي، رضي الله عنه، ثلاثة أيام، نزلوا بعدها منه، وسكنه سعد، وجعل الإيوان مصلى وتلا حين دخوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، كما صلى الجمعة في الإيوان وذلك في شهر صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة. وأقامت أسر المسلمين في المدائن حتى فتح الله عليهم جلولاء، وتكريت، والموصل، وبعدها تحولت الأسر إلى الكوفة. وأرسل سعد السرايا تتعقب الفارين فحصلت هذه السرايا على غنائم كثيرة لم يستطع الفارون حملها فتركوها وأكثرها من ثياب كسرى ولباسه. وقد خمّس سعد الغنائم، وبعث بها إلى المدينة مع بشير بن الخصاصية، وفيها بساط كسرى، وتاجه، وسواريه، فلما رآها عمر، رضي الله عنه، قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء، فقال له علي، رضي الله عنه: إنك عففت فعفت رعيتك ولو رتعت لرتعت.

فتح جلولاء: فرّ يزدجرد من المدائن، وسار باتجاه حلوان، والتف حوله أثناء سيره عدد كثير من الفرس، فأمر عليهم مهران، وأقاموا بجلولاء، وقد تحصّنوا بها، وحفروا الخنادق حولها، فبعث سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فأمره أن يقيم هو بالمدائن وأن يرسل إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وأن يكون على المقدمة القعقاع بن عمرو التميمي، وعلى الميمنة سِعْر بن مالك، وعلى الميسرة عمر بن مالك، وعلى المؤخرة عمرو بن مرة الجهني، ففعل، فسار هاشم وحاصرهم، واشتد القتال، وكانت تصل النجدات إلى الطرفين، وأخيراً فتح الله على المسلمين جلولاء، وقد قتلوا من الفرس الكثير حتى

---

(١) سورة الدخان: الآيتان ٢٥ ـ ٢٩.


همدان
نهاوند
كرمنشاه
ماسبذان
حلوان
جلولاء
تكريت
بغداد
كربلاء
الكوفة
الحيرة
القادسية
العذيب
البويب
بابل
نهر الفرات
السوس
تستر
جنديسابور
الأهواز
الخليج العربي

تجللت بجثثهم الأرض، وبرز من الأبطال في هذه المعركة القعقاع بن عمرو، وعمرو بن معد يكرب، وحجر بن عدي، وقيس بن مكشوح، وطليحة الأسدي.

فتح حلوان: وبعث هاشم في أثر الفرس المنهزمين القعقاع بن عمرو فكانوا يفرون من وجهه، وقد غنم الكثير أثناء تحركاته تلك. وقد كانت غنائم جلولاء لا تقل عن غنائم المدائن. وقد أدرك القعقاع مهران وقتله، ونجا الفيرزان فسار إلى حلوان، وأخبر يزدجرد فترك المدينة بعد أن ترك عليها قائداً، وسار هو إلى الري (طهران اليوم)، وسار القعقاع إلى حلوان فانتصر على حاميتها ودخلها.

فتح تكريت والموصل: في الوقت الذي سار فيه هاشم بن عتبة إلى جلولاء سار أيضاً إلى تكريت عبد الله بن المعتم على رأس جيش بأمر الخليفة أيضاً، فلما وصل إلى تكريت وجد فيها جماعة من الروم، ومن نصارى العرب، من إياد، وتغلب، وعدداً من أهل الموصل فحاصرهم أربعين يوماً نازلهم خلالها أربعاً وعشرين مرة، وانتصر فيها كلها، ثم دخل المدينة عنوة، وقد قتل جميع من فيها سوى من أسلم من الأعراب. وسار ربعي بن الأفكل بعدها إلى الموصل، واضطر أهلها إلى الصلح والتسليم، وفُرضت عليها الجزية.

فتح ماسبذان: بلغ سعداً أن جماعة من الفرس قد تجمعت في ماسبذان الواقعة على يمين حلوان على الطريق إلى همدان، فأخبر بذلك أمير المؤمنين فطلب منه أن يرسل لهم جيشاً بإمرة ضرار بن الخطاب الفهري، ففعل وانتصر عليهم، وهرب أهل ماسبذان إلى رؤوس الجبال، فدعاهم ضرار فاستجابوا له، ومنهم من أسلم، ومنهم من لم يسلم، فوضع عليه الجزية.

فتح الأهواز: تغلب الهرمزان على منطقة الأهواز، وهو من أحد بيوتات فارس المشهور وكان من الذين فروا من القادسية، وأصبح يغير على المناطق التي دانت لحكم المسلمين، فسار إليه جيشان من المسلمين،

انطلق أحدهما من الكوفة من قبل واليها عتبة بن غزوان، وسار الثاني من البصرة من قبل حاكمها أبي موسى الأشعري، وانتصر المسلمون عليه، وهذا ما أجبره على طلب الصلح، فأعطوه ذلك. ثم نقض الهرمزان الصلح بعد أن استعان بجماعة من الكرد، فبرز إليه المسلمون فهزموه فتحصن في تستر (ششتر اليوم)، إلا أن أهل المنطقة قد صالحوا المسلمين عندما رأوا إصلاح بلادهم، ودفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهذا ما جعل الهرمزان يطلب الصلح ثانية، ويصالح على عدد من المدن منها (تستر) و (جنديسابور)، وكان حرقوص بن زهير قد فتح سوق الأهواز. ثم نقض الهرمزان الصلح ثانيةً بناءً على تحريض يزدجرد، وبلغ الخبر عمر، فأمر أن يسير إليه جيش من الكوفة بإمرة النعمان بن مقرن، وكانت الكوفة مقر سعد بن أبي وقاص، كما أمر أن يسير جيش آخر من البصرة بإمرة سهيل بن عدي، وأن يكون على الجميع أبو سبرة بن أبي رهم، فالتقى النعمان بالهرمزان فهزمه، ففر إلى تستر فسار إليه سهيل بن عدي، كما لحقه النعمان، فحاصروه هناك، وكان أمير الحرب أبو سبرة بن أبي رهم ابن عمة رسول الله ﷺ، وقد وجد أن مع الهرمزان عدداً كبيراً من المقاتلين، فكتبوا بذلك إلى أمير المؤمنين، فطلب من أبي موسى الأشعري أن يذهب إليهم مدداً، فسار نحوهم، وحاصروا الفرس، واضطروهم إلى الاستسلام بعد فتح البلد عنوة، ولجأ الهرمزان إلى القلعة، فحاصروه، وأجبروه على الاستسلام، وأرسلوه إلى عمر بن الخطاب بالمدينة مع وفد فيه الأحنف بن قيس، وأنس بن مالك.

ثم سار أبو سبرة بن أبي رهم في قسم من الجيش، ومعه أبو موسى الأشعري، والنعمان بن مقرن، واستصحبوا معهم الهرمزان، وساروا حتى نزلوا (السوس) فحاصروها، وكتب إلى أمير المؤمنين بذلك، فأجابهم بأن يرجع أبو موسى الأشعري إلى البصرة، وأن يسير زر بن عبد الله بن كليب إلى جنديسابور، فسار، وبعث أبو سبرة بالخمس وبالهرمزان إلى المدينة، ولما وصل الوفد بالهرمزان إلى المدينة اتجه إلى بيت أمير المؤمنين، فقيل

لهم: إنه بالمسجد للقاء وفد الكوفة، فانطلقوا إلى المسجد، فلم يروا فيه أحداً، ولما هموا بالعودة قال لهم غلمان يلعبون أمام المسجد: إنه نائم في زاوية المسجد، فانطلقوا فوجدوه نائماً، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فأشاروا إليه، وقد دهش لعدم وجود الحرس والحجاب كما اعتاد أن يرى في ملوك فارس وأكاسرتها.

وفُتحت السوس عنوة بعد حصار حتى طلب أهلها الصلح، وكذلك فقد فتح زر بن عبد الله جند يسابور.

وتقدم المسلمون في بلاد فارس أيام عمر بن الخطاب من جهة ثانية، فقد كان العلاء بن الحضرمي والي البحرين يسابق سعد بن أبي وقاص في الفتح، فلما كتب الله النصر لسعد في القادسية، وكان له ذلك الصدى الواسع، أحب العلاء أن يكون له النصر على فارس من جهته، فندب الناس إلى الجهاد ضد فارس، فاجتمع الجيش وعبر العلاء بن الحضرمي البحر إلى فارس من جهته وذلك دون إذن أمير المؤمنين، اتجه العلاء نحو اصطخر، إلا أن الفرس قد حالوا بين المسلمين وسفنهم، فوجد المسلمون أنفسهم بين العدو والبحر، فعملوا جهدهم وقاتلوا بقوة فنصرهم الله على عدوهم، ثم خرجوا يريدون البصرة، فلم يجدوا سفنهم، كما رأوا أن الفرس قد قطعوا عنهم الطرق، فاضطروا إلى البقاء محاصرين، ووصل الخبر إلى عمر بن الخطاب، فتأثر جداً، وأمر بعزل العلاء، وطلب منه الالتحاق بسعد بن أبي وقاص، وطلب من عتبة بن غزوان أن ينجد العلاء، فأرسل قوة بإمرة أبي سبرة بن أبي رهم، ومعه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعاصم بن عمرو، والأحنف بن قيس، وحذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة، وكان عدد هذه القوة اثنا عشر ألفاً، وسارت هذه القوة حتى وصلت إلى مكان حصار المسلمين، وكاد القتال أن ينشب بين المحاصرين والفرس، فجاءت القوة في الوقت المناسب، وانتصر المسلمون انتصاراً رائعاً، ثم عاد الجميع إلى عتبة بن غزوان في البصرة.

وتجمع الفرس في مدينة نهاوند، وكان أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب لا يريد أن ينساح المسلمون في بلاد فارس الواسعة خوفاً عليهم من ضياعهم فيها، وخوفاً عليهم من الفرس، واستمر ذلك مدة حتى وصل إليه الأحنف بن قيس في الوفد الذي يسوق الهرمزان معه، فسأل عمر الأحنف بن قيس عن الأحوال، وكان عمر يخشى أن يكون المسلمون يحيفون على أهل الذمة الأمر الذي يجعلهم ينقضون العهد، فقال عمر: لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم، فأجاب: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة، قال: فكيف هذا؟ فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا، وإن ملك فارس حي بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان يتفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه: وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيل ملكهم عن فارس، ونخرجه عن مملكته وعزّ أمته: فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال عمر: صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه.

وجاءت الأخبار إلى عمر بن الخطاب أن الفرس قد تجمعوا في نهاوند، وهذا ما جعله يأمر بالانسياح في أرض فارس، وقد رغب أن يسير هو بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس، إلا أنه عندما استشار الصحابة رأوا غير ذلك، فعدل عن رأيه، وكان الذي أقنعه بذلك علي بن أبي طالب، فكتب إلى حذيفة بن اليمان أن يسير بجند الكوفة، وإلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجند البصرة، وإلى النعمان بن مقرن أن يسير بجنده، فإذا التقوا فكل على جنده أميراً، وعلى الجميع النعمان بن مقرن فإن قتل فقيس بن مكشوح و. . . حتى سمى عدة أمراء.

وسار المسلمون نحو نهاوند ولا يزيد عددهم على الثلاثين ألفا إلا قليلاً، وكان قد تجمع فيها من الفرس ما يزيد على المائة والخمسين ألفاً، وكانت المعارك سجالا بين الطرفين مدة يومي الأربعاء والخميس، ثم انتصر

المسلمون على أعدائهم الأمر الذي جعل الفرس يدخلون المدينة ويتحصنون فيها، فحاصرهم المسلمون، ولما طال الحصار استشار النعمان رجاله فأشاروا عليه بالتراجع أمامهم حتى إذا ابتعدوا من حصونهم انقضوا عليهم، فوافق النعمان على ذلك، وأمر القعقاع أن يبدأ القتال مع الفرس وأن يتراجع أولهم ففعل فلحقه الفرس. وعندما ابتعدوا من حصونهم بدأ النعمان بالقتال ونشبت معركة حامية قتل فيها من الفرس أكثر من مائة ألف رجل، وتجلل وجه الثرى بالجثث، وسقط النعمان عن فرسه واستشهد، ولم يعلم بذلك سوى أخيه نعم، فأخفى ذلك، وأخذ الراية وسلمها لحذيفة بن اليمان فقاد المعركة إلى النهاية، وبانتهائها أعلم نعيم الجند عن مصرع قائدهم النعمان. أما قائد الفرس الفيرزان فقد فر، ولحقه القعقاع وقتله عند ثنية همدان، ودخل المسلمون نهاوند عنوة، ثم فتحوا أصبهان (جي). وفتح أبو موسى الأشعري (قم)، وقاشان، وفتح سهيل بن عدي مدينة (كرمان). ولما وصلت أخبار نهاوند إلى عمر بن الخطاب بكى بكاء مريراً على شهدائها، وكلما ذكر له شهيد زاد بكاؤه، ولما وصلوا إلى ذكر أسماء لا يعرفها بكى وقال: وما ضرهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين؟ لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر.

ولعل المرء يستطيع هنا أن يقف وقفة على اختيار عمر للأمراء وقادة الجند، وصحيح أنه كان لا يختار إلا الصحابة، إلا أنه في الوقت نفسه كان يعين الجندي أميراً ثم لا يلبث أن يضع أميراً عليه ويعيده جندياً يقاتل تحت راية من كان بالأمس يقاتل تحت رايته، وذلك حتى لا ترتفع بإنسان نفس، وكي يشعر دائماً بالتواضع ويعرف مكانه الحقيقي، وأن قتاله إنما هو لله، وكذلك يشعر كل جندي في الجيش.

ولما فتحت نهاوند أمر عمر بن الخطاب المسلمين بالانسياح في أرض فارس، وأعطيت الأوامر لسبعة أمراء بالتوغل في أعماق فارس بغض النظر عن عدد الجيش المنطلق وبغض النظر عن عتاده وتجهيزاته وبغض النظر عن القوة التي يمكن أن يلاقيها وعددها إذ أن المسلمين لم يكونوا

ليقاتلوا بعدد أو بقوة تجهيزات وإنما بقوة الإيمان الذي يحملونه بين جوانحهم.

١ ـ سار نعيم بن مقرن إلى همدان ففتحها، واستخلف عليها يزيد بن قيس، وسار هو باتجاه الري (موقع طهران اليوم) ففتحها، ثم بعث بأخيه سويد بن مقرن بناء على أوامر الخليفة إلى قومس فأخذها سلماً، وصالح أهلها، وجاء إليه أهل (جرجان) و (طبرستان) وصالحوه. وكان نعيم قد بعث، وهو بهمدان (بكير بن عبد الله) إلى أذربيجان، ثم أمده بسماك بن خرشة ففتح بعض بلاد أذربيجان على حين كان عتبة بن فرقد يفتح البلدان من الجهة الثانية.

٢ ـ سار سراقة بن عمرو نحو باب الأبواب على سواحل بحر الخزر الغربية، وكان على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة فصالح عبد الرحمن ملكها بعد أن أرسله إلى سراقة بن عمرو، ثم بعث سراقة إلى الجبال في تلك المناطق بكير بن عبد الله، وحبيب بن مسلمة، وحذيفة بن أسيد، وسلمان بن ربيعة، ومات هناك سراقة بن عمرو، واستخلف مكانه عبد الرحمن بن ربيعة، وأقر الخليفة ذلك.

٣ ـ سار الأحنف بن قيس على رأس جيش حتى دخل خراسان من الطبسين[1] ففتح هراة عنوة، واستخلف عليها (صحار بن فلان العبدي)، وسار نحو (مرو الشاهجان)[2] عن طريق نهر هراة، فامتلكها واستخلف عليها (حارثة بن النعمان)، ومنها سار إلى (مرو الروذ) مع وادي (مورغاب) ليلاحق يزدجرد حيث فر إليها، ووصلت الإمدادات من الكوفة إلى

---

(١) الطبسين: قصبة ناحية في ولاية قوهستان، وهي تثنية طبس إذ هما بلدتان كل واحدة يقال لها طبس. إحداهما طبس العناب، والثانية طبس التمر، والفرس لا يتكلمون بها إلا مفردة، والعرب يثنونها، ويقال لها الطبسان إذ أنهما في موضع واحد. وتعد باب خراسان حيث تنخفض الجبال بينها وبين خراسان. وتكون ممراً ينفتح نحو هراة.

(٢) مرو الشاهجان: هي مدينة مرو قصبة خراسان، ونسبت إلى الشاهجان لأنها القصبة إذ أن معنى (جان) بالفارسية السلطان، وتفريقاً لها عن مر والروذ.

الأحنف بن قيس، وسار المدد نحو (بلخ) حيث انتقل يزدجرد إليها، واستطاع أهل الكوفة دخول بلخ، ففر يزدجرد إلى بلاد ما وراء النهر، ولحق الأحنف بأهل الكوفة في بلخ، وقد نصرهم الله على عدوهم، وأصبح الأحنف سيد خراسان إذ تتابع أهلها الذين كانوا قد شذوا في مكان أو تحصنوا في مكان إلى الصلح. وكان الأحنف وهو في طريقه إلى مرو قد بعث (مطرف بن عبد الله) إلى نيسابور، كما أرسل الحارث بن حسان إلى سرخس.

عاد الأحنف إلى مرو الروذ بعد أن استخلف على (طخارستان) (ربعي بن عامر التميمي)، وكتب الأحنف إلى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح خراسان، فكتب عمر بن الخطاب إلى الأحنف «أما بعد: فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتنفضوا».

٤ ـ واتجه عثمان بن أبي العاص على رأس جيشٍ إلى اصطخر، وقد اجتاز مياه الخليج العربي من البحرين ففتح جزيرة (بركاوان) ونزل أرض فارس، ففتح جور، واصطخر، وشيراز، وكان قد انضم إليه أبو موسى الأشعري بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. وكان الحكم بن أبي العاص عون أخيه في فتوحاته.

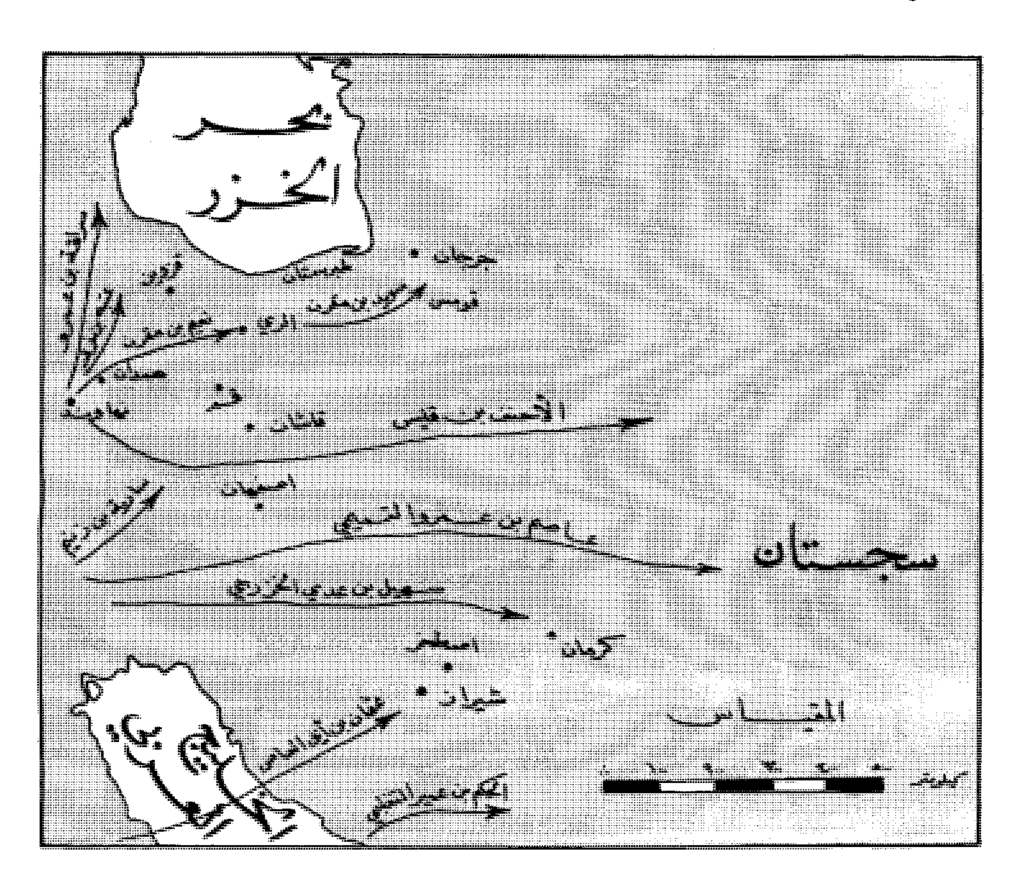
٥ ـ واتجه سارية بن زنيم الكناني نحو تحشد للفرس فحاصرهم فاستنجدوا بالأكراد فأمدوهم، فتكاثر العدو على المسلمين، وأصبحوا في خطر عظيم، عندئذ التجأ سارية إلى سفح جبل واتخذ ذروته درءاً له يحمي مؤخرته، وواجه الفرس من جهة واحدة، واستطاع الانتصار عليهم. وفي هذا التحرك من قبل سارية نحو الجبل يذكر أن عمر بن الخطاب كان يخطب على المنبر يوم الجمعة، فعرض له في خطبته أن قال: «يا سارية الجبل... الجبل... من استرعى الذئب فقد ظلم»، ويذكر أن سارية قد سمع كما سمع المسلمون الذين يسمعون خطبة عمر ذلك الكلام في ذلك اليوم وتلك السرعة، وأن الصوت الذي سمعه يشبه صوت عمر فعدل بالمسلمين إلى الجبل، ففتح الله عليهم.

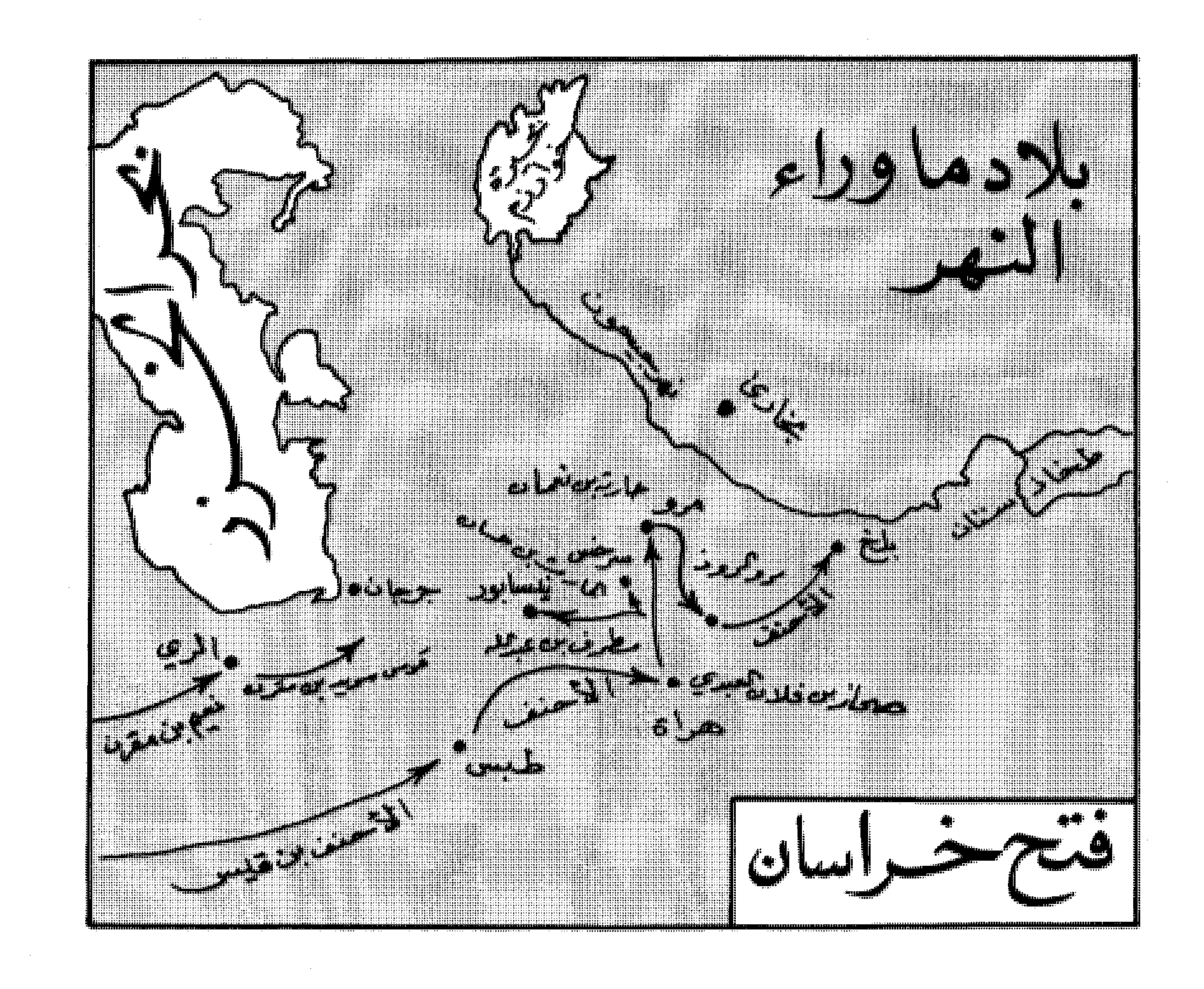
٦ ـ وسار عاصم بن عمرو التميمي على رأس قوة من أهل البصرة إلى إقليم سجستان، ففتح المنطقة، ودخل عاصمتها (زرنج) بعد حصار طويل اضطر أهلها إلى طلب الصلح، وتولى عاصم إدارة المنطقة، وعمل على توطيد الأمن فيها.

٧ ـ وسار سهيل بن عدي الخزرجي بجيش إلى كرمان ففتحها.

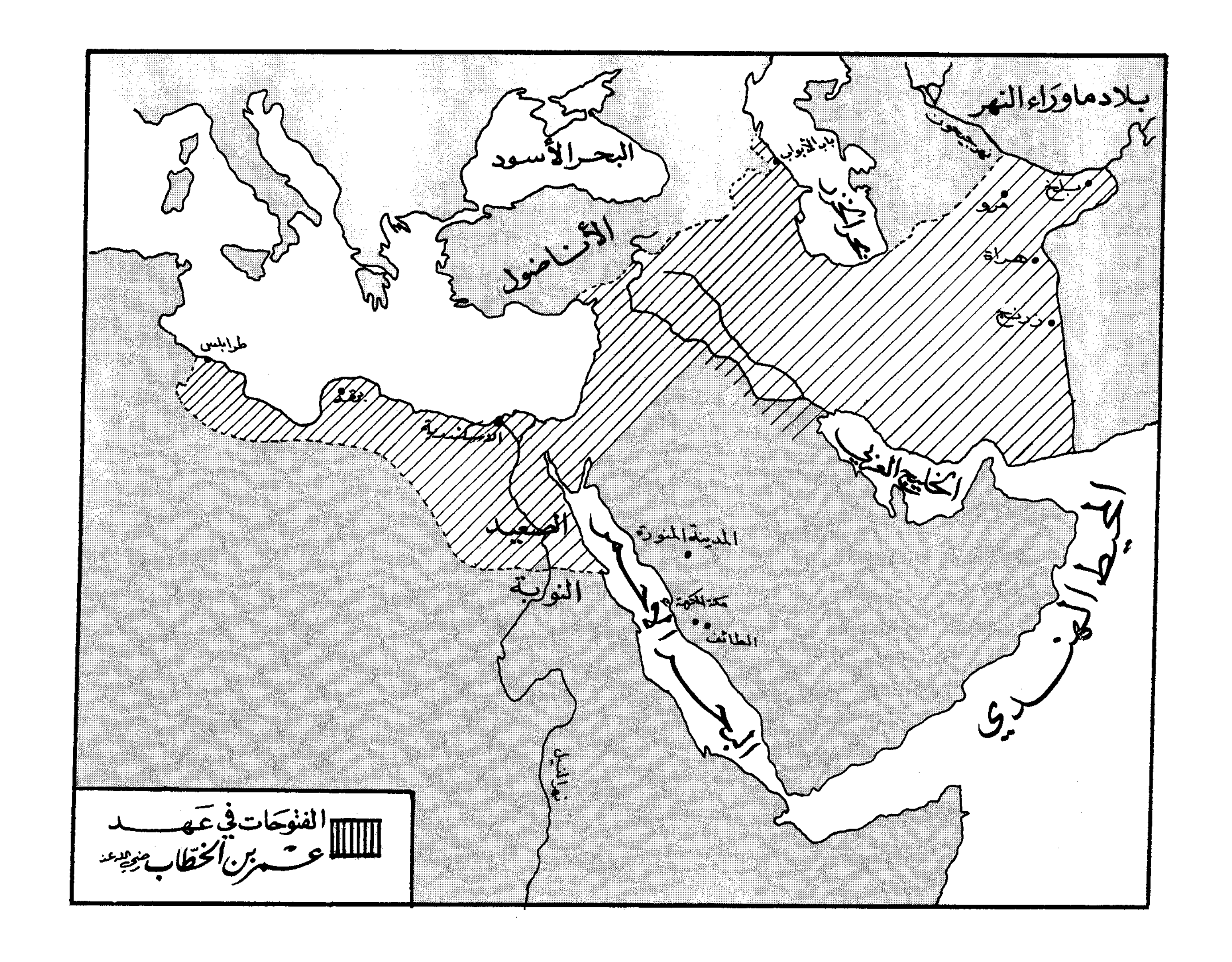
٨ ـ وانطلق الحكم بن عمير التغلبي بقوة إلى (مكران)، وتبعه مدد، والتقى المسلمون بأعدائهم على شاطئ نهر هناك، وعبر الفرس إلى المسلمين، ولكنهم لم يصمدوا طويلاً أمامهم، فدخل المسلمون معسكر الفرس، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وفتحوا المنطقة كاملة.

٩ ـ واتجه عتبة بن فرقد إلى جهة شمال غربي بلاد الفرس ففتحها ـ كما مر معنا ـ.





فتح خراسان
بلاد ما وراء النهر
بحر الخزر
بخارى
مرو
بلخ
مرو الروذ
نيسابور
جرجان
سرخس
الري
هراة
طبس
حارثة بن نعمان
مطرف بن عبدالله
الأحنف
الأحنف بن قيس
نعيم بن مقرن


الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه
بلاد ما وراء النهر
نهر جيحون
البحر الأسود
الأناضول
باب الأبواب
بحر الخزر
بلخ
مرو
هراة
زرنج
طرابلس
برقة
الإسكندرية
الصعيد
النوبة
نهر النيل
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الطائف
البحر الأحمر
الخليج العربي
المحيط الهندي

مقتل الخليفة عمر بن الخطاب

كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعيد النظر واسع الفكر، يخشى على المجتمع الإسلامي من التلوث، ويخاف عليه من عدم التجانس بوجود عناصر غريبة فيه، تضيع معها الرقابة، وتنتشر آراء متباينة بالاختلاط، وتكثر فيه الإساءة والنيل من مقوماته، يخشى أن يقوم الذي يأتون من خارج المجتمع من المجوس وسبي القتال بأعمال يريدون بها تهديم الكيان الإسلامي، لهذا فإنه منع من احتلم من هؤلاء دخول مدينة الرسول ﷺ، إلا أن عدداً من الفرس الذين دالت دولتهم قد أظهروا الإسلام، ودخلوا المدينة، ولا تزال عندهم من رواسب الماضي صلات مختلفة بعقيدتهم المجوسية القديمة، وارتباطات بحكومتهم السابقة، أو أنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية، وكانت لهم مخططات رهبية تنطلق كلها من الحقد على الخليفة الذي زالت دولة الفرس على يديه، والكره للدين الجديد الذي أبدوا أنهم دانوا به، ولم تتهيأ الفرص لبعضهم بعد للتفقه في الدين والاطلاع على حقيقته، ومعرفة الخير، وكان الحاقدون من الفرس الذين لم يعد لهم مقر لدولة يلجؤون إليها، أكثر من الروم الذي بقيت لهم دولة قائمة على الأراضي التي لم يصل إليها الفتح بعد، تمكن أن يعيش عليها من ينطلق إليها، وقد فعل هذا عدد كبير من الروم الذين كانوا يسكنون في البلاد التي فتحت، وعدد غير قليل من العرب المتنصّرة الذين فارقوا أراضيهم التي كانوا عليها، وفروا من المسلمين، والتجؤوا إلى أرض الروم ودولتهم، واستمر هذا قائماً حتى بعد منتصف القرن التاسع الهجري حيث فتحت القسطنطينية، وزالت دولة الروم من الوجود. وفوق كل هذا كانت يهود الذين أظهر بعضهم الإسلام عندما غلب على أمرهم، ووجدوا ألا سبيل

للمقاومة، وأنه من الأفضل لهم التهديم من داخل الصف الإسلامي، وقد أضمر هؤلاء الحقد على الإسلام وبالأساس هم يحقدون على كل من يدين بغير عقيدتهم، وكان حقدهم على الإسلام عظيماً إذ فضح دسائسهم التي كانوا يقومون بها، وبيّن مخططاتهم التي يلجؤون إليها، وأوضح مكرهم الذي يمكرونه، لذا بذلوا جهدهم للقضاء على الإسلام وقادته. والتقى المكر اليهودي مع المخطط المجوسي للعمل على ضرب الإسلام بإثارة الفتن داخل المجتمع الإسلامي، وقتل القادة المسلمين الذي يتمكنون من قتلهم، ويبدو أن النصرانية قد أدلت بدلوها في هذا الميدان، واشتركت في هذا الأمر.

طلب المغيرة بن شعبة أمير الكوفة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يسمح لغلامه (فيروز) الذي يُدعى (أبا لؤلؤة) بدخول المدينة للعمل فيها خدمة للمسلمين حيث هو رجل ماهر يجيد عدداً من الصناعات التي تفيد المجتمع وتخدم الدولة، فهو حداد، ونقاش، ونجار، فأذن له عمر. وكان أبو لؤلؤة خبيثاً ماكراً، يضمر حقداً، وينوي شراً، يحن إلى المجوسية ولا يستطيع إظهارها، وتأخذه العصبية ولا يمكنه إبداءها، فكان إذا نظر إلى السبي الصغار يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي، ويقول: أكل عمر كبدي. وكان أبو لؤلؤة يتحين الفرص، ويراقب عمر وانتقاله وأفعاله، ويبدو أنه قد وجد أن قتل الخليفة وقت الصلاة أكثر الأوقات مناسبة له، إذ يستطيع أن يأخذه على غفلة منه، ويغدر به دون مواجهة، وكان عمر، رضي الله عنه، إذا مر بين صفوف المصلين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيها خللاً تقدّم فكبّر ودخل في الصلاة.

فلما كانت صلاة فجر الثالث والعشرين من ذي الحجة في السنة الثالثة والعشرين من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفعل عمر كعادته، فما هو إلا أن كبر حتى سمُع يقول: قتلني الكلب، وقد طعنه أبو لؤلؤة ست طعنات، وهرب العلج بين الصفوف، وبيده سكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر

رجلاً مات منهم ما يزيد على النصف، فلما رأى عبد الرحمن بن عوف ذلك ألقى عليه برنساً له، وأحس أبو لؤلؤة أنه مأخوذ لا محالة، لذا فقد أقدم على الانتحار بالسكين ذاتها. وجاء عبد الرحمن ليرى ما حلّ بالخليفة فوجده صريعاً، وعليه ملحفة صفراء قد وضعها على جرحه الذي في خاصرته، ويقول: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً). وأخذ عمر بيد عبد الرحمن فقدمه للصلاة، وفقد عمر بعد ذلك وعيه، أما عبد الرحمن فقد صلى بالناس صلاة خفيفة. وقد رأى هذا من كان على مقربة من الإمام، أما الذين كانوا في نواحي المسجد فإنهم لم يعرفوا ما الأمر، وإنما افتقدوا صوت عمر، فجعلوا يقولون: سبحان الله... سبحان الله... حتى صلى عبد الرحمن فانقطع صوت التسبيح.

فلما أفاق عمر قال: أصلى الناس؟ وهكذا لم ينقطع تفكيره بالصلاة على الرغم مما حلّ به.

قال عبد الله بن عباس: نعم.

قال عمر: لا إسلام لمن ترك الصلاة. ثم دعا بوضوء فتوضأ وصلى، وإن جرحه لينزف.

ثم احتمل إلى بيته، فقال لابن عباس ـ وكان معه ـ: اخرج، فسل من قتلني، فخرج فقيل له طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ثم طعن رهطاً معه، ثم قتل نفسه. فرجع وأخبر عمر بذلك، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط.

وخشي عمر، رضي الله عنه، أن يكون له ذنب إلى الناس لا يعلمه، وقد طعن من أجله، فدعا ابن عباس وقال له: أحب أن تعلم لي أمر الناس، فخرج إليه ثم رجع فقال يا أمير المؤمنين، ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا يبكون، فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم.

وجيء له بطبيب من الأنصار فسقاه لبناً فخرج اللبن من الجرح، فاعتقد الطبيب أنه مُنتهٍ، فقال: يا أمير المؤمنين اعهد. فبكى القوم لما

سمعوا ذلك. فقال عمر: لا تبكوا علينا، من كان باكياً فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ: يعذب الميت ببكاء أهله عليه.

وكان عمر، رضي الله عنه، يخشى ما هو قادم عليه، فالمؤمن بين الخوف والرجاء، فيخاف عمر أن يكون قد قصر بحق الرعية ومسؤوليته، ويقول لمن كان حاضراً «وما أصبحت أخاف على نفسي إلا بإمارتكم هذه». وكان ابن عباس، رضي الله عنهما، يريد أن يطمئنه ويخفف عنه، فيذكره بمكانه عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وأن رسول الله قد بشره بالجنة، فكان عمر يقول: «والله لوددت أني نجوت منها كفافاً لا عليّ ولا لي»، «والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر».

وقال له ابن عباس: لقد كان إسلامك عزّاً، وإمارتك فتحاً، ولقد ملأت الأرض عدلاً. فقال عمر: أتشهد لي بذلك يا ابن عباس؟ فقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لابن عباس: قل نعم وأنا معك.

وطلب عمر من ابنه عبد الله أن يفي ما عليه من الديون. ثم أرسله إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، يستأذنها في أن يدفن بجانب صاحبيه، وقال له: قل لها: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فمضى عبد الله فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فسلم عليها وقال: يقرأ عليك عمر السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده (المكان) لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

وكان عمر، رضي الله عنه، لا يريد أن يستخلف إلا أن ابنه عبد الله قد أقنعه بذلك. فعن عبد الله بن عمر أنه قال: دخلت على حفصة ونوساتها (ضفائرها) تقطر ماء فقالت: علمت أن أباك غير مستخلف؟ قلت: ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل.

فحلفت أن أكلمه في ذلك، فغدوت عليه ولم أكلمه فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، ثم قلت له إني سمعت الناس يقولون مقالة، فآليت أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف. أرأيت لو أنك بعثت إلى قيّم أرضك ألم تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض، قال: بلى. قلت: أرأيت لو بعثت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلاً حتى يرجع؟ فماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده؟ فأصابه كآبة ثم نكس رأسه طويلاً، ثم رفع رأسه وقال: إن الله تعالى حافظ هذا الدين، وأي ذلك أفعل فقد سن لي، إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلف فقد استخلف أبو بكر.

فعلمت أنه لا يعدل أحداً برسول الله ﷺ وأنه غير مستخلف.

قال عمر: قد رأيت من أصحابي حرصاً شديداً، وإني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ثم قال: لو أدركني أحد رجلين، فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به. سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح فإن سألني ربي عن أبي عبيدة قلت: سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة، وإن سألني عن سالم قلت: سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله.

قال: المغيرة بن شعبة: أدلك عليه؟ عبد الله بن عمر.

قال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد.

وجعلها شورى في ستة: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم. وجعل

عبد الله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم، وأجّلهم ثلاثاً، وأمر صهيباً أن يصلي بالناس.

وكان طلحة بن عبيد الله غير موجود آنذاك بالمدينة حيث كان مشغولاً، خارجاً ببعض أعماله. فدعا عمر القوم، وقال لهم: إني قد ظهرت لكم في أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقاً إلا أن يكون فيكم، فإن كان شقاق فهو منكم، وقال إن قومكم إنما يؤمرون أحدكم أيها الثلاثة (لعثمان، وعلي، وعبد الرحمن) فاتق الله يا علي، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين، ثم نظر إلى عثمان وقال: اتق الله، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين. وإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس. ثم قال قوموا فتشاوروا فأمّروا أحدكم.

فلما خرجوا قال: لو ولوها الأجلح (علي) لسلك بهم الطريق، فقال ابنه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدّم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وذكر عمر سعد بن أبي وقاص فقال: إن وليتم سعداً فسبيل ذاك، وإلا فليستشره الوالي فإني لم أعزله عن عجزٍ ولا خيانة.

وقال عمر: أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصل لكم صهيب ـ مولى بني جدعان ـ ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه.

وأرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري قبل أن يموت بقليل فقال له: كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم فقم على الباب بأصحابك، فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم. وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد

فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة ورضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس، ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، اللهم أنت خليفتي فيهم.

وقد لزم أبو طلحة أصحاب الشورى بعد دفن عمر حتى بويع عثمان بن عفان.

وبقي عمر ثلاثة أيام بعد طعنه ثم توفي يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقد غسله وكفنه ابنه عبد الله، وصلى عليه صهيب.

ويبدو أن سيدنا عمر، رضي الله عنه، سار في جعل الأمر بين رجال الشورى على غير الطريق التي كان يتبعها وهي طريقة الحسم في الأمر، إذ أن الاختيار ربما يجعل الرجل يفكر في أمر لم يكن يخطر في باله من قبل، بل ربما حدثت خلافات لم تكن لتحدث لو استخلف رجل معين فالكل يطيعون، والجميع لا يرغبون في هذا الأمر، هكذا الفطرة البشرية ترغب عند الاختيار، وتطلب حين الترشيح.

وربما ظن بعضهم أن هذه خطيئة وقع فيها سيدنا عمر، ويحاولون تخفيف ذلك الخطأ بأنه كان مصاباً ومن أجل ذلك حدث ما وقع، إلا أن التخطيط للانتخاب، ومحاولته معرفه سبب قتله، والنظرة البعيدة إلى المستقبل مع إصابته لتدل على مدى صحة تفكيره وسلامة عقله وعدم إضاعة أي شيء من النظر لمصلحة المسلمين. ولكن الخوف مما هو قادم عليه، جعله يريد أن يرفع المسؤولية عن نفسه، لقد كان يريد أن يستخلف إلا أنه خاف من تحمل التبعات وهو قادم للقاء الله عز وجل، وقد قال: لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق، ويعني علياً، ولما قال ابنه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وكان دائماً يخشى موضوع الإمارة والمسؤولية، وهذا ما جعله يقول: وما أصبحت أخاف على نفسي إلا بإمارتكم هذه. ونراه يقول للمغيرة بن شعبة عندما اقترح عليه استخلاف عبد الله بن عمر: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً ولا وزر ولا أجر إني لسعيد. ونراه لا يدخل ابن عمه سعيد بن زيد في رجال الشورى على الرغم من أنه لم يبق غيره من المبشرين في الجنة خارج رجال الشورى وما ذلك إلا لقرابته منه.

وعمر إذن قد جعل الأمر في رجال الشورى من المسؤولين وتحمل العقبات والسؤال عن ذلك يوم الحساب، وحرصاً على نفسه. ولم يدخل ابن عمه، ولم يقبل ابنه نصيحة لأهله ولنفسه حتى لا يكون ذلك سنة من بعده تتخذ ذريعة في استخلاف الأبناء والأقرباء وينتقل الحكم ملكياً وراثياً، كما حدث بعد وقت حيث قامت الدولة الأموية ومن بعدها العباسية، ومع هذا فإن في ذلك خطأ حصد المسلمون نتائجه، وكان سبباً بعيداً لما وقع فيما بعد.

ويبدو أنه كان في نفسه رغبةً إلى تولية علي بن أبي طالب، ويظهر ذلك من كلامه «لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق» ويظهر ذلك من فعله، فإنه ما خرج من المدينة إلا وخلف عليها علي حتى يعود، ويلاحظ من بدئه بعلي عندما خاطبه «فاتق الله يا علي، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين» ـ وإن كان التقديم لا يدل على الترتيب ـ إلا أن الخوف هو الذي حمله أن يسلك هذا السلوك ويجعل الأمر شورى بين ستة نفر.

ومع هذا تعد طريقة سيدنا عمر سنة يمكن أن يؤخذ ويستأنس بها عندما يضطر إليها الخليفة، فيلجأ إليها لاختيار خليفة جديدٍ من بعده عندما

يكون الحكم إسلامياً. ويعد عمله هذا اجتهاداً ويؤجر عليه ـ إن شاء الله ـ.

وأما الذين قتلوا عمر فيبدو أنهم يمثلون جوانب متعددة تشمل الأطراف المعادية للإسلام والحاقدة عليه من مجوس، ويهود، ونصارى وربما كان لبعض زعماء الأعراب دور في الحادث، ولكن الذي قتلوا بقتله إنما هم الهرمزان، وجفينة، وابنة أبي لؤلؤة، وإن كانت بعض أصابع الاتهام تشير إلى كعب الأحبار، وعيينة بن حصن وغيرهما وهذا بعيد ـ والله أعلم ـ وكعب الأحبار صادق في إسلامه، قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين قتل عمر: قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة، والهرمزان، وهم نجيّ، فلما باغتُّهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر، فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه السيف، حتى دعا الهرمزان، فلما خرج إليه قال: انطلق معي حتى ننظر إلى فرس لي، وتأخر عنه حتى إذا مضى بين يديه علاه بالسيف.

قال عبيد الله بن عمر: فلما وجد حر السيف قال: لا إله إلا الله.

وقال عبيد الله: ودعوت جفينة، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة، وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص أقدمه المدينة للملح الذي كان بينه وبينه، وكان يعلم الكتابة والقراءة بالمدينة. قال: فلما علوته بالسيف صلّب بين يديه. ثمّ انطلق عبيد الله فقتل ابنةً لأبي لؤلؤة صغيرة. وأراد عبيد الله ألا يترك سبيًّاً يومئذ بالمدينة إلا قتله، إلا أن الصحابة قد نهروه، ثم قُبض عليه، وسُجن حتى يُنظر في أمره الخليفة الجديد.



المجتمع الإسلاميّ أيّام عمر

لم يكن عهد الصديق طويلاً، وكان مليئاً بالأحداث الجسام التي كادت تعصف بالدولة، وقد شغل الارتداد جزءاً منه الأمر الذي جعل المجتمع الإسلامي، لم يتبلور بصورةٍ واضحةٍ إلا في أواخر ذلك العهد حيث قضي على أهل الردة، وزالت الشوائب التي عشعشت في بعض الزوايا مدة من الزمن، وبدا المجتمع جلياً في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، والتي طالت مدته نسبياً فزادت على عشر سنوات.

والسمة العامة للمجتمع الإسلامي عندما يحكمه شرعه ألا فوارق ولا طبقات توجد فيه، وإنما مساواة تامة، لا مساواة شعارات، أو مساواة نسبية حسب مراكز السلطة ومقامات الأفراد، وإنما هي مطلقة. وإذا بحثنا المجتمع على أساس أقسام، فإنما هو لإعطاء الصورة الواضحة له ومعرفة الخطوط العريضة، وليس يعني هذا أن هذه الأقسام هي طبقات متباينة يتميز بعضها عن بعض بالواجبات والمسؤولية، وإنما جميعها ذات حقوق واحدة، وواجبات واحدة، ومسؤولية واحدة، وهي أمام الشرع واحدة، لا يختلف في ذلك رأس السلطة الذي هو الخليفة عن أدنى رجل في المجتمع حتى أهل الكتاب من الذمة.

١ ـ **الخليفة**: وهو فرد من المجتمع لا يتميز عن أي فرد آخر، وقد سلمته الأمة قيادتها، وأعطته السلطة عليها، ليحافظ عليها، ويرعى حقوقها، ويتعهد أبناءها. وكان عمر يشعر بالمسؤولية التامة، ويحسّ بالعبء الثقيل الملقى على عاتقه، لذا كان دائم التفكير بالرعية، يخشى على نفسه من التقصير بواجباته فيكون حسابه عسيراً أمام الله، وهذا ما يخافه ويرهبه، لذا

فقد أجهد نفسه، فكان قليل النوم، ضئيل الطعام، بسيط اللباس، وأضنى جسمه، وأتعب أهله ومن أتى بعده، وأثقل على ولاته.

فكان مع نفسه شديد البكاء من خشية الله، فكان يمر بالآية وهو يقرأ فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضاً. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء، ويُسمع نشيجه في الصلاة من آخر الصفوف. وكان أكثر الناس صياماً وصلاة.

وقال علي بن أبي طالب: رأيت عمر على قتب يعدو فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أتعبت من بعدك! فقال: فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة، لو أن عناقاً (عنزة) ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة.

وكان يشعر أن الأموال التي جاءته من الفتوح إنما هي ابتلاء له واختبار، وإلا فلماذا لم تأت لرسول الله ﷺ ولا لأبي بكر، لذا كان يبكي ويقول: والذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر إرادة الشر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وكان يريد أن يعرّف نفسه قدرها، فخطب الناس مرة فقال: أيها الناس! لقد رأيتني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيقبض لي القبضة من التمر أو الزبيب. ثم نزل عن المنبر ولم يزد على ذلك. فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك يا ابن عوف، خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرّفها قدرها؟

وكان إذا فعل فعلة عاد إلى نفسه فحاسبها على تلك الفعلة فإن راقت له قضي الأمر، وإلا بدأ يعاتب نفسه ويقرّعها ويبكي على ما فعل. فقد قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، انطلق معي فأعدني على فلان فإنه قد ظلمني. فرفع عمر الدرة

فخفق بها رأس الرجل وقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرّض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني أعدني! فانصرف الرجل وهو يتذمّر، فقال عمر: عليّ بالرجل: فألقى إليه المخفقة وقال: امتثل (اضربني كما ضربتك). فقال الرجل: لا والله ولكن أدعها لله ولك. قال عمر: ليس هكذا، إما أن تدعها لله إرادة ما عنده، أو تدعها لي فأعلم ذلك. قال: أدعها لله. فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه، فصلى ركعتين وجلس فقال: يا ابن الخطاب! كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟ فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا أنه خير أهل الأرض.

وكان خشن الطعام لا يأكل إلا أدماً واحداً، ويترك الطيبات والاستمتاع بها في الحياة الدنيا، ويخاف الآية الكريمة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، ويريد ألا يأكل إلا ما يستطيع أكله فقراء المسلمين.

عن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته. فقال عمر: أو كلما اشتهيت اشتريت يا جابر؟ ما تخاف الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.

ودخل على ابنته حفصة أم المؤمنين فقدّمت إليه مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال: أدمان في إناء واحد؟ لا آكله حتى ألقى الله عز وجل.

وقدم الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله، فقال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة، لقد باينونا بوناً بعيداً.

وكانت ثيابه مرقعة، ونعله مخصوقة، لا يلبس الخز. لذا كانت حياته على نفسه قاسية، وعندما خطب إلى عائشة، أم كلثوم بنت أبي بكر،

رضي الله عنهم، وهي صغيرة، قالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، فقالت لها عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إنه خشن العيش شديد على النساء. وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت: يغلق بابه، ويمنع خيره، ويدخل عابساً، ويخرج عابساً.

وكان مع أهله شديداً: فكان إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال لهم: إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر.

ويمنع أهله أن يتدخلوا في أمر من أمور المسلمين، كما يمنعهم في الربح في التجارة إذ يظن أن في ذلك ممالأة لهم لمكانهم منه. ويصلي بالليل حتى إذا انتصف أيقظ أهله ويتلو الآية الكريمة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

وكان يعاتب الولاة إذا تساهلوا على أهله ويوبخهم أشد التوبيخ، ويقيم الحد على من خالف من أهله حتى ولده، فقد روي عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال يوماً ـ وقد ذكر عمر فترحم عليه ـ: ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر، رضي الله عنه، أخوف لله من عمر، لا يبالي على من وقع الحق، على ولد أو والد. ثم قال: والله إني لفي منزلي في مصر، إذ أتاني آت: فقال: هذا عبد الرحمن بن عمر، وأبو سروعة يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلا وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حد الله، فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا. فزبرتهما وطردتهما. فقال عبد الرحمن: إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه. قال عمرو: فعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية في الدار فحلق رأسه، وكانوا يحلقون مع الحدود: ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله

عمر إلى العاصي بن العاصي، عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك عليّ وخلافك عهدي، فما أراني إلا عاز لك. تضرب عبد الرحمن في بيتك، وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين. وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع. فبعث به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر كتاباً اعتذر فيه أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال عمر: يا عبد الرحمن فعلت وفعلت؟ وكلمه عبد الرحمن بن عوف، وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد. فلم يلتفت إليه. فجعل عبد الرحمن يصيح: إني مريض وأنت قاتلي! فضربه ثانية، وحبسه فمرض ثم مات رحمه الله.

وكان مع الولاة يختار القوي الأمين منهم فليس المهم أن يكون الوالي صالحاً فقط فإن صلاحه لنفسه وضعفه يعود على الأمة، وإنما يجب أن يكون قوياً فقوته للأمة كلها وعدم صلاحه لنفسه، ولا يعطي الولاية إلا لصحابة رسول الله ﷺ، ويختار القوي منهم ويقول: إني لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه. وقد استعمل المغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان وفي الصحابة من هو أفضل منهم أمثال عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وما ذلك إلا لقوة أولئك في العمل وخبرتهم، ولأن عمر يريد أن يُشرف عليهم، ويريد أن يهابوه، كما أنه لا يريد أن يدنس كبار الصحابة بالعمل، وقلما كان يريد أن يستعمل بني هاشم وآل البيت، ويقول لابن عباس: إني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم.

وكان يشترط على الولاة حين يستعملهم بأن لا يظلموا أحداً في

جسمه ولا في ماله، ولا يستغلّ منصبه في فائدة خاصة أو مصلحة له أو لأهل بيته، ويكتب بذلك كتاباً للوالي ويشهد عليه عدداً من صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار. ويقول للوالي: إني لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، وإنما أستعملك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل.

وكان يراقب الولاة، ويتدخل في طعامهم، وشرابهم، ولباسهم، ومسكنهم، أي كانت بيده السلطة كلها، وإضافة إلى ذلك يطلب من عماله أن يوافوه في كل موسم حج. كما يسأل الناس عن ولاتهم، وتمسكهم بالشرع، وحكمهم بالعدل، ويستمع إلى شكوى الناس على أمرائهم. وكان محمد بن مسلمة، رضي الله عنه، يعد من كبار المحققين مع الولاة إذا سمع عن أحدهم شيئاً. فقد أرسله للتحقيق مع سعد بن أبي وقاص عامله على العراق، كما سمع شكوى على المغيرة بن شعبة؛ وعمرو بن العاص، وقدامة بن مظعون، وسعيد بن عامر، وعياض بن غنم وغيرهم، ولعل أشهر شكوى وأبلغها ما كان على عمرو بن العاص والي عمر على مصر.

قال أنس: كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك! قال: وما لك؟

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسي، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو، فقال: فرسي ورب الكعبة. فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة. فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين، وبلغ ذلك عمراً أباه، وخشي أن آتيك فحبسني في السجن، فانفلت منه، وهذا حين آتيتك. فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس. ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد. وقال للمصري: أقم حتى يأتيك. فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟

قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟

فقدم على عمر.

قال أنس: فوالله إنا عند عمر، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه.

فقال: أين المصري؟

قال: ها أنذا.

قال: دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين، فضربه حتى أثخنه، ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينتزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين.

ثم قال عمر: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني.

قال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه. أيا عمرو! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

فجعل عمرو يعتذر ويقول: إني لم أشعر بهذا.

ثم التفت عمر إلى المصري وقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب لي.

وكان مع الرعية خير أمير إذ كان يمر على النساء اللواتي ذهب رجالهن إلى الجهاد، ويطلب منهن أن يذكرن حاجاتهن في البيع والشراء، ويسير إلى السوق ووراءه أولادهن وجواريهن، ويؤمن لكل صاحبة بيت طلبها. وإذا جاء البريد من الثغور أوصل الرسائل إلى أصحابها، وطلب من يقرأ هذه الرسائل لمن لا تعرف القراءة أو قرأها بنفسه إن أرادت صاحبة العلاقة، وقبل أن ينصرف يخبرهن بسير البريد، ويحدّد لهن الوقت إن كن يردن الكتابة لأزواجهن.

وإذا كان مع قوم في سفر تأخر عنهم يفتش عما نسوه، ويساعد من أبطأت به دابته، أو من أصابه حادث.

وكان يعسّ بالليل يتفقد من ينزل حول المدينة، ويحرس القوافل، ويسأل أصحاب الحاجات، فيؤمن طلبات ذوي الاستحقاق وما يجد في طريقه، وإذا دعا الأمر عاد إلى بيته فأخذ زوجته لتدخل على النساء اللواتي تستدعي حالتهن مهمةً نسائية.

قال: أسلم (غلام عمر): خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة (واقم)، حتى إذا كان بـ (صرار) إذا نار تُؤرّث (تؤجج) قال: يا أسلم إني أرى ها هنا ركباناً قصّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. (كره أن يقول: يا أصحاب النار). فقالت: وعليكم السلام.

فقال: أأدنو؟ فقالت: ادن بخير أودع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟

قالت: قصر بنا الليل والبرد.

قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟

قالت: الجوع. قال: وأي شيء في هذا القدر؟

قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا. والله ما بيننا وبين عمر. فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم.

قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا.

فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، وقال: احمله عليّ.

قلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أُمّ لك!

فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذرّي عليّ وأنا أحرّ لك. وجعل ينفخ تحت القدر، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم. ثم أنزل القدر، وقال: أبغني شيئاً.

فأتته بصفحةٍ فأفرغ القدر فيها، وجعل يقول ها أطعميهم وأنا أسطح لهم (أبرد لهم).

فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام، وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، كنت بهذا أولى من أمير المؤمنين. فيقول: قولي خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك - إن شاء الله - ثم تنحى ناحيةً عنها، ثم استقبلها فربض مربضاً، فقلت له: لك شأن غير هذا؟.

فلا يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا، وهدؤوا.

فقام يحمد الله ثم أقبل علي فقال: يا أسلم. إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

وكان عمر يطوف بالأسواق، ويقرأ القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم. وكان يصلي الصلاة ثم يقعد، فيكلمه من يشاء، وليس على داره باب ولا حجاب.

وكان مع الجند نعم القائد فهو القائد العام للقوات الإسلامية، يعين القائد من الصحابة، ويختاره على هذا الأساس، وقد عيّن أبو عبيد الثقفي لكونه أول من لبى نداء الجهاد، وقد يعزل القائد فيصبح جندياً عادياً في الجيش، ويرقي الجندي فيصبح قائداً كبيراً، وما ذلك إلا لتقدير الشجاعة والإقدام، وحتى لا يطمع القائد في منصبه، ولا يضعف الجندي لمركزه، وقد عزل خالد بن الوليد عن القيادة حتى لا ينسب له النصر، فالله هو الفعال لما يريد، وما النصر إلا من عند الله، وكاد أن يفتن بخالد بعضهم.

وكان يبعث بأوامره وتعليماته إلى القادة بصورة مستمرة، ويسأل عنهم، ويعرف كل شيء من أمرهم حتى كأنه يعيش معهم، ويذكّرهم بالله

والخوف منه، والإخلاص له، ويحضّهم على القتال. ويسأل عن نتائج المعارك فإذا أبطأ عليه الخبر، خرج خارج المدينة يسأل الركبان، ويتقصىّ الأخبار، وإذا عصب الأمر يقرر الخروج بنفسه إلى ساحة القتال، ثم يستشير بذلك الصحابة كعادته عند كل قضية، وينزل عند رأيهم إذا اقتنع به. وكان يدير المعارك من مكانه الذي هو فيه على الجبهات كلها، ويرسل البريد السريع بالتعليمات، وتعيين القادة والطلائع والمقدمة والميمنة والميسرة والساقة، ويرتب الأفراد، ويوزع الأمراء على المدن وفي الجهات المقرر التوجه إليه.

وكان يفكّ أسرى المسلمين من بيت المال، ويقول: لأن استنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إليَّ من جزيرة العرب.

وكان مع الذميين نعم الحاكم العادل كان يفرض على الذميين ألا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، وركوبهم، وما عدا ذلك فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا في أمور قليلة معروفة، وكان إذا أسلم الذمي سقطت عنه الجزية، وإذا ثبت أن عليه دين يستغرق ماله كله، يعفى من العشر ومن الجزية.

وكتب إلى ولاته يأمرهم أن يمنعوا المسلمين من ظلم أحد من أهل الذمة، وأوصى بأهل الذمة أن يوفى لهم عهدهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم.

ومرّ عمر بسائل شيخ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودي.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟

قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن.

فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال. ثم أرسل إلى خازن

بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم خذلناه عند الهرم.

٢ ـ الصحابة: كان كبار الصحابة يعيشون في المدينة، لا يسمح لهم الخليفة بالخروج منها وحتى للجهاد، فقد كفاهم جهادهم مع رسول الله ﷺ، ويريد أن يعرض عليهم الأمور التي تجد، ويستشيرهم في القضايا، ويستفتيهم في المشكلات التي تقع له وللمسلمين، فكثيراً ما كان يسأل عثمان، وعلياً، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة. كما يريد منهم أن يكونوا قدوةً يحتذى بها في الوسط الذي يعيشون به.

وكان الصحابة ينصحون الخليفة، ويعيشون معه قضايا الدولة، ويرون تعبه الشديد من أجل الرعية وحرصه الكبير على مصلحة المسلمين فيقولون له: رحمك الله أتعبت من بعدك. وكانوا مع الرعية صورة مصغرة عن الخليفة فالناس جميعاً يضعونهم موضعهم، وهم يلينون لهم كما يلين عمر. كما يوجهونهم ويفقهونهم في الدين. وكانت أفضلية الصحابة بالسابقة في الإسلام، فصهيب، وسلمان أسبق وأفضل من طلقاء مكة أمثال أبي سفيان، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فيروى أن سهيل بن عمرو والحارث بن هشام كان على باب عمر، فأذن لسلمان وصهيب وأمثالهما فتمعّر وجه الحارث وقال لسهيل: ما فعل بنا الرجل، فأجابه نحن فعلنا بأنفسنا دعوا ودعينا فأجابوا وأبطأنا فهم أسبق منا وأقرب، وفي اليوم التالي جاءا إليه وقالا: عرفنا ما فعلنا بأنفسنا، فهل لنا من عمل حتى نلحق بالركب، فأشار إليهم بالغزو فخرجا مجاهدين وقد استشهدا، رضي الله عنهما(١).

أما بالمسؤولية والعدل فكان الجميع على مستوى واحد، ليس لسابق منزلة فوق منازل الآخرين ولا لغيرهم دون ذلك، والصحابة كلهم إخوة محبتهم بعضهم لبعض فوق مستوى محبة الأشقاء.

---

(١) يبدو أن الحادثة قبل أن يتولى عمر الخلافة، إذ خرجا للجهاد قبل ذلك حيث استشهد الحارث بن هشام يوم اليرموك.

٣ ـ **الرعية**: كان الناس كتلة واحدة متراصة يشعر كل من بقي في مقره أنه المسؤول عن أسر المجاهدين الذين في الغزو، وبخاصة أنه يرى الخليفة بنفسه يقوم بهذه المسؤولية، ويتحمل التبعات، وتشعر الأسر بالترابط والمودة ما دام يجمعها جامع العقيدة ويربطها رابط الموقف الواحد وهو أن الرجال في الجبهات وعلى الثغور يعملون لإعلاء كلمة الله الأبناء والأمهات والمسنون ينتظرون نتائج المعارك وحوادث الجهاد، ويُرعون الرعاية التامة من خليفتهم وأمرائهم فيقلدون، والإيمان يدفعهم إلى ذلك، والإسلام يحثهم على المودة والرحمة «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى» فما من حادثة تحدث في المجتمع إلا ويشارك فيها جميعه، فأخبار النصر سرور للجميع بل وكلهم فيه مشاركون، وعام المجاعة الذي عرف بعام الرمادة وهو عام١٨ هـ قد جاع الناس جميعاً، فاشتركوا بالضراء، وتناولوا ما عند بعضهم جميعاً، وعندما بدأت تصل الأقوات من الأمصار بدأت توزع على الأفراد في المناطق التي أصابها البلاء، وعمها الضر بلا استثناء، فكل بيت يناله ما ينال جواره بغض النظر عن الأسبقية في الإسلام والأفضلية وبغض النظر عن العقيدة التي يدين بها أبناؤه، فالمسلمون والذميون على حد سواء، ينال الجميع الخير كما أصاب الجميع الضر.

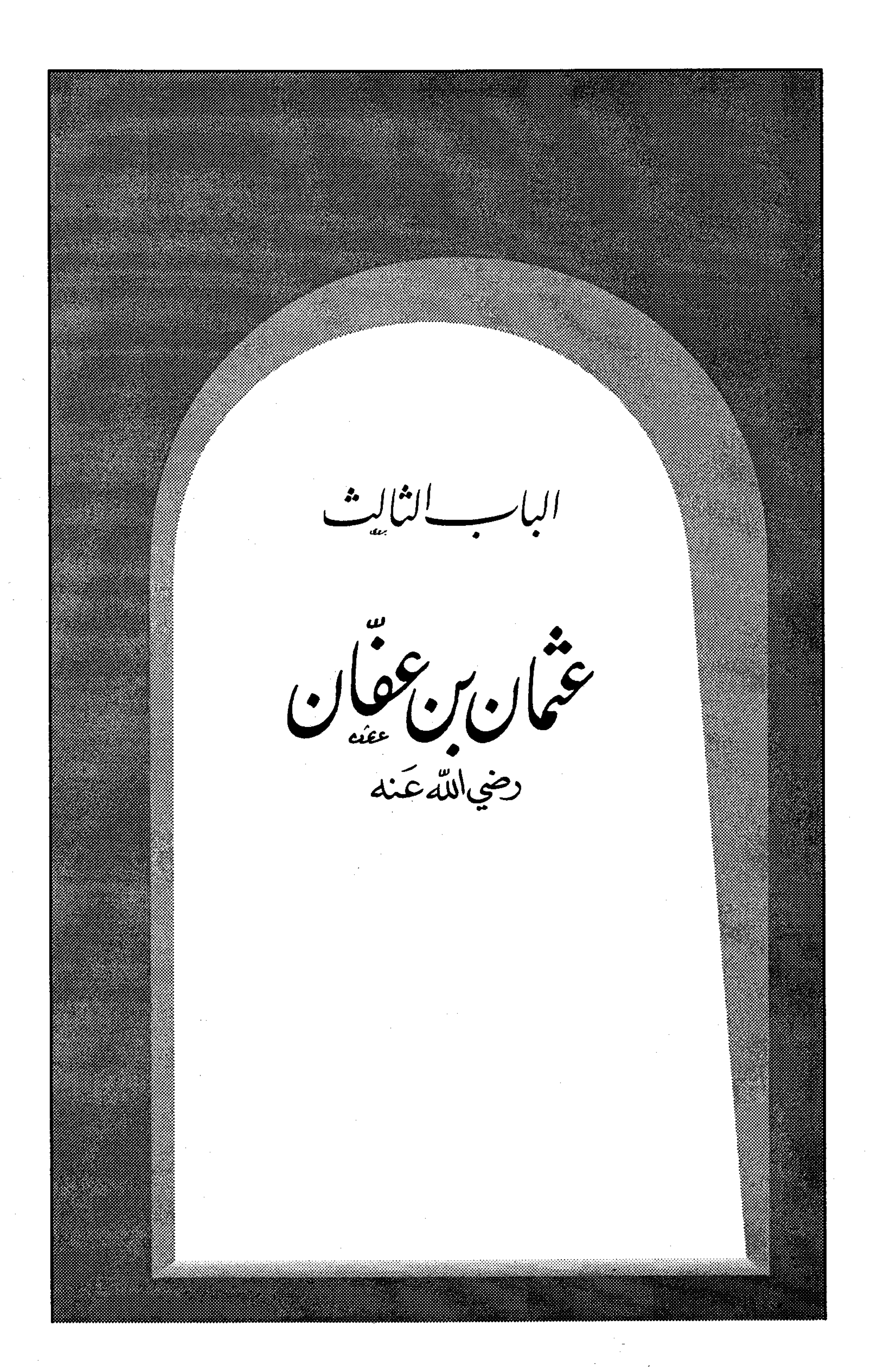
٤ ـ **الذميون**: وهم أهل من أهل الكتاب من نصارى ويهود، ويضاف المجوس إليهم، وهم الذين عاهدوا المسلمين، ولم ينقضوا عهدهم، وحافظوا على مواثيقهم، فلم يأووا عدواً، ولم يراسلوا خصماً، وقد عاشوا سعداء شملهم عدل الإسلام، فأقاموا آمنين على أملاكهم وأموالهم وأبنائهم، لا يُعتدى على أحدٍ منهم، وإن حدث شيء أصاب العدل موقعه فأخذلهم حقهم ونال المعتدي جزاءه، وكانت المساواة بين الناس جميعاً وبلا استثناء، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا في نواحٍ قليلة، وكانوا يدفعون الجزية، ولا تعدل ما يدفعه المسلم من زكاة، ولا يخرجون للقتال،

وهم آمنون، ولهم الحق بالتقاضي حسب شرائعهم، كما لهم الحق في التقاضي بشرع الله المطبق في المجتمع الإسلامي.

وأخيراً فإن عمر، رضي الله عنه، قد أجلاهم عن الجزيرة لما ظهر منهم، ولقول رسول الله ﷺ: «لا يجتمع في الجزيرة دينان»، أما في بقية أمصار الدولة الإسلامية فقد بقوا على سعادتهم وحريتهم.

وهكذا كان المجتمع سعيداً بكل أفراده، فاضلاً بكل سلوكه، متماسكاً بكل لبناته، تسوده المساواة، وتنطلق فيه الحرية، وتعشعش فيه المودة، وتعيش فيه الرحمة.




الباب الثالث
عثمان بن عفّان
رضي الله عنه

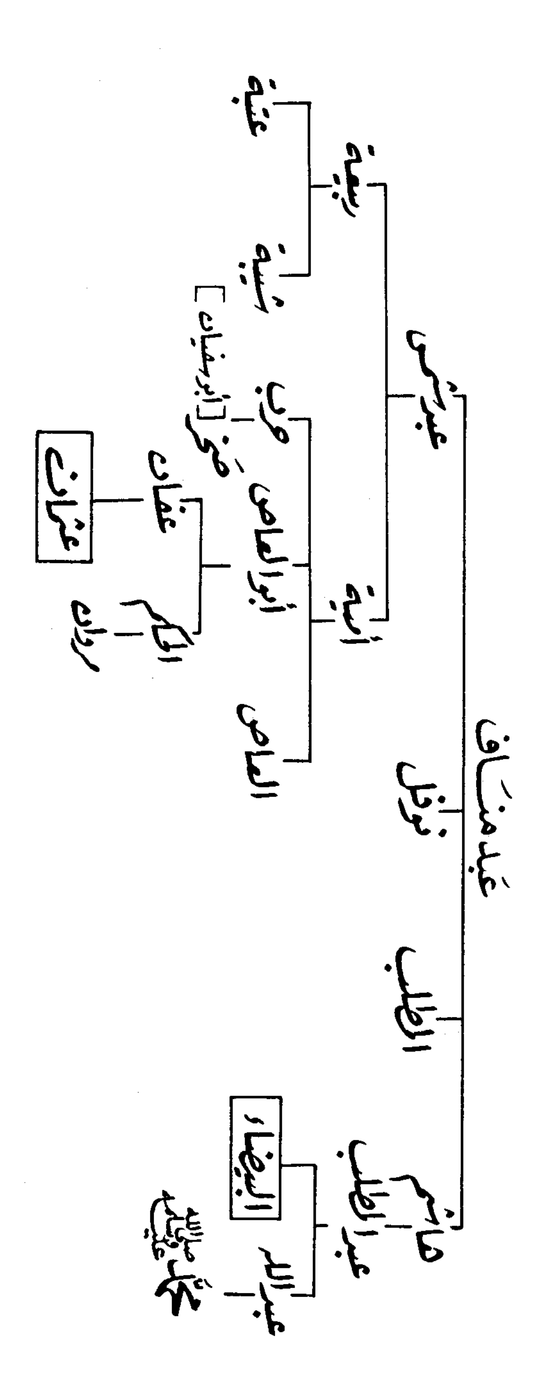


حيَـــاته

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وبذا يلتقي برسول الله ﷺ من ناحية أبيه بعبد مناف أو بالجد الرابع، ويلتقي به من ناحية أمه أيضاً، فأم عثمان هي: أروى بنت كريز، وأم أروى هي البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

ولد عثمان، رضي الله عنه، في الطائف سنة ٤٧ قبل الهجرة أي أنه أصغر من رسول الله ﷺ بست سنوات تقريباً. وكان أبوه (عفان) ثرياً صاحب تجارة، وقد مات في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام من أجل التجارة، وتوفي فيها. وخلّف مالاً لابنه عثمان، فأتجر به وربح، وجاد على قومه بما لديه من مال، فأحبه قومه، وقدموه، وكان وجيهاً بينهم، سيداً في قومه بني أمية، وأحد أعيان قريش كلها. وهذا كله ما حفظه لنا التاريخ من حياته في الجاهلية شأنه في ذلك شأن بقية الصحابة. ولكن تاريخهم في الإسلام معروف بكامله إذ أن الإسلام هو الذي صنعهم رجالاً من جديد فسجل التاريخ حياتهم كاملة في أنصع صفحاته.

وبعث محمد ﷺ وعثمان في الرابعة والثلاثين من عمره، ولم يلبث أن أسلم وكان من السابقين، إذ كان إسلامه قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم، بل وكان من العشرة الأوائل. وتروي الأخبار عن طريقة إسلامه، فيقال: إنه كان عائداً من الشام في تجارة له مع طلحة بن عبيد الله فسمع وهو بين النائم واليقظان منادياً يخبر ببعثة محمد ﷺ في مكة، وروى ابن حجر في الإصابة: أن سعدى بنت كريز خالة عثمان بن عفان ـ وكانت تتكهن في الجاهلية ـ أخبرته بمبعث النبي ﷺ، قال عثمان:



عبد مناف
عبد شمس
نوفل
المطلب
هاشم
ربيعة
أمية
عبد المطلب
عتبة
شيبة
حرب
أبو العاص
العاص
البيضاء
عبد الله
محمد صلى الله عليه وسلم
صخر [أبو سفيان]
عفان
الحكم
عثمان
مروان

فوقع كلامها من قلبي، فجعلت أفكر فيه، وكان لي مجلس عند أبي بكر، فأصبته في مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه فرآني مفكراً، فسألني أمري، وكان رجلاً متأنياً، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: ويحك يا عثمان! إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صم، لا تسمع ولا تبصر؟... قلت: بلى، إنها كذلك، فقال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه لتسمع منه؟ قلت: لا، فمر رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب، فقام إليه أبو بكر، فساره في أذنه بشيء، فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك، وإلى خلقه، فما تمالكت نفسي حين سمعت قوله أن أسلمت.

وتأثرت قريش تأثراً كبيراً بإسلام عثمان إذ كان محبوباً من أفرادها، وله مكان بين أبنائها. وحاول عمه الحكم بن أبي العاص أن يثنيه عن إسلامه فلم يفلح، وعذّبه عذاباً شديداً، ولكن ذلك لم يغير شيئاً من عزمه، ولما رآه ثابتاً على عقيدته، ماضياً في طريقه تركه وشأنه. وحاولت أمه أروى بنت كريز أيضاً أن تقنعه بالعدول عن رأيه، وتبديل خطه لكنها باءت بالفشل، واستمر هو على النهج الذي رسمه لنفسه.

وامتاز سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بناحيتين مهمتين جداً وهما: الحياء، فما كان يعرف إنسان أشد حياءً منه، حتى كان رسول الله ﷺ يستحي منه وحتى قال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة، وروى ابن عساكر أن النبي ﷺ قال: عثمان حيي تستحي منه الملائكة. أما الناحية الثانية فهي الكرم، فكان جواداً إذا لم يكن في قريش من هو أكثر منه جوداً، بل لا يوجد آنذاك من يعادله في السخاء والبذل.

وتزوج رضي الله عنه رقية بنت رسول الله ﷺ، وأنجب منها ولداً اسمه عبد الله، ولكنه لم يعش طويلاً، وتوفي وعمره ست سنوات.

ولما اشتد أذى قريش على المسلمين، وهاجر بعضهم إلى الحبشة،

استأذن عثمان رسول الله ﷺ في أن يهاجر مع زوجه رقية فأذن له، وهاجر، ثم عاد إلى بلده مكة.

وعندما بدأ المسلمون يهاجرون إلى المدينة بعد بيعة العقبة، هاجر عثمان بن عفان إليها مع زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ. وعندما حدثت معركة بدر الكبرى بين المسلمين وقريش لم يشهدها سيدنا عثمان، إذ كانت زوجه مريضة فبقي بجانبها يمرضها بإذن من رسول الله ﷺ، وعدّه رسول الله من البدريين، وأسهم له بينهم. وما رجع المسلمون من تلك الغزوة حتى كانت رقية، رضي الله عنها، قد توفيت، فحزن عليها عثمان أشد الحزن. وكان في الجاهلية يُكنّى بأبي عمرو، فلما أنجبت له رقية ابنه عبد الله أصبح يكنى به، ولكنه توفي صغيراً ـ كما ذكرنا ـ وتزوج بعد رقية أختها أم كلثوم، ولكنها لم تنجب له، وتوفيت أيضاً.

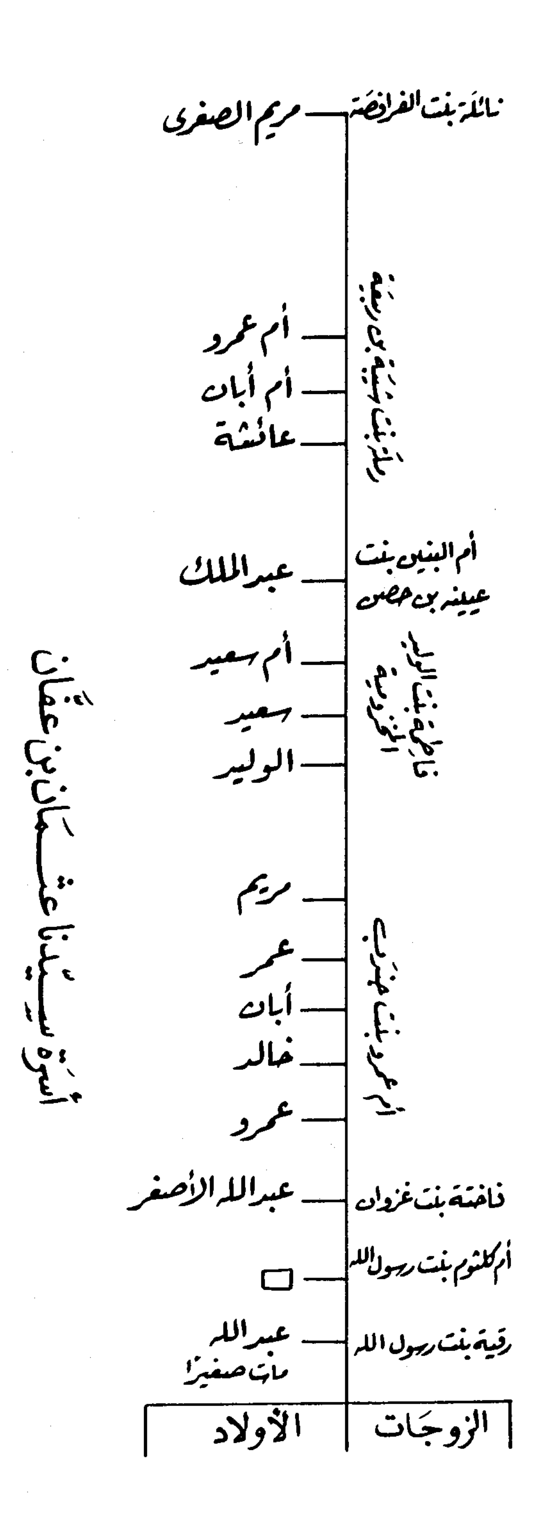
وتزوج فاختة بنت غزوان، وأنجبت له عبد الله الأصغر، وقد هلك. وتزوج أم عمرو بنت جندب فولدت له عمراً، وخالداً، وأبان، وعمر، ومريم. وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له سعيداً، والوليد، وأم سعيد، وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك إلا أنه هلك، وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة فولدت له عائشة، وأم أبان، وأم عمرو، ولم تنجب له ذكوراً. وتزوج نائلة بنت الفرافصة فولدت له مريم. وبهذا يكون قد تزوج ثمان زوجات، واستشهد وعنده ثلاث هن: أم البنين بنت عيينة، وفاختة، ونائلة. ووُلد له ٩ أولاد مات ثلاثة منهم صغاراً، وهم عبد الله وعبد الله الأصغر، وعبد الملك، وعاش الباقون وهم: عمرو، وخالد، وأبان، وعمر، والوليد، وسعيد. كما ولد له ست بنات وهن: مريم، وأم سعيد، وعائشة، وأم أبان، وأم عمرو، ومريم الصغرى.

وشهد عثمان، رضي الله عنه، المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي السنة السادسة سار رسول الله مع المسلمين إلى مكة ليزور البيت، ويؤدي مناسك العمرة، إلا أن قريشاً قد اعترضت سبيله، وظنت أنه قد جاء غازياً

على حين أنه قد ذهب زائراً للبيت ومعظماً له، وعلى الرغم من أن عدداً من زعماء قريش قد أقروا بذلك، ومع هذا فقد أصرّت قريش على تعنتها ورفضها، ورأى رسول الله ﷺ أن يرسل أحد صحابته ليفهم قريشاً ما أتى المسلمون من أجله لتخلي بينهم وبين ما أرادوا. ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

انطلق عثمان بن عفان إلى مكة، ووصل إلى أشراف قريش، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فأجابهم رضي الله عنه «ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ». وأبلغ عثمان قريشاً ما جاء من أجله، إلا أن قريشاً استمرت على إصرارها بمنع المسلمين من زيارة البيت، واحتبست عثمان بمكة حتى طال لبثه بها على رسول الله والمسلمين، وترامى إليهم أن قريشاً، غدرت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم». وأخذ رسول الله في مبايعة أصحابه، فتمت بيعة الرضوان من أجل عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وبايع رسول الله عن عثمان بإحدى يديه الأخرى.

وروى البخاري في صحيحه قال: جاء رجل من أهل مصر، حج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر، إني أسألك عن شيء فحدثني عنه، قال: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم. قال هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبيّن لك.


أسرة سيدنا عثمان بن عفان
الزوجات
الأولاد
نائلة بنت الفرافصة
مريم الصغرى
رملة بنت شيبة بن ربيعة
أم عمرو
أم أبان
عائشة
أم البنين بنت عيينة بن حصن
عبد الملك
فاطمة بنت الوليد المخزومية
أم سعيد
سعيد
الوليد
أم عمرو بنت جندب
مريم
عمر
أبان
خالد
عمرو
فاختة بنت غزوان
عبد الله الأصغر
أم كلثوم بنت رسول الله
رقية بنت رسول الله
عبد الله
مات صغيرًا

أما فراره يوم أُحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك لأجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى، هذه يد عثمان، فضرب بها على يده اليسرى، فقال: هذه لعثمان. فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

ولما أراد رسول الله ﷺ السير إلى تبوك، كان الناس في ضيق، وكان الجيش مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي، فطلب رسول الله التبرع من المسلمين وأعاد الطلب، فجهز عثمان الجيش حتى لم يفقد عقالاً ولا خطاماً. ويقال: إنه قد جهزه بتسعمائة وخمسين بعيراً، وخمسين فرساً، وجاء بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ﷺ، فقال رسول الله: «ما على عثمان ما فعل بعد اليوم: وتوفي رسول الله وهو عنه راض».

وكان في عهد أبي بكر يعدّ الكاتب الأول للخليفة، ويعدّ ثاني اثنين في تسيير شؤون الدولة بعد عمر بن الخطاب. وكان أصاب الناس في ذلك العهد قحط، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر، فقالوا: يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فماذا تصنع؟ قال: انصرفوا واصبروا فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرّج الله عنكم، فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان جاءت من الشام، وتصبح في المدينة فلما جاءت خرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موسوقة براً، وزيتاً، وزبيباً، فأناخت بباب عثمان، رضي الله عنه، فلما جعلها في داره جاء التجار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس، قال: حباً وكرامة كم تربحوني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: خمسة، قال: أعطيت أكثر من هذا، قالوا: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة

تجار غيرنا، وما سبقنا إليك أحد، فمن الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقةً لله على المساكين وفقراء المسلمين.

وكتب عثمان لأبي بكر كتاب استخلاف عمر بيده.

وكان عثمان في عهد عمر الرجل الثاني في الدولة، فإذا أراد الناس أن يسألوا عمر شيئاً لاذوا بعثمان لمكانه منه. فهو الذي أشار على عمر بتسجيل الناس في سجلات خاصة وإنشاء الدواوين، وهو الذي أشار عليه بكتابة التاريخ الهجري بدءاً من شهر المحرم، وكان لين عثمان مع شدة عمر تعادل شدة عمر مع لين أبي بكر، لذا فلم يتغير شيء في شؤون الدولة لين مع حزم وشدة مع عطف.

خلافة عثمان بن عفان

لما دفن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد أن صلى عليه صهيب، جمع المقداد بن عمرو أصحاب الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وكانوا خمسة وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، ومعهم عبد الله بن عمر، وطلحة بن عبيد الله غائب، وكان أبو طلحة الأنصاري يحرسهم، ويحجبهم من أن يدخل الناس إليهم.

تداول القوم الأمر، وتكلم كل منهم بكلمة تبيّن الإشفاق على الأمة والخوف من الفرقة. ثم قال عبد الرحمن بن عوف وقد كان في البداية أول المتكلمين «أيكم يخرج منها نفسه، ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟» فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها؛ فقال عثمان: أنا أول من رضي، فإني سمعت الله ﷺ يقول: «أمين في الأرض أمين في السماء»، فقال القوم: قد رضينا ـ وعلي ساكت ـ فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: اعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة! فقال: اعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغيّر، وأن ترضوا من اخترت لكم، عليّ ميثاق ألا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلو المسلمين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعلّي: إنك تقول: إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك، وسابقتك، وحسن أثرك في الدين ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال: عثمان. وخلا بعثمان؛ فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله ﷺ، وابن عمه، لي سابقة وفضل ـ لم

تبعد ـ فلن يصرف هذا الامر عني، ولكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرهط أحق به؟ قال: علي. ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان، فقال: علي. ثم خلا بسعد، فكلمه، فقال: عثمان، وهكذا حصر الأمر بين علي وعثمان، ولم يرد عبد الرحمن بن عوف أن يختار هو فيرجح الكفة، ويُنظر إليه أنه هو الذي اختار أو عيّن، فقد كانوا، رضي الله عنهم، يريدون أن يبتعدوا عن مثل هذه المواقف والمواطن.

ودار عبد الرحمن يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم، فكان أكثرهم يشير إلى عثمان، حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل، وهو ثلاثة أيام، أتى منزل المسور بن مخرمة بعد ابهيرار من الليل، فأيقظه فقال: ألا أراك نائماً ولم أذق هذه الليلة كثير غمض! انطلق فادع الزبير، وسعداً. ويبدو أن عبد الرحمن رغب أن ينهي القضية بين أصحاب الشورى بالذات بالمناقشة، وأن يدع رأي من استشار خارجهم، وعسى أن يوفق في كسب رأي الزبير وسعد إلى جانب أحد صاحبي الأمر عثمان أو علي، وبعد اجتماعه بالزبير ثم بسعد رأى أن رأيهما لا يزال كالسابق، عندها حزم رأيه أن يأخذ البيعة لأحدهما أمام الصحابة حتى تكون أقوى وحتى لا تكون محاباة ـ معاذ الله ـ وحتى لا يستطيع أحدهما أن يعترض أو يظن شيئاً. وبعد أن صلى المسلمون الفجر في المسجد، جمع عبد الرحمن أصحاب الشورى، وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى غصّ المسجد بأهله. فقام عبد الرحمن وقال: أيها الناس، إن الناس قد أجمعوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم. فأبدى بعض المسلمين رأيهم فتكلم سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأعطى رأيه لصالح عبد الرحمن إذ قال: إن نراك لها أهلاً، فقال عبد الرحمن: أشيروا عليّ بغير هذا! فقام عمار بن ياسر وأيّد علياً، ووافقه المقداد بن عمرو، ثم قام عبد الله بن سعد بن أبي سرح فأيد عثمان ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة. وكادت الأصوات تعلو، وعندها

وقف سعد بن أبي وقاص وقال: يا عبد الرحمن، افرغ قبل أن يفتن الناس، فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً، ودعا علياً، فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي، قال: نعم، فبايعه، وبايع الناس جميعاً.

وهكذا استطاع عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، ألا يجعل خلافاً ولا فرقة، وألا يدخل رأي غير أصحاب الشورى الذين كانوا بجانب عثمان، وألا يقف بجانب واحدٍ من الرجلين وقد تساوت الآراء وتعادلت الأصوات، لقد استطاع هذا بمعرفة طبيعة الصحابيين الجليلين، رضي الله عنهما.

وفي اليوم الذي بويع فيه عثمان قدم طلحة بن عبيد الله أحد رجال الشورى ـ وقد كان غائباً ـ فقيل له: بايع عثمان، فقال: أكل قريش راضٍ به؟ قال: نعم، قال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم، قال: قد رضيت، لا أرغب عما قد أجمعوا عليه، وبايعه.

وقد أكثر الرواة في ذكر رجال الشورى وما دار بينهم في هذه الأيام الثلاثة، وظهرت التناقضات بين الرواة، كما بدا الخلاف بين الصحابة حتى إن القارئ ليشعر أولئك النخبة المختارة قد تنافسوا على الإمارة تنافس أهل هذا الزمن إن لم نقل إنهم قد سبقوهم في ذلك، وما هذا بطبيعتهم، كما لا يتفق هذا مع إيمانهم وخوفهم في تحمل التبعة وفتنة الدنيا. والواقع أن بيعة سيدنا عثمان لا تعقيد فيها ولا منافسة، لذا لم يتخلف رجل عن البيعة، ولم يعقبها أية حادثة تدعو إلى الشقاق أو يؤول بها إلى ذلك.

وصعد عثمان بعد بيعته المنبر وهو أكثر أهل الشورى كآبة، وتكلم كلمة قصيرة نصح فيها الناس وذكّرهم بالآخرة، وحذّرهم من فتنة الدنيا.

وكانت بيعته، رضي الله عنه، في الأيام الأخيرة من شهر ذي الحجة

إلى غرة المحرم من السنة الرابعة والعشرين من هجرة رسول الله ﷺ: وكان الولاة على الأمصار كما يلي:

والي مكة المكرمة: نافع بن عبد الحارث الخزاعي.

والي الطائف: سفيان بن عبد الله الثقفي.

والي صنعاء: يعلى بن منبه، حليف بني نوفل بن عبد مناف.

والي جَنَد: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.

والي الكوفة: المغيرة بن شعبة الثقفي.

والي البصرة: أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري.

والي الشام: معاوية بن أبي سفيان الأموي.

والي حمص: عمير بن سعد.

والي مصر: عمرو بن العاص السهمي.

والي البحرين: عثمان بن أبي العاص الثقفي.

الفصل الثالث

الفتوحات في عهد عثمان

لقد كان عهد عثمان، رضي الله عنه، مليئاً بالفتوحات، وهي تتمة لما كان أيام الخليفة السابق له وهو عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ولقد استمرت هذه الفتوحات في البر والبحر مدة عشرة أعوام إلا أن ما حدث في العامين التاليين لها من فتنة، قد جعلها تنسى فطغت الفتنة حتى حسب الناس أن عهد عثمان لم يكن سوى فتنة واختلاف نشأت من بيعته ودامت بقية حياته التي انتهت باستشهاده.

كان أمير الشام معاوية بن أبي سفيان قد قام بغزو الروم ووصل إلى عمورية قريباً من انقرة اليوم، وكان معه من صحابة رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وأبو ذر الأنصاري، وشداد بن أوس.

لقد فتح المسلمون مناطق واسعة، وكان عدد جندهم قليلاً بالنسبة إلى تلك الأراضي الشاسعة، وبالنسبة إلى أعداد أعدائهم الكبيرة، وهذا ما جعلهم لا يتركون في المناطق التي يصالحونها إلا الجند القليل، ولا يبقون في البقاع التي يفتحونها إلا العدد الضئيل، وبخاصةٍ أنه كانت هناك جبهات مفتوحة، وثغور يجب حمايتها، ومراكز يجب الدفاع عنها والتجمع فيها للإمدادات في الأوقات اللازمة، كل هذا جعل عدد المسلمين قليلاً في البلاد المفتوحة حديثاً، وجعل أهلها يشحون في دفع الجزية، ويظنون أن بمقدورهم هزيمة المسلمين وقتالهم، وأن ما حدث معهم في المرة الأولى لم يكن سوى أخطاء ارتكبوها وقد عرفوها فيما بعد، ثم يتحسرون على عزهم الزائل وأيام مجدهم الخالية، لذا كانوا يتحينون الفرص للانقضاض

على المسلمين ونقض عهودهم معهم ـ هكذا النفس البشرية ـ ومن هنا كان نقض العهد كثيراً. وقد انتهز الفرس والروم في المناطق التي دخلها المسلمون وفاة خليفتهم عمر بن الخطاب، ونقضوا العهد، وظنوا أن أمر المسلمين قد ضعف، ولكنهم فوجئوا بأن قوة المسلمين على ما هي عليه لم تختلف أيام عمر عن أيام عثمان الخليفة الجديد، وقد أدب المسلمون خصومهم مرة ثانية.

الجبهة الغربية: نقضت الإسكندرية عهدها عام ٢٥هـ، فسار إليها أمير مصر عمرو بن العاص، وقاتل أهلها، وأجبرهم على الخضوع، والعودة إلى عهدهم.

وكان عمر بن الخطاب قد منع عمرو بن العاص من الانسياح في إفريقية بعدما فتح طرابلس، إلا أن عثمان بن عفان قد سمح بذلك، وأرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس قوة، فاجتاز طرابلس، واستولى على سفن للروم كانت راسية هناك على الشاطيء، ثم واصل سيره في إفريقية، والتقى بجيوشٍ للبيزنطيين عام ٢٧هـ في موقع يقال له (سبيطلة) في جنوب غربي القيروان التي لم تكن قد أسست بعد، وقد قتل عبد الله بن الزبير، وكان مع الغزاة في تلك الموقعة القائد البيزنطي (جرجير)، وكان ذا أثر فعّال في الانتصار الذي أحرزه المسلمون على الروم، إلا أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد اضطر إلى عقد معاهدة للصلح مع البيزنطيين مقابل جزية سنوية يدفعونها على أن يخلي إفريقية، وكان ذلك الاضطرار بسبب سيره إلى مصر لمواجهة النوبة الذين هددوا مصر من ناحية الجنوب.

وفي أيام عمر بن الخطاب ألح أمير الشام معاوية بن أبي سفيان على الخليفة عمر في غزو البحر وقرب الروم من حمص وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه؛ فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير؛ إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد

فيه اليقين قلةً، والشك كثرةً، هم فيه كدودٍ على عودٍ، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: (لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً). فلما ولي عثمان لم يزل به معاوية؛ حتى عزم على ذلك بأخرة، وقال: لا تنتخب الناس، ولا تُقرع بينهم، خيّرهم؛ فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي[1] حليف بني فزارة.

غزا معاوية قبرص وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين كل سنة وذلك عام ٢٨هـ، وساعد أهل مصر في تلك الغزوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما وصل إلى قبرص، كان معاوية على الناس جميعاً، وكان بين الغزاة من صحابة رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو، وشداد بن أوس، وأبو ذر الغفاري، وكانت مع عبادة بن الصامت زوجه أم حرام.

وغزا حبيب بن مسلمة بعض أرض سورية التي كانت لا تزال بيد الروم وذلك عام ٢٨هـ.

وفي عام ٣١هـ جرت معركة بحرية حاسمة بين المسلمين والروم بالقرب من شواطئ كيليكيا، وهي التي تعرف بذات الصواري، وعرفت بذلك لأن صواري السفن ربطت بعضها مع بعض المسلمة والرومية، وذلك بعد أن أمن بعضهم بعضاً واختار الروم قتال البحر، وكان قائد المسلمين

---

(١) غزا عبد الله بن قيس خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده، خرج في قارب طليعة، فانتهى إلى المرقى من أرض الروم، وكان هناك ناس يسألون فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من الذين كانوا يسألون إلى القرية، وقالت: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى، قالوا: ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كالملك،، فعرفت أنه عبد الله بن قيس. فثاروا إليه، فتجمعوا عليه، وقاتلوه حتى أصيب وحده، وأفلت الملاّح حتى رجع إلى أصحابه، فتسلم الإمرة بعده سفيان بن عوف الأزدي.

أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقائد الروم الأمبراطور نفسه قسطنطين الثاني الذي كان يقود أكثر من خمسمائة سفينة، ومع ذلك فقد فرّ من المعركة، وهزم الروم شرّ هزيمة. وكانت صواري السفن من أشجار السرو والصنوبر وهذا ما يدل على أهمية الأشجار والغابات لكلا الطرفين، وجبال تلك الشواطئ كانت مليئة بهذه الأنواع من الأشجار.

وفي عام ٣٣هـ غزا أمير الشام معاوية بن أبي سفيان حصن المرأة من أرض الروم قرب ثغر ملاطية.

ونقضت إفريقية العهد عام ٣٣هـ فسار إليها أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ففتحها ثانية، وأجبر أهلها على الخضوع والعودة إلى دفع الجزية بعدما منعوها.

الجبهة الشرقية: غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينيا، وكان أهلهما قد منعوا ما صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب، وكان على مقدمة الوليد سلمان بن ربيعة الباهلي، واضطر سكان المنطقتين إلى المصالحة من جديد.

وأمد أهل الكوفة أهل الشام بثمانية آلاف رجل بإمرة سلمان بن ربيعة الباهلي، وذلك عندما كان حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري يغزو أرمينيا من الغرب، فاجتمع له عدد كبير من جند الروم الأمر الذي أخافه وطلب المدد فأنجده الوليد بن عقبة بسلمان بن ربيعة الباهلي.

وسار أمير خراسان عمير بن عثمان بن سعد غازياً حتى وصل إلى فرغانة وذلك عام ٢٩هـ، كما سار في العام نفسه أمير سجستان عبد الله بن عمير الليثي فوصل إلى كابل، وانطلق أمير كرمان عبيد الله بن معمر التميمي فوصل إلى نهر السند. وانتفض أهل اصطخر فسار إليهم عبد الله عامر بن كريز أمير البصرة، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص.

وسار أمير الكوفة سعيد بن العاص يريد خراسان ومعه الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر،

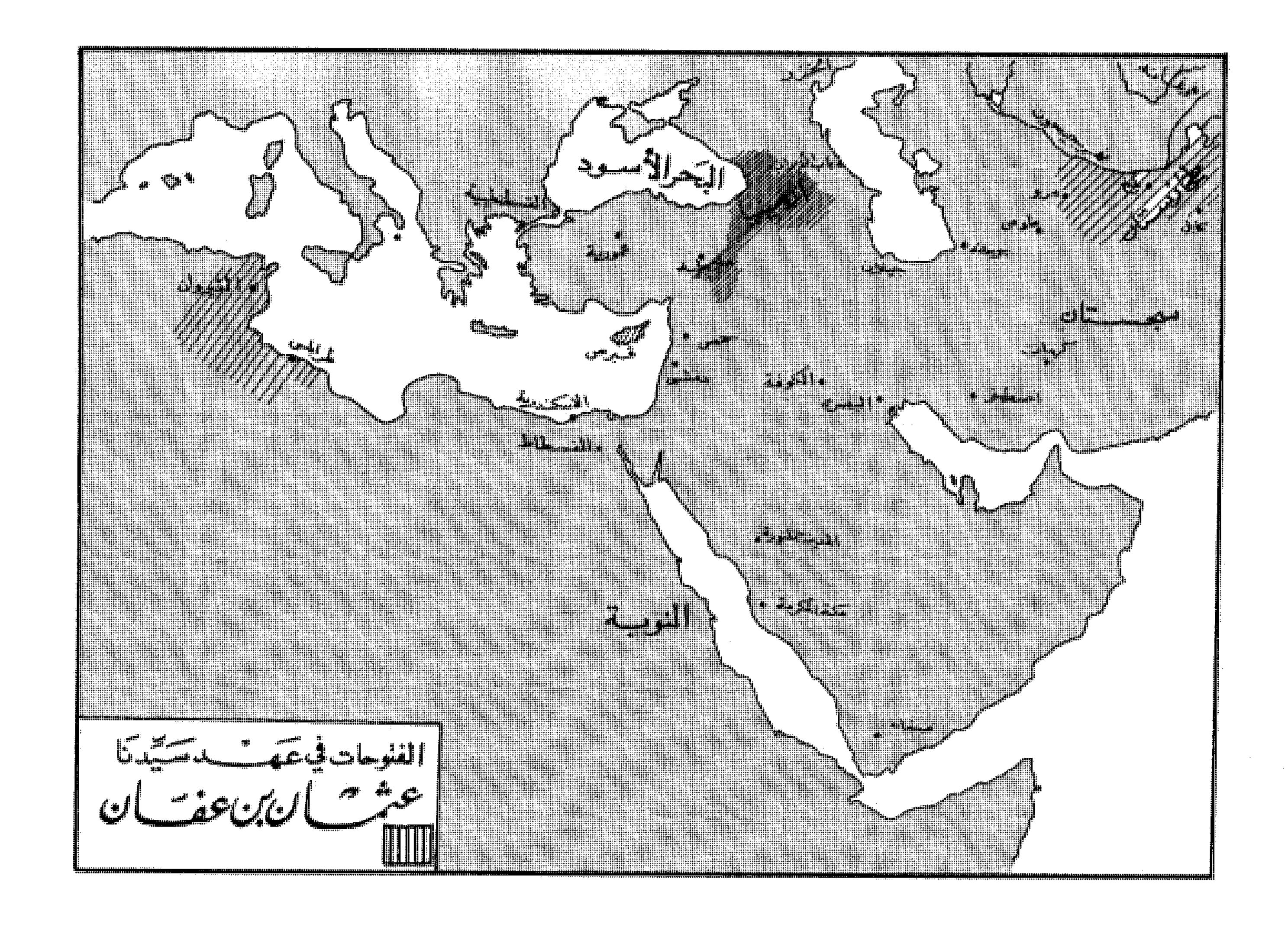
وعبد الله بن الزبير، إلا أن أمير البصرة عبد الله بن عامر قد سبقه نحو خراسان الأمر الذي جعل سعيداً يسير إلى قومس وهي لا تزال على الصلح الذي أعطته لحذيفة بن اليمان بعد معركة نهاوند، ومن قومس سار إلى جرجان فصالحه أهلها على مائتي ألف، وسار نحو الشمال حتى وصل إلى الصحراء، ولكن أهل جرجان لم يلبثوا أن كفروا واستمروا في قطع الطريق حتى تولى أمر خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي.

وسار عبد الله بن عامر إلى فارس بعد أن انتفضت، فافتتحها وهرب يزدجرد إلى كرمان، فأرسل في أثره مجاشع بن مسعود السلمي ففر يزدجرد إلى خراسان، وطلب المال من مرو فمنعه، ثم التجأ إلى رجل على شاطئ نهر مورغاب يعمل في نقر أحجار الرحى فقتله.

ووصل عبد الله بن عامر إلى خراسان، وكانت قد انتفضت، وكان الأحنف بن قيس على مقدمته، ففتح طوس، وأبيورد، ونسا، وبلغ سرخس، وصالح أهل مرو، وأعاد فتح خراسان.

وفي عام ٣٢هـ كتب عثمان إلى أمير الكوفة سعيد بن العاص أن أرسل سلمان بن ربيعة الباهلي للغزو في منطقة الباب، فسار سلمان إليها، وكان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي يخوض معركة ضد خصومه، فاستشهد فيها وتفرق المسلمون هناك، فمنهم من سار إلى جيلان وجرجان ومنهم أبو هريرة، وسلمان الفارسي، ومنهم من سار نحو سلمان بن ربيعة الباهلي فحماه، وكان على الحرب مع سلمان حذيفة بن اليمان، وطلب عثمان من أهل الشام في أرمينيا بإمرة حبيب بن مسلمة أن ينجدوا سلمان بن ربيعة الباهلي في منطقة الباب ففعلوا.

وعادت خراسان فانتفضت من جديد فبعث عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو الروذ فصالح أهلها، واجتمع عليه أهل (الطالقان) و (فارياب) و (الجوزجان) و (طخارستان) فانتصر عليهم بإذن الله، وصالح أهل (بلخ)، وأرسل الأقرع بن حابس إلى (الجوزجان) ففتحها. ثم عاد الأحنف إلى خراسان مرة ثالثة في عام ٣٣هـ.



الفتوحات في عهد سيدنا
عثمان بن عفان
البحر الأسود
النوبة
قبرص
الإسكندرية
الفسطاط
دمشق
الكوفة
البصرة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
سجستان
طرابلس

وهكذا فقد كانت الفتوحات أيام سيدنا عثمان بن عفان واسعة إذ أضافت بلاداً جديدة في إفريقية وقبرص وأرمينيا، وأجبرت من نقض العهد إلى الصلح من جديد في فارس، وخراسان، وباب الأبواب، وضمت هناك إضافة إلى ذلك فتوحات جديدة في بلاد السند، وكابل، وفرغانة.



المجتمع الإسلامي أيام عثمان

كان المجتمع الإسلامي أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فاضلاً ومتماسكاً، ولم يختلف يوم تولى الأمر عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إن لم نقل أن الرضا كان من عثمان أكثر من عمر للينه، وقد ملّ المجتمع الحزم، ولرفقه وقد تعب الناس من الشدة وإن حاول الكثير إظهار الخلاف الكبير بين العهدين، والرضا بعهد عمر، وإنقاص حق عهد عثمان. ولم يكن للشورى التي أوصلت عثمان إلى الخلافة أي أثر في المجتمع، إذ تمت بشكل طبيعي ودون أن يحاول أحد رجالها أن يسعى للحكم أو يعمل، فعبد الرحمن بن عوف ـ كما نعلم ـ سلخ نفسه منها، والزبير رشح غيره، وكذا سعد، ولم يبق إلا علي وهو رجل زاهد فيها من البداية إلى النهاية، وبايع عثمان كما بايع غيره، ولم يختلف أحد من المسلمين.

إلا أن المشكلة التي كثر البحث فيها هي قتل الهرمزان، وجفينة، وابنة أبي لؤلؤة على يد عبيد الله بن عمر، فالحادثة التي قتل فيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جريمة سياسية اشتركت فيها أطراف متعددة من مجوس، ويهود، ونصارى... بعضهم كان يظهر الإسلام، وبعضهم من بلاد ثانية كان لهم دور في التخطيط للقتل... والمشتركون فيها لا بدّ من قتلهم قصاصاً، ووضعاً للحد من جرائم القتل وعبث أعداء الإسلام بأهله، إلا أن القتل لا بدّ من أن يكون برأي الخليفة حتى لا يكون تعدٍ على صلاحيات صاحب الأمر، وحتى لا يفلت زمام الأمر، ويقوم بتنفيذ الأحكام كل امرئٍ حسب رأيه وهواه باسم إقامة الحدود... ولما قام بالأمر عبيد الله بن عمر فلا بدّ من حسابه، ولكن الخليفة أيضاً هو الذي يحاسبه وينظر في أمره

وليس سوى ذلك، لذا فقد حُبس عبيد الله بانتظار رأي الخليفة الجديد، فلما تولى عثمان كانت هذه أول مشكلة واجهته، ولا بدّ من إقامة الحد وهو القتل، وهذا ما أشار به علي بن أبي طالب وعدد من الصحابة، وقد صعب على عدد آخر أن يقتل عمر بن الخطاب بالأمس بأيدٍ قذرةٍ واليوم يقتل ابنه، إلا أن المسلم لا يقتل بغير المسلم، وشك الناس في إسلام الهرمزان لذا فقد عرضوا على عثمان أن يكون هو ولي أمر المقتولين بصفتهم غرباء، وأن يدفع الدية من بيت المال وتعود، إذ أن بعضهم لا أولياء لهم، وفكر بعضهم أن يقوم الخليفة بدفع الدية من ماله الخاص، وعلى كلٍ فإن الخليفة لا يمكن أن يقبل بهذا التحايل لتعطيل حدٍ من حدود الله، ولكنه دفع عبيد الله بن عمر إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بابيه، إذ عدَّ الهرمزان مسلماً، فيقول القماذبان: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمرّ فيروز بأبي، ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه، وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: آنس به، فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز. فأقبل عبيد الله فقتله، ولما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منّا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إلي فيه. فقلت لهم: ألي قتله؟ قالوا: نعم ـ وسبّوا عبيد الله ـ فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبّوه فتركته لله ولهم. فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم[1]. وبهذا فقد عفا صاحب الحق، وعندها قام عثمان بدفع الدية من ماله الخاص، أما الذين لا أولياء لهم فالخليفة هو وليهم، وقد دفع الدية لهم ثم ردت إلى بيت المال. وهكذا حلت هذه المشكلة بطريقة سليمة، وانقطع الحديث فيها، وعاد للمجتمع تماسكه ورجع فاضلاً كما كان، إلا أنه مع الزمن بدأ يفقد مقوماته تدريجياً، وهذا الأمر يعود لأسباب منها ما تتعلق بالخليفة بالذات، ومنها ما يتعلق بتغير الظروف، ومنها ما يتعلق بالسياسة التي سار عليها.

(١) تاريخ الطبري: الجزء الرابع.

كان عمر بن الخطاب حازماً شديداً على أمرائه وهذا ما أخاف الناس وجعل له هيبة بينهم بحيث لا يجرؤ أحد على مخالفته، فقد روى ابن الجوزي: أن عمر قدم مكة، فأقبل أهلها يسعون، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن أبا سفيان ابتنى داراً فحبس مسيل الماء ليهدم منازلنا، فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً، فقال عمر: ارفع هذا، فرفعه ثم قال: وهذا، وهذا، حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة، ثم استقبل عمر الكعبة فقال: الحمد لله الذي يجعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه[1].

وروى الطبري: أن عمر، رضي الله عنه، جاءه مال، فجلس يقسمه بين الناس فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدرة، وقال: أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك.

أما عثمان فقد كان ليناً للناس الأمر الذي أطمعهم فيه، وطالبوه بأشياء كثيرة منها عزل الولاة، فقد عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى سعد بن أبي وقاص، ثم عزله وولى الوليد بن عقبة، ثم عزله وولى سعيد بن العاص، ثم عزله وولى أبا موسى الأشعري. وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز. وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح. كما كان ليناً على الولاة فتطاول بعضهم عليه. فعثمان، رضي الله عنه، كان بطبعه ليناً، وعمر بطبعه حازماً.

واشتد عمر على أهله، فكان إذا نهى عن شيء جمع أهله فقال لهم: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير

(١) الحادثة غير صحيحة حيث كان أبو سفيان أثناء خلافة عمر أعمى إذ فقد عينه الأولى يوم الطائف، والثانية يوم اليرموك، والأعمى لا يستطيع أن يرفع الحجر ويضعه في مكان محددٍ.

إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، إني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا اضعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر، أما سيدنا عثمان فقد كان ليناً على أهله وأقربائه كما كان لينا للناس جميعاً، بل الأولى والأحرى أن يكون ذا رفق بذي رحمه، ويوم قامت الدولة الإسلامية كان ينفق ما شاء الله أن ينفق على الدولة وتجهيز الجيوش، وإعداد الغزو، فلما قامت الفتوحات، وجاءت الغنائم والفيء، وأصبحت الدولة بحالة غنى وثراء التفت عثمان إلى أقربائه يعطيهم ويتقرب إليهم ويقربهم، وهذا أمر محبب ومطلوب يصل الإنسان رحمه، فهذا اللين لهم قد أطمعهم فيه أيضاً، وولى بعضهم لقدرته على العمل، وكفاءتهم في الإمارة، وقد كان بعضهم صاحب ولاية من قبل عثمان، وقد عرف رضي الله عنه أنه يحب أقرباءه لدرجة كبيرة.

عندما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة كانت ماديات الدولة لا تزال ضعيفة وأحوال الناس المالية لا تزال قليلة، لذا كانوا أقرب إلى الحياة البسيطة الهادئة، والرضا بكل ما يأتي، والصبر على الشدائد، وقبول أوامر الولاة والأمراء، إضافة إلى انشغالهم بالجهاد والسير إلى الثغور والانطلاق من وراء الفتوحات في سبيل الدعوة ونشر الإسلام، فلما توسعت الدولة، وجاءتها الغنائم من كل جهة، وزعت الغنائم على المقاتلين، وأعطيت الأموال إلى الناس حتى كثرت بأيديهم، وبطبيعة الحال فإن سيدنا عثمان كان يعطي ويوزع ما في بيت المال لكثرة ما يدخل، ولحاله وكرمه المعروفين، بل كان أحياناً يعطي من ماله الخاص إن لم يكن في بيت المال من فائض، وهذا ما جعل الحال تتغير تدريجياً عن أيام عمر حتى أواخر عهد عثمان حتى زادت زاوية التغير انفراجاً، ووصلت إلى درجة واسعةٍ نسبياً في نهاية أيام عثمان.

وجاءت الفتوحات وحملت العرب والمسلمين إلى الأمصار يجاهدون في سبيل الله، ومنهم من يقيم في الثغور، ومنهم من يستقر في البلاد التي مصّرت ليكون قريباً من ساحات القتال، وهناك يبتني داراً له، ويتخذ لنفسه

أسرة، وليسوا هؤلاء كلهم من صحابة رسول الله ﷺ الذين اهتدوا بهديه فساروا على نهجه وإنما كثير منهم من الأعراب من تميم، وكندة، وقضاعة، وكلب، وباهلة، وعبد القيس، وبكر بن وائل، وكانت لهم في الفتوحات يد فكانوا يشعرون بأن لهم فضلاً ما للسابقين، ولهم قوة يجب أن يحسب لها حساب، ورأي يجب أن يسمع بل ويؤخذ به، وكثرت بأيديهم الأموال ـ كما ذكرنا ـ فعندما يتوقف الغزو سيكون أمرهم صعباً، وأخذهم بالحزم مشكلة. وفي الوقت نفسه قلّ سكان المدن في الجزيرة وبخاصة مدينة الرسول ﷺ إلا أنه قد جاءها نتيجة الفتوح الموالي والأرقاء فتغيرت طبيعتها الأولى التي كانت متشابهة، وأقرب إلى البساطة وأميل إلى البداوة، فأصبحت متنوعة تنوع من جاء إليها ومختلفة باختلاف حضارات الذين دخلوا إليها، وهذا ما جعل تمازجاً بين السكان من بيئات متباينة جعلت في النهاية سياستها صعبة أو على الأقل تختلف عما كانت عليه، وينظر الناس بعضهم إلى بعض نظرات متباينة يكاد ينشأ عنها نوع من الطبقات لا يعرفها الإسلام ولا يقرّ بها، وفي هذه الأثناء تظاهر جماعات بالإسلام، وفي نفوسهم شيء يريدون أن يحققوه ومنهم عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء وهو من يهود صنعاء، ومعروف ما يريده اليهود، ومعروف مكرهم، وقد رأى أن تظاهره بالإسلام يرفعه إلى مستوى المسلمين جميعاً، إذ ليس في الإسلام طبقات وفروق اللهم إلا ما كان في الأعطيات لأصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار ومن شهد بدراً، والإسلام يجب ما قبله.

كان عمر بن الخطاب قد منع كبار الصحابة من الخروج من المدينة، وأبقاهم بجانبه ليكونوا مستشارين له، وحتى يبقوا أسمى من مغريات الدنيا التي تعترض سبيلهم في البلاد المفتوحة، وخوفاً على المسلمين الذين يدخلون في الإسلام جديداً من أهل الأمصار من أن يفتنوا بهؤلاء الصحابة فيقولون: هؤلاء صحابة سيد الخلق، وصحابة رسول الله و... وقال لهم رضي الله عنه: كفاكم ما جاهدتم به مع رسول الله ﷺ، فلما جاء

عثمان بن عفان سمح لهم بالانسياح في أرض الله، والانطلاق أينما شاءوا، وقد زاد حالهم وكثرت أملاكهم، وبنوا الدور في الأمصار، فقد بنى الزبير بن العوام داراً له بالبصرة وغيرها في الكوفة وفي مصر، وبنى طلحة بن عبيد الله داراً له في الكوفة، وكانوا ينتقلون بين أملاكهم وضياعهم، وهذا بالإضافة إلى ما بناه عبد الرحمن بن عوف في المدينة، وزيد بن ثابت وغيرهم، وارتبط أهل الأمصار بمن كان يتصل بهم ويحتك معهم من صحابة رسول الله ﷺ.

وهكذا تغير المجتمع في عهد عثمان بن عفان، إلا أنه رضي الله عنه لم يغيّر ولم يبدل، ولم يحدث جديداً، ولم يبتعد عن سيرة رسول الله ﷺ، ولا عن نهج الشيخين من قبله، وإنما لينه وحبه لأقربائه وكرمه في العطاء قد أطمع فيه فكثر القول، ووجود الموالي والأرقاء في المدينة والصحابة خارجها قد شجع أصحاب الأهواء البدء في العمل بالخفاء، وكثرة الأموال في أيدي الناس واكتفاؤهم قد جعل الألسنة تتكلم وبدأ الحديث عن الخليفة نقطة انطلاق، والتهديم في المجتمع بدء ارتكاز.

بدأت الفتنة عندما أشعلها عبد الله بن سبأ (ابن السوداء)، وهو من يهود صنعاء، وكانت أمه سوداء، لذا عُرف بذلك، وقد أسلم أيام عثمان ليستطيع التأثير على نفوس أولئك الأعراب والبداة والذين دانوا حديثاً بالإسلام من سكان الأمصار، إذا تنقل في بلدان المسلمين فبدأ بالحجاز، ثم سار إلى البصرة، ومنها إلى الكوفة، ثم إلى الشام، إلا أنه لم يستطع التأثير على أحد من أهل الشام، وبعدها أخرجوه إلى مصر حيث استقر هناك، وكان في كل مكان يحلّ فيه يتصل بالأشخاص ويتحدث إليهم ويبدي تفهمه للإسلام، ويُظهر معرفته، ويقف موقف العالم، فيقول: عجيب من يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً يرجع، والله سبحانه وتعالى يقول: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد». فمحمد أحق بالعودة والرجوع من عيسى. وهكذا بدأ بالتشكيك في العقيدة، والناس على فطرتهم حديثو العهد بالإسلام في الأمصار لا يعرفون الفلسفات

والمناقشات، والبدو الذين يعيشون معهم أكثر جلافة وإذا اقتنعوا بشيء صعب استخلاصه من نفوسهم بالأمر السهل. ورأى هذا اليهودي أن علي بن أبي طالب على رأس الصحابة الذين بقوا من حيث الاحترام والتقدير، بل يعد الشخص الثاني بعد الخليفة، وله عند الشيخين مركز ووزن يستشار في كل أمر، ويدعى في كل معضلة، ويؤخذ رأيه في كل مشكلة، هذا بالإضافة إلى قرابته من رسول الله ﷺ وعلمه وفهمه، لذا رأى هذا الخبيث أن يركز على هذا الصحابي الجليل، وأن يدعو له لا حباً به وتقديراً، وإنما لبذر الفتنة في المجتمع، وحتى لا يُعرف مخططه فيظهر أنه يدعو للشك والريبة، فدعوته لأحد البارزين من الصحابة تخفي ما يضمر، وتقرّبه من نفوس بعض الرجال الذين يعرفون قدر علي. فكان يقول: إن علياً هو وصي محمد ﷺ، فإن لكل نبي وصياً. ثم انتقل بعد بذر الفتنة وإلقاء جذور البلاء في المجتمع يطعن بالخليفة نفسه وبولاته وأمرائه وأنهم دون الصحابة الأجلاء، وأنهم لم يحتلوا هذه المراكز إلا لكونهم من ذوي رحم الخليفة الذي بلغ من العمر عتياً، وأنهم قد أثروا عليه، وأصبح أداة طيعة في أيديهم، مع العلم أن إمرة المفضول تصح مع وجود الفاضل، وأن إمارة القوي المسلم خير من إمارة المؤمن التقي الورع إذا لم يكن في قوة ذاك، إضافة إلى أن أكثر ولاة سيدنا عثمان كانوا قد تسلموا الإمارة أيام سيدنا عمر...

ظهرت بذور الشر أول ما ظهرت في الكوفة إذ بدأ الحديث عن الوالي سعيد بن العاص حتى وصل إلى الخليفة، وذلك على ألسنة العوام وأولئك البداة والذين دانوا بالإسلام، ومن هؤلاء مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وثابت بن قيس النخعي، وكميل بن زياد النخعي، وزياد بن صوحان العبدي، وجندب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأمثالهم من أهل الصحراء والقبائل. وكان ذلك في أواخر عهد سيدنا عثمان، وبعد مرور عشر سنوات على تسلمه الخلافة، وفي عام ٣٤هـ، سُيّر هؤلاء المنحرفون من الكوفة إلى

الشام، إلا أنهم ردّوا مرة ثانية إلى الكوفة، فقالوا: إن الكوفة والشام ليستا لنا بدار، فاتجهوا إلى الجزيرة، فشدد عليهم واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وسيّر الأشتر إلى المدينة، فخيّره الخليفة في المكان الذي يرغب سكناه، فاختار منطقة عبد الرحمن بن خالد، وسار إليه. وكان ابن السوداء في مصر يراسل من أثّر عليهم في كل الأمصار، ويزيد في إضرام نار الفتنة.

جمع الخليفة عثمان بن عفان أمراء الأمصار في موسم الحج عام ٣٤هـ وهم: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، واستشارهم في أمر هؤلاء المنحرفين، وما يتكلمون به، فأشير عليه بأن ينقل هؤلاء المنحرفين إلى الثغور فينشغلوا بأنفسهم كما اقترح عليه عدم إعطائهم الأعطيات حتى يرضخوا للأمر ويُطيعوا. ولكنه لم ير هذا الرأي ولا ذلك. ولما كثر الكلام عن سعيد بن العاص أمير الكوفة، والمطالبة بأبي موسى الأشعري بدلاً عنه، استجاب الخليفة للطلب فعزل سعيداً وولّى أبا موسى مكانه، وكتب لأهل الكوفة «أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتهم منه، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم علي حجة». وفي الوقت نفسه سار حذيفة بن اليمان غازياً إلى باب الأبواب.

لم تفد المخربين أعمال الخليفة ولينه لهم بل استمروا في تصرفاتهم وكلامهم، فأرسل الخليفة بعض الصحابة إلى الأمصار يستطلعون آراء الناس، ويعرفون أخبار المسلمين وموقفهم، فقد بعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمّار بن ياسر إلى مصر، ورجالاً آخرين سواهم، فرجع الجميع ولم ينكروا شيئاً، إلا عمّار بن ياسر فقد تأخر واستمع إلى ما كان يشاع.

وجاء وفد من مصر في رجب عام ٣٥هـ إلى الحجاز يظهرون أنهم يريدون العمرة، وفي نيتهم مناظرة الخليفة ومناقشته في المدينة لبلبة الآراء وإشعال نار الفتنة، وتمت مقابلة الخليفة، وأبدى رأيه، وأقنع الوفد خارج المدينة بنفسه أو بواسطة بعض الصحابة منهم علي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة، ودخل بعضهم المدينة، وحضر خطبة للخليفة أثنى فيها على الوفد، واستغفر الله، وبكى وأبكى الناس، وانصرف المصريون راجعين إلا بلادهم.

إلا أن أهل مصر عندما رجعوا بدؤوا يحرّضون الأمصار على التوجه إلى المدينة وإظهار الشكوى والتأفف من العمال والأوضاع العامة لأن المدينة أحرى بالفوضى أن تؤثر فيها، إذ أنها مقر الدولة، ومركز الخليفة، ومكان الصحابة، ومدينة رسول الله ﷺ، ثم اتفقوا على أن يسيروا إلى المدينة في شهر شوال في ذلك العام، وأن يكون مسيرهم مع الحجاج لمغافلة الصحابة، وإمكانية نشر الفساد على نطاق أوسع. وانطلق أهل مصر وعددهم ٦٠٠ ـ ١٠٠٠ رجل، وفي الوقت نفسه انطلق أهل الكوفة، وأهل البصرة، وقد خرجت كل جماعة على شكل فرق أربع، وعلى كل فرقة أمير، وعلى الجميع أمير، فالأمر يبدو على تخطيط وتنظيم واحد دقيق، وكان على أهل مصر الغافقي بن حرب العكي، ومعهم ابن السوداء، وهم يريدون البيعة لعلي بن أبي طالب، وعلى أهل الكوفة عمرو بن الأصم، ومعهم زيد بن صوحان العبدي، وعلى أهل البصرة حرقوص بن زهير السعدي، ومعهم حكيم بن جبلة العبدي. وبمسيرهم مع الحجاج لم يعلم الأمراء عدد الناقمين، ولم يكونوا ليتصوروا أن هذه الشرذمة قادرة أو تفكر بقتل الخليفة أو تجرؤ على القيام بهذا العمل في دار الهجرة، لذا لم يبذلوا جهداً بإرسال قوة تحول دون خروجهم، أو تسير إلى المدينة لتمنع أمير المؤمنين، ووصل المنحرفون إلى مقربة من المدينة، فنزل المصريون بذي المروة، ونزل أهل الكوفة بالأعوص، واستقر أهل البصرة بذي خُشُب.

وسمع أهل المدينة بما يحدث، وأبوا أن تقتحم عليهم المدينة،

وتكلموا في الأمر، وحدّث الخليفة علياً في أن يركب ويركب معه المسلمون ليمنعوا المنحرفين من دخول المدينة عنوة ففعل وخرج معه طلحة، والزبير، ومحمد بن مسلمة، وكبار الصحابة، ولما رأى المنحرفون استعداد الصحابة للدفاع عن دار الهجرة وقع الخوف في نفوسهم، فعندما كلمهم علي أظهروا الطاعة والخضوع، وأبدوا الرغبة في العودة إلى أمصارهم والهدوء فيها، وبالفعل فقد رجعوا أدراجهم، وظنَّ علي والمسلمون أن الخطر قد زال عن دار الهجرة فعادوا إليها، ولم يستقروا فيها حتى أروعهم التكبير داخل أزقتها، ومحاصرة دار سيدنا عثمان، وعندما سألهم سيدنا علي عن سبب رجوعهم قالوا: إن الخليفة قد أرسل كتاباً لقتلنا، وأظهر أهل مصر كتاباً فيه قتل محمد بن أبي بكر، قال علي: فما بال أهل الكوفة قد عادوا؟ فقالوا: تضامنا مع رفاقنا، وكذا أهل البصرة، لكن من الذي أخبر كل فريق بما حدث مع الآخر؟ وهنا يبدو الاتفاق المسبق والتخطيط لدخول المدينة على حين غفلة من أهلها، وهنا يظهر تلفيق الكتاب الذي أظهره المصريون.

كان حصار دار عثمان يسيراً حيث كان يخرج الخليفة ويصلي بالناس، ويأتي الصحابة إليه، ويأتي إليهم. ثم بعث إلى العمال في الأمصار يأمرهم أن يرسلوا إليه الجند لينصروه، ويخرجوا من المدينة هؤلاء الطارئين، وعندما عرف المنحرفون هذا الخبر، وأن حبيب بن مسلمة قد سار من الشام، ومعاوية بن حديج من مصر، والقعقاع بن عمرو من الكوفة، ومجاشع السلمي من البصرة، وكل على رأس قوة لنصرة الخليفة تغيّر حصار الدار واشتد عمل المنحرفين.

وخرج عثمان كعادته إلى الصلاة، يوم الجمعة، وخطب، وخاطب المخربين، فقام محمد بن مسلمة فشهد على قوله فأسكته حكيم بن جبلة، وتكلم زيد بن ثابت فأسكته محمد بن أبي قتيرة، وثار الناس، وحصب بعضهم بعضاً، وأصيب عثمان، وأغمي عليه، ونقل إلى داره، وثار الصحابة وأبناؤهم ومنهم الحسن بن علي، وسعد بن أبي وقاص، وأبو

هريرة، وزيد بن ثابت وغيرهم، وأرادوا قتال المنحرفين إلا أن الخليفة قد منعهم، وأراد ألا يحدث شيء بسببه، وزار بعد ذلك عثمان كلا من علي، وطلحة، والزبير، ثم عاد فدخل بيته، وشُدّد عليه الحصار فلم يعد يخرج أبداً حتى كان يوم استشهاده رضي الله عنه.

أقام المنحرفون رجلاً منهم يصلي بالناس، وهو زعيم المصريين الغافقي بن حرب العكي، وإذا وجد علي أو طلحة صلى بالناس أحدهما. ومُنع الماء عن الخليفة، فأرسل إلى علي، وطلحة، والزبير، وعائشة، وأمهات المؤمنين فأسعفه علي، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان. وزجر علي الثائرين فلم يرعووا، وكان بين الحين والآخر يطل الخليفة بنفسه على أولئك المنحرفين المحاصرين له فيعظهم، ولكن لا يأبهون لأحد حتى أن أم حبيبة لم تستطع الوصول إليه لإسعافه بالماء، إذا ضربوا وجه بغلتها وكادت تسقط عنها، وهذا ما ألزم الناس بيوتهم لا يخرج منهم أحد إلا ومعه سيفه، إذ اختل نظام الأمن في دار الهجرة، ودخل دار عثمان بعض أبناء الصحابة فيهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن، والحسين ابنا علي، ومحمد بن طلحة وغيرهم، وطلب منهم عثمان ألا يقاتلوا، وعزم عليهم في ذلك أشد العزيمة.

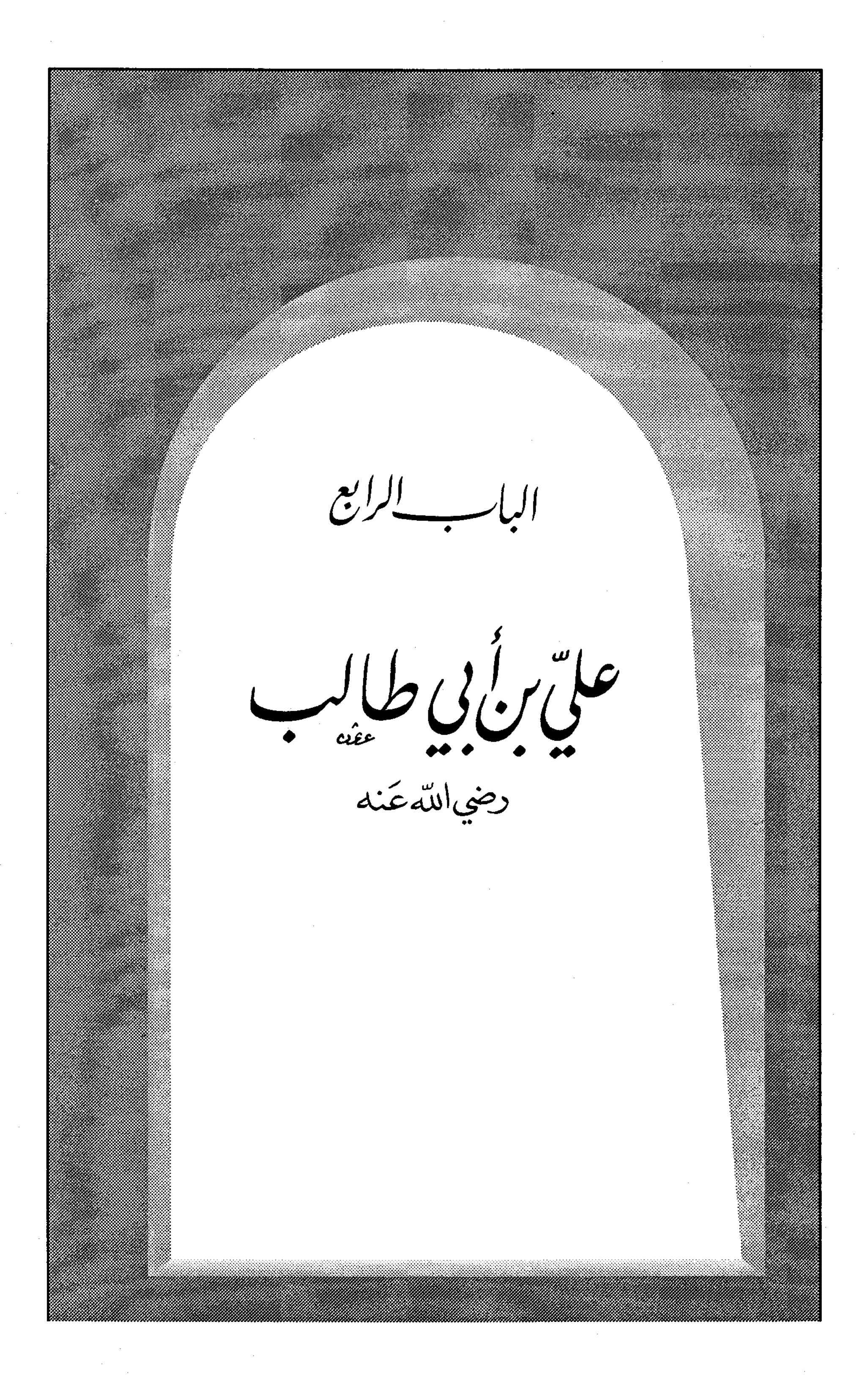
سارت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، إلى الحج، وطلب عثمان من ابن عباس أن يحج بالناس هذا العام، وكان على الباب مع أبناء الصحابة، فأراد أن يبقى مجاهداً إلا أن عثمان أصرّ عليه فخرج إلى الحج.

وصلت الأخبار إلى المدينة بأن الأمداد قد دنت من المدينة، وأن من جاء منها من الشام قد وصل إلى وادي القرى فخاف المنحرفون، وأرادوا دخول الدار على عثمان فمنعهم من فيها: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص وغيرهم، فتسوروا الدار من خوخة بينها وبين دار عمر بن حزم، ثم أحرقوا باب الدار، وسيدنا عثمان يقسم على أبناء الصحابة أن يلقوا سيوفهم حتى ألقاها بعضهم، وهجم المنحرفون على الخليفة، فضربه الغافقي بن حرب العكي

بحديدة، ثم ضرب قتيرة بن حمران زوج الخليفة نائلة التي رفعت يدها تدافع عن زوجها فقطع أصابعها، ثم ضرب الخليفة أخوه سودان بن حمران السكوني، وكذلك كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي فقتل رضي الله عنه، وقيل بل قتله عمرو بن الحمق، وقتل غلام لعثمان سودان بن حمران فقتل قتيرة الغلام، ثم قتل غلام آخر لعثمان قتيرة، ونُهبت الدار، كما نُهب بيت المال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وكان قتل الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في ١٨ ذي الحجة من عام ٣٥ من هجرة المصطفى ﷺ، وبذا تكون مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وكان عمره إذ ذاك اثنتين وثمانين سنة.

وعاد الحجاج فوجدوا خليفتهم مقتولاً رضي الله عنه، والأمن غير مستتب.

وسيدنا عثمان هو الذي اشترى بئر أرومة وجعلها للمسلمين، وجمع القرآن الكريم، وأول من وسع مسجد رسول الله ﷺ، استجابةً لرغبة رسول الله حين ضاق المسجد بأهله، وله من الفضائل الكثيرة رضي الله عنه.



الباب الرابع

عليّ بن أبي طالب ﷺ

رضي الله عنه



حيــاته

علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمير المؤمنين، ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة، رضي الله عنها، أحد الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن أوائل الذين أسلموا.

ولد في سنة ٢٣ قبل الهجرة فهو أصغر من رسول الله بثلاثين عاماً، أبوه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم ويكنى بأبي طالب وبذلك اشتهر، وهو عم رسول الله وشقيق أبيه، يعد أحد شيوخ قريش، دافع عن رسول الله وحماه، ودافع عن المسلمين، ولم يسلم فمات كافراً. وأم علي هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أسلمت وهاجرت. نشأ علي في بيت رسول الله ﷺ، إذ كان أبو طالب فقيراً كثير العيال، فكلم رسول الله ﷺ أعمامه في أخيهم أبي طالب ومساعدته، فذهبوا إليه، وطلبوا منه تربية بعض ولده، فقال لهم: خذوا من شئتم ودعوا لي عقيلاً، فأخذ رسول الله علياً، وأخذ العباس جعفراً.

بُعث رسول الله ﷺ فأخبر أهل بيته ومنهم علي فأسلم، ولم يبلغ العاشرة بعد، ويعد أول من أسلم من الأولاد، ومن السابقين للإسلام، ولم يعرف وثنية، فهو قد نشأ على الإسلام. ولما هاجر رسول الله ﷺ بات مكانه في فراشه، يسلم الودائع والأمانات التي كانت عند ابن عمه لأصحابها، وكان عمره قريباً من الثالثة والعشرين، ثم هاجر. ولما بدأت المعارك بين المسلمين وأعدائهم كان بطلها وأشد الناس على الخصوم. ففي السنة الثانية من الهجرة جرت معركة بدر الكبرى فكان بين المتبارزين فقتل الوليد بن عتبة، وشارك عمه الحمزة في قتل عتبة بن ربيعة، وبعد المعركة

بنى بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولم يكن في غزوة أحد بأقل من سابقتها، وكان هو وعمه حمزة في كلتيهما وكل منهما أسداً هصوراً يجول في ميدان المعركة، وأينما حمي الوطيس تجده، ثم عندما يزدحم الرجال لا يلبث أن يتفرق جمعهم ويكون هو المبدد لهم قتلاً وتشريداً. وفي غزوة الخندق وقف مع المسلمين مدافعاً وعندما قطع بعض المشركين الخندق ومنهم البطل العربي الجاهلي عمرو بن ود العامر الذي وجلت الأبطال عن منازلته تصدى له علي وقتله فكبر المسلمون، وعرف رسول الله ﷺ أن علياً قد قتل عمراً، وشهد بيعة الرضوان، وحمل لواء المسلمين يوم خيبر، وبقي في المدينة أميراً عليها يوم غزوة تبوك. وأرسله رسول الله ﷺ في السنة التاسعة وراء أبي بكر الذي حج في الناس ذلك العام ليتلو على المسلمين سورة (براءة) التي أنزلت بعد خروج المسلمين حجاجاً. توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، وكان يتوكأ عليه يوم مرضه، وقد شغل بدفنه.

بايع المسلمون أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان علي من أوائل الذين بايعوا، إلا أنه شغل بتمريض زوجه فاطمة بنت رسول الله التي أصابها المرض إثر وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام، فكان يحضر الجماعة، ويعود إلى زوجه حتى توفيت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رسول الله ﷺ، إلا أن أبا بكر كان يدعوه ليستشيره في بعض الأمور، وبعد وفاة زوجه كان مع الصديق في كل أمر وبخاصة عندما كان أمر المرتدين والذين امتنعوا عن الزكاة وهاجموا المدينة، وتوفي الصديق وهو عنه راض.

اختار الصديق للمسلمين عمر بن الخطاب، فكان علي أول المبايعين، بل صرخ لا نقبل إلا أن يكون عمر عندما سأل أبو بكر المسلمين هل ترضون من اخترت لكم؟ وكان علي بجانب عمر وقاضيه، فعمر يقول: أبو الحسن أقضانا، وأمير المدينة إذا خرج عمر منها، والمستشار الذي يؤخذ برأيه، وقد زوج ابنته أم كلثوم لعمر، وعندما طعن عمر كان علي أحد رجال الشورى الذي اختارهم عمر ليكون أحدهم خليفة للمسلمين، وكان

عمر يقول: لو ولوها الأجلح لأخذهم على الجادة، وكان أشبه الناس بعمر في حزمه وحكمته وعدم الخوف في الله من لومة لائم.

وكان عثمان بن عفان أميراً للمؤمنين بعد عمر بن الخطاب فبايعه علي، وكان بجانبه يدلي برأيه، وعثمان يستشيره، ولما حوصر عثمان بقي بجانبه، وكان أولاد علي من المدافعين عن عثمان أثناء ذلك الحصار، وبعد مقتل عثمان اختاره المسلمون أميراً لهم، فلم يقبل وأحب أن يكون وزيراً من أن يكون أميراً، إلا أن الصحابة قد أصروا عليه للخلاص من المأزق الذي وقعوا فيه، ولم يجد بداً من القبول للسبب نفسه، فقبل وهو زاهد بالإمارة، وتحمل المسؤولية وهو غير راغب بها.

واختلطت الأمور على المسلمين فاعتزل بعض الصحابة، ولم يبايع بعضهم، وكانت الشام بإمرة معاوية بن أبي سفيان، ولم يبايع حتى يستقر الوضع، فكان أن جرت معارك بين الطرفين يأسف المسلمون لها... وأخيراً استشهد عليّ، رضي الله عنه، في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ وهو يصلي الفجر على يد أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم الحميري. وصلى عليه ابنه الحسن.

تزوج علي، رضي الله عنه، فاطمة بنت رسول الله ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ولم يتزوج غيرها أثناء حياتها، فلما توفيت في السنة الحادية عشرة، تزوج أم البنين بنت حرام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً، وعبد الله، وعثمان، وقد استشهدوا جميعهم مع أخيهم الحسين في معركة كربلاء، ولا عقب لهم سوى العباس. وتزوج ليل بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر، وقد استشهد مع أخيهما الحسين في كربلاء، ولا عقب لهما. وتزوج أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت تحت أخيه جعفر، فلما استشهد في مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق، وأنجبت له محمد بن أبي بكر، فلما توفي أبو بكر تزوجها علي فولدت له يحيى، ومحمد الأصغر، وعوناً، وليس لهم عقب أيضاً. وتزوج أم حبيبة بنت زمعة التغلبية وهي من سبي خالد بن الوليد حين أغار على عين التمر في

العراق، وأنجبت له عمر، وتوفي وعمره خمسة وثلاثون عاماً وله عقب، ورقية. وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية فولدت له أم الحسن، ورملة الكبرى. وتزوج أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وهي ابنة أخت فاطمة إذ أن أمها زينب الكبرى من بنات رسول الله ﷺ فولدت له محمد الأوسط. وتزوج خولة بنت جعفر الحنفية وهي من سبي خالد بن الوليد في حروب الردة فولدت له محمد الأكبر وهو المعروف بمحمد بن الحنفية.

ومات رضي الله عنه عن أربع نسوة وتسع عشر سرية، فمن بناته اللواتي لا تعرف أمهاتهن: أم هانئ، وميمونة، زينب الصغرى، رملة الصغرى، أم كلثوم الصغرى، فاطمة، أمامة، خديجة، أم الكرام، أم جعفر، أم سلمة، جمانة.

وجميع ولد علي أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أنثى، وأكثرهم قتل مع الحسين في كربلاء، وعقبه محصور في خمسة منهم هم: الحسن، والحسين عن طريق علي زين العابدين، ومحمد بن الحنفية والعباس، وعمر.

وقبره غير معروف فبعضهم يقول: إنه دفن بالكوفة، ثم نقله أبناؤه إلى المدينة، ومنهم من يقول: حمل على بعير فضل البعير، فوجده جماعة ظنوا أنه يحمل مالاً فسرقوه فلما فتحوا الصندوق وجدوا فيه جثة فدفنوها في جبل طيء، وكثرت الروايات في هذا، أما من يؤكد: إن قبره في النجف فلا سند له في ذلك.

وقد وردت أحاديث في فضائل سيدنا علي، رضي الله عنه.

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
- الحسن توفي عام ٥٠ هـ .
- الحسين استشهد في كربلاء عام ٦١ هـ .
- محسن توفي صغيراً ▧
- زينب الكبرى
- أم كلثوم تزوجها عمر بن الخطاب .

أم البنين بنت حرام الكلابية
- العباس استشهد في كربلاء .
- جعفر استشهد في كربلاء . ▧
- عبد الله استشهد في كربلاء . ▧
- عثمان استشهد في كربلاء . ▧

ليلى بنت مسعود التميمية
- عبيد الله استشهد في كربلاء . ▧
- أبو بكر استشهد في كربلاء . ▧

أم حبيب بنت ربيعة التغلبية
- عمر توفي وعمره ٣٥ سنة .
- رقية

أسماء بنت عميس الخثعمية
- يحيى ▧
- محمد الأصغر ▧
- عون ▧

أمامة بنت أبي العاص بن الربيع
- محمد الأوسط ▧

خولة بنت جعفر الحنفية
- محمد الأكبر [ابن الحنفية]

أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي
- أم الحسن
- رملة الكبرى

أسرة علي بن أبي طالب

▧ إشارة إلى الذين ليس لهم عقب

بنات لأم أولاد

١ـ أم هانئ .	٧ـ أمامة .
٢ـ ميمونة .	٨ـ خديجة .
٣ـ زينب الصغرى .	٩ـ أم الكرام .
٤ـ رملة الكبرى .	١٠ـ أم جعفر .
٥ـ أم كلثوم الصغرى .	١١ـ أم سلمة .
٦ـ فاطمة .	١٢ـ جمانة .



بيعته

بعد مقتل سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بقيت المدينة دون أمير، وكان زعيم المنحرفين المصريين الغافقي بن حرب العكي هو الذي يدير شؤونها، وأتباعه هم الذين يسيطرون على أمورها، وأهلها وجلهم من الصحابة وأبنائهم لا يقدرون على فعل شيء، واستمر ذلك خمسة أيام، إلا أنه لا بد من خليفة ليعود الوضع إلى طبيعته، ويرجع الأعراب إلى بواديهم، ويؤوب المنحرفون إلى أمصارهم، والأمر يرجع في هذا إلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لذا لا بد من اختيار أحدهم.

كان المنحرفون متفقين على الانتهاء من الخليفة السابق، وقد تم لهم ذلك، إلا أنهم غير متفقين على الخليفة الجديد، وأهواؤهم شتى، فالمصريون يميلون إلى علي بن أبي طالب، ولكنه لا يوافقهم بل ويبتعد عنهم، والبصريون هواهم مع طلحة بن عبيد الله إلا أنهم يطلبونه فلا يجدونه، والكوفيون يرغبون في الزبير بن العوام ولكنه يختفي عنهم ولا يرغب بهم. وتضايق أهل الكوفة وأهل البصرة إذ غدوا تبعاً لأهل مصر عندما لا يرغب من تميل نفوسهم إليه أن يقابلهم أو يوافقهم، وأمير المصريين هو أمير للمدينة في تلك الظروف الحرجة.

ولما لم يوافق أحد من هؤلاء الثلاثة مع المنحرفين في شيء ويرفضون الخلاف كلهم، رأوا أن يطلبوا من سعد بن أبي وقاص ذلك، وهو ممن بقي من أهل الشورى مع أولئك الثلاثة، إلا أنه ارفضّ منهم عندما عرضوا عليه ذلك، وكان قد اعتزل الأمر، وابتعد عن الجو العام، فاتجهوا إلى عبد الله بن عمر، وكان رفضه أشد من سابقه.

وأشتد الأمر على المنحرفين إذ عجزوا عن إيجاد خليفة وقد قتلوا الأمير السابق، واشتد كذلك الأمر على أهل المدينة، وقد وجدوا مدينتهم بيد المنحرفين يتصرفون فيها، وهم لا يقدرون على شيء، ورأوا أنه لا بد من خليفة يخلصهم مما هم فيه، وينقذهم مما يعانون، ويسير الأمور لتعود الحالة إلى طبيعتها، ورأوا في شخص علي بن أبي طالب الخليفة المطلوب، فهو من أهل الشورى، وابن عم رسول الله ﷺ. وله سابقة وجهاد قلما تكون لرجل آخر، وله من العلم والفقه ما يخوله ذلك، وبصورة عامة فقد كان أفضل من عليها، آنذاك، فذهبوا إليه، وطلبوا منه أن يتولى أمرهم فرفض منهم، وقال لهم: لا حاجة لي في أمركم، أن أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، وأنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت.

ولما طال الوضع، وخاف المنحرفون من أن تصل جند الأمصار إلى المدينة، وتتسلم زمام الأمور، وتقبض على الثائرين قتلة عثمان وتعاقبهم وتقيم عليهم الحد، لذا كانت رغبتهم السرعة في مبايعة الناس لخليفة وهذا حق المهاجرين والأنصار، فإذا حدثت البيعة كان الخليفة على أقل تقدير منهم مضطراً لأن يأخذ برأيهم ما داموا في مركز قوتهم، ولا يستطيع أن يعاقبهم ما دامت المدينة في قبضتهم وتحت سيطرتهم، أو أن كثرتهم تحول دون أن يقوم بعمل ضدهم، أما إذا وصلت جنود الأمصار إلى المدينة فإنهم حينذاك لا يستطيعون قتالهم وبخاصة أن أهل المدينة ناقمين على قتلة عثمان الأمر الذي يجعلهم ينضمون لأهل الأمصار ويحاربون قتلة عثمان، وعندئذ تنالهم العقوبة، وينالهم القصاص، وتقام عليهم الحدود، ويختار أهل المدينة من يرغبون لا من يفكر به المنحرفون، ومن هذا المنطلق كانت السرعة في اختيار خليفة أهم نقطة يعمل لها المنحرفون، ولما لم يتم لهم ذلك هددوا أهل المدينة بقتل أهل الشورى وكبار الصحابة ومن يقدرون عليه من دار الهجرة إن لم يجدوا أحداً يوافق على قبول الخلافة، وقالوا لهم: دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن علياً، والزبير وأناساً كثيرين.

عرض صحابة رسول الله ﷺ الأمر على علي بن أبي طالب وجاءه الناس فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نرى! ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا وتواعدوا في اليوم التالي فجاؤوا ومعهم طلحة، والزبير، وبايعوا علياً، وكان ذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

بايع الناس جميعاً إلا سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد وصهيب من المهاجرين، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، ورافع بن خديج، وسلمة بن وقش، وأبو سعيد الخدري، وقدامة بن مظعون ومسلمة بن مخلد، وعبد الله بن سلام من الأنصار، ومن كان قد غادر المدينة إلى مكة وأكثرهم من بني أمية أمثال سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم.

كان علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أمام موقفين اثنين لا ثالث لهما.

الأوّل منهما: أن يصر على رفض الأمر وعدم الموافقة على البيعة، وعندها سيبقى وضع المدينة كما هو يتسلط عليه المتمردون، ويتصرف في المدينة الأعراب والمنحرفون، بل ربما ازداد الوضع سوءاً وهو المحتمل فيعيث هؤلاء العابثون في الأرض فساداً، ويزداد قتلهم للناس، وقد ارتكبوا أكبر جريمة بقتلهم الإمام ظلماً وعدواناً، ومتى أقدم الإنسان على جريمته الأولى سهلت عليه الجرائم وأسوأ الأعمال بعد ذلك، وبالفعل فقد هددوا أصحاب الشورى وصحابة رسول الله ﷺ. وإذا ما حدث أن جاءت جند من الأمصار أو طُلب منها إبعاد المتمردين عن المدينة وإقامة الحدود عليهم وإعادة نظام الأمن، فإنه يقع القتال داخل دار الهجرة ويذهب ضحيته

أعداد من الصحابة، هذا بالإضافة إلى انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم، وهذا ما يخافه العقلاء وأهل لإيمان، زد على ذلك أن تدخل الجند في شؤون الرعيّة، وتدخلهم في أعمال الناس، وبحثهم في أمر الخلافة وإن هذا لموضوع يجب الابتعاد عنه تمام الابتعاد، وهذا ما كان ينظر إليه علي، رضي الله عنه، ويحرص ألا يحدث، وهو الأمر الذي جعله يقبل الخلافة.

أما **الموقف الثاني**: فهو قبول الخلافة والرضا بالأمر الواقع وذلك من أجل إنقاذ المسلمين من فتنة عمياء يمكن أن تحدث فيما لو رفض، والخوف من تفرقة الكلمة، والعمل على إعادة الثقة والطمأنينة إلى نفوس سكان دار الهجرة، وإبعاد المتمردين، والأعراب والمنحرفين، عن المدينة، وإقرار الأمن، وإعطاء الهيبة للخلافة، وتطبيق منهج الله في الأرض، ومع هذا فكان رضي الله عنه على علم بأن السير في الموقف الثاني، وهو أخذ البيعة وتسلم أمر الناس حالة صعبة، وفيه مشقة كبيرة وعناء شديد، إذ لا يستطيع الخليفة إقامة الحدود على الجناة والتحقيق معهم إلا بعد مرور مدة ريثما يستتب الوضع، ويتمكن الحكم، وتستعيد الخلافة هيبتها؛ وهذا ما لا تدركه فئة من الناس فأخذوا يطالبون بالقصاص وهو غير قادر عليه، ويسألونه إقامة الحدود على القتلة وهو لا يستطيع، إذ لا تزال المدينة بأيديهم، ولا بد من إخراجهم قبل ذلك وتوزيعهم في الأمصار، أو إرسالهم إلى الثغور، وتفريق كلمتهم، هذا بالإضافة إلى أن عدداً من الرجال سيتخلّفون عن البيعة، ولكن هذا لا يجعله يتوقف، وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يعرف المداهنة في الحق... فأما البيعة فيمكن أن يترك من لم يبايع باستثناء بعض رجال الشورى الذين ينظر إليهم بعض الناس ويميلون إليهم، ولهذا فقد ترك سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ولكنه أصر على بيعة طلحة، والزبير إن كان بعض المتمردين يظهرون الطمع بهما، وأما استمهال إقامة الحدود على قتلة الخليفة السابق ريثما تتاح الفرصة فظن أن الناس يدركون هذا، إذ أن إعادة الأمن والنظام وإقامة الخلافة أمر أهم وواجب شرعي، يسبق تطبيق المنهج ولهذا أقدم عليه وقبل الخلافة بعد إصرار الناس عليه وبعد تمنع منه ورفض، فهو الزاهد فيها وفي الدنيا جميعها.

رأى علي، رضي الله عنه، وقد تسلم الخلافة أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الأمن، ولن يكون هذا إلا بإبعاد المشاغبين عن المدينة، ولن يحدث هذا إلا باعتقادهم أنه قد تم ما يريدون وهو استقرار النظام في الدولة، وهذا ما يخيفهم فيخرجون وهذا ما يصار إليه بزوال الخليفة السابق وقد قتلوه قبحهم الله ـ ثم بالخلاص من ولاته على الأمصار، هذا بالإِضافة إلى أنه هو رضي الله عنه قد كانت له بعض الملاحظات على بعض الولاة لذا قرر عليّ أن يستبدل الولاة، ولكن نصحه بعض الصحابة وبعض الرجال في أن يؤخر هذا الأمر حتى يستقر الوضع، إلا أنه رفض ذلك حيث رأى أن هيبة الدولة لا تكون إذا لم يستطع الخليفة أن يعزل والياً وأن يعين غيره، وإلا فما معنى أن الوالي يتبع الخليفة، وإذا لم يستطع الإِمام عزل والٍ، فمعنى ذلك أن الوالي بمثابة خليفة، أو أنه يرفض الأوامر، ويرفض البيعة أو يأخذها لنفسه، ويتعدد عندها الخلفاء، وهذا أمر غير جائز، ولا يكون في الإِسلام، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن العصاة والمنحرفين يرون أن الوضع غير مستقر، وبذا يبقون في المدينة وعندها لا يستطيع الخليفة أن يفعل شيئاً، ولا أن يقيم حدود الله، وهو لا يخاف في الله لومة لائم، إذن فلا بد من عزل الولاة واستبدالهم.

أرسل علي الولاة إلى الأمصار فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف وهو من أعلام الأنصار، فدخلها وارتحل عنها واليها السابق عبد الله بن عامر متجهاً إلى مكة. وأبقى على الكوفة أبا موسى الأشعري الذي أرسل بيعته، وبيعة أهل مصره إلى أمير المؤمنين. وبعث سهل بن حنيف إلى الشام، ولكنه رُدّ من حدودها، ردته خيل معاوية بأمر أو باجتهاد منها. وبعث إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وكان قد قتل من تسلمها، وهو محمد بن أبي حذيفة، فدخل مصر وأخذ البيعة لأمير المؤمنين من أهلها، إلا فريقاً قليلاً منهم اعتزلوا الناس وأووا إلى (خربتا) لا يشقون عصا الطاعة، ولا يقاتلون أحداً، وبهذا فقد اختار ثلاثة ولاة من الأنصار إلى أهم الأمصار وأكثرها ثغوراً وجهاداً. أما مكة فقد بعث إليها خالد بن العاص بن

هشام بن المغيرة المخزومي، ولكنه وجد فيها كل من اعتزل الفتنة ومن اجتمع فيها من بني أمية، ومن ترك ولايته من الولاة السابقين، لذا فقد رفضت ولايته وبقيت مكة دون وال، ولكل مجموعة رجل يرجعون إليه.
وبعث علي بن أبي طالب إلى اليمن ابن عمه عبيد الله بن عباس عاملاً له عليها، فلما وصل إليها رحل عنها عاملها السابق يعلى بن أمية واتجه إلى مكة، وهكذا خضعت دار الهجرة مركز الدولة والأمصار كلها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب باستثناء الشام التي كان يسير أمورها معاوية بن أبي سفيان إذ لم يرسل البيعة، وبهذا عقدت بيعة علي بن أبي طالب، وقام بالأمر، وأرسل إلى معاوية يطلب منه البيعة لكنه تأخر بالجواب، ينتظر ما تؤول إليه الأمور، ووضع العصاة في المدينة.

المجتمع الإسلامي أيام عليّ

لم يختلف وضع المجتمع الإسلامي أيام علي عما كان عليه سابقاً، فالشرع هو المطبق وأحكام الله هي النافذة والمعمول بها، وإنما الشيء الوحيد الذي اختلف هو متابعة الناس لما يجري في الداخل بعد أن كان الاهتمام متجهاً إلى ما يحدث في الفتوح وأحوال الثغور، هذا بالنسبة إلى عامة الناس، أما فيما يتعلق بالعمال والولاة فكان اهتمامهم أكبر بمناطقهم إذ يتعلق الأمر بهم وبأمصارهم لذا فقد اختلف الوضع بين مصر وآخر، وهناك أمر آخر يجب ألا نغفل عنه وهو أن المسلمين استقبلوا خلافة علي بغير ما استقبلوا خلافة عثمان، فقد جاء عثمان بعد عمر القوي الشديد الذي منع الصحابة من الخروج إلى المدينة، وأخذهم بالحزم والشدة، فأعطاهم عثمان اللين والرفق، وأغدق عليهم في الأعطيات حسب ما اعتاد عليه من البذل والعطاء، فلانوا له وأحبوه وخاصة في أيامه الأولى. وفضله بعضهم على عمر. وجاء علي بعد عثمان فسار بالناس سيرة عمر فلم يوسع لهم في الأعطيات، ولم يعطهم النوافل من المال وخاصّة أن واردات بيت المال قلّت لتوقف الفتح، وحجب مال الشام، واشتد على قريش، وحال بينهم وبين الخروج بأية حال، وهيجه افتراق القوم إذ أن عدداً من بني أمية قد اتجهوا إلى مكة، وتفرق بعض الناس في الأمصار، واستأنف فيهم حزم عمر، وشدته، والنفس البشرية يصعب عليها الشدة بعد اللين على حين ترتاح وتطمئن للين بعد الشدة، لذا كانت نفوسهم يشوبها كثير من الوجوم والقلق بتسلم علي الأمر، هذا بالإضافة إلى تسليط المشاغبين الذين قتلوا عثمان على المدينة ولم تطالهم بعد الحدود، ولننظر إلى حالة كل مصر وحده.

فاليمن سار إليها عبيد الله بن عباس والياً عليها من قبل علي فاستقبلته، وخرج منها يعلى بن أمية، واستقر الأمر فيها، تقام الحدود، ويطبق الشرع بصورة تامة.

وأما مكة المكرمة فقد عاد إليها راجعاً عدد من أهل المدينة الذين وصل إليهم خبر مقتل سيدنا عثمان وهم في طريقهم إلى بلدهم بعد أن شهدوا موسم الحج، ورغبوا اعتزال الفتنة، فمكة حرم آمن لا يغار عليه ولا يذعر من أوى إليه، ومنهم من خرج إليها من المدينة غاضباً أو معتزلاً مثل بني أمية، وعبد الله بن عمر: وردت مكة عامل علي عليها وهو خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي وبقيت دون وال، وبعد مدة استأذن طلحة والزبير علياً بالخروج إلى مكة لأداء العمرة فأذن لهما فخرجا، وبقيا فيها إذ وجدا الجو فيها أكثر مناسبة لهم من جو المدينة المليء بالخارجين على عثمان، رضي الله عنه، وبعد مدة جاء قثم بن العباس والياً على مكة، واستقر فيها، واستتب له الأمر. ورأى الذين اعتزلوا الفتنة واستقروا في مكة أن جوها غير مناسب، وأن طلب الرزق غير متوفر، والتجارة التي اعتادوا عليها قد انقضت أيامها وقطع بينهم وبينها الزمن، ووجدوا أن البصرة أكثر ملاءمة، لهذا فقد قرروا السير إليها، وأقنعوا أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بالخروج معهم، وكادت أم المؤمنين حفصة، رضي الله عنها، تسير لولا أن منعها أخوها عبد الله بن عمر، وسار الموكب باتجاه البصرة، وكان يصلي بهم عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد، وقد كان أبوه والي مكة لرسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر. وكان عدد المغادرين مكة/ ٧٠٠/ إنسان جلهم من أهل مكة والمدينة ومنهم طلحة والزّبير، وعبد الله بن عامر، ويعلى بن أمية، وعبد الرحمن بن عتاب، وأم المؤمنين عائشة، ورجع من الطريق سعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن خالد بن أسيد، وفي الطريق تبعهم الناس من الأعراب حتى كانوا ثلاثة آلاف. وهدأ الوضع في مكة بعد خروجهم. وعندما وصل الركب المكي إلى ماء الحوأب نبحتهم كلابه،

فأناخت عائشة، رضي الله عنها، وقالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً ردوني فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه «ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب» فقالوا لها: ما هو بالحوأب، فسارت.

أما في المدينة فإن أهلها ينظرون إلى علي نظرة احترام وإكبار كما ينظر له كل المسلمين، إذ كان يومذاك أفضل من عليها، وقد ارتحل عن الدنيا من سبقه، وقد أسرعوا إلى بيعته أو الإصرار على مبايعته لتقديرهم له قبل كل شيء، ثم للخلاص مما لحق المدينة من وجود الفئة الخارجة على النظام من قتلة عثمان، وقد استجاب بعد رفض إذ أن الأمر يستوجب وجود الأمير لإِعادة النظام، وما أن استلم الخلافة حتى طلب منه عدد من الصحابة إقامة الحدود على هؤلاء المنحرفين، ولم يكن ذلك ليغيب عنه، وإنما ينتظر استتباب الوضع وقوة الخليفة بأخذ البيعة العامة والقبض على ناصية الأمر، إذ أن الحل السريع لا يستطيع أن يمارسه ما دام المنحرفون هم الذين يسيطرون على المدينة، وبيدهم القوة، والبيعة لم تأت من بعض الجهات ومنها الشام وبعض الصحابة، والمشكلة أنه في ساعة الفوضى لا يرى المرء الحل السليم إلا من خلال ما استقر في ذهنه، واشتد الصحابة في الطلب، وعلي لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلاّ أن تزيد البلبلة. وأرسل علي الولاة إلى الأمصار، وإذ بوالي الشام سهل بن حنيف يعود إليه، وعلي الذي عرف بالشدة لم يقبل باللين، ولم يعرف التساهل بالحق، فقرر السير إلى الشام على الرغم من نصائح بعض الناصحين بإبقاء معاوية على الشام وإعطاء طلحة البصرة، والزبير الكوفة ريثما تهدأ الأحوال، ولم ير عبد الله بن عباس السّير إلى الشام عندما استشاره علي، وحث علي الناس بالنهوض إلى الشام فرأى توانيا، فلم يرغب بإجبار أحد وإنما نهض وسار مع من نهض، ودفع باللواء إلى ابنه محمد الأكبر بن الحنفية، ووجه عبد الله بن عباس إلى الميمنة، وعمر بن أبي سلمة إلى الميسرة، وأبا ليلى بن عمر بن الجراح إلى المقدمة وهو ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح، وولى قثم بن العباس على المدينة، وكتب إلى عماله على الأمصار وهم

قيس بن سعد والي مصر، وأبو موسى الأشعري والي الكوفة، وعثمان بن حنيف والي البصرة بالنهوض إلى قتال أهل الفرقة، ويبدو من عمله هذا أنه بعيد كل البعد عن المنحرفين قتلة عثمان إذ لم يول أحداً منهم وفيهم الأشداء وأهل المقدرة. وبينما هو كذلك إذ سمع بخبر سير من سار من مكة إلى البصرة، فخرج علي إلى الربذة يريد أن يحول دون انطلاقهم إلى البصرة، إلا أنهم قد فاتوه، وكان قد ولى على المدينة قبل خروجه منها سهل بن حنيف، وبعث قثم بن العباس إلى مكة، وكانت أم المؤمنين أم سلمة تريد أن تسير معه وقالت له: «لولا أني أعصي الله عز وجل وأنك لا تقبله مني لخرجت معك، وهذا ابني عمر، والله لهو أعز عليّ من نفسي، يخرج معك يشهد مشاهدك، فخرج معه، وكان على الميسرة، ولم يزل معه، واستعمله على البحرين ثم عزله. ونصحه بعض الناصحين بأن لا يخرج من المدينة فإن خرج منها فلن يعود إليها، وطلب منه أن يرسل من نهض ويمكث هو في دار الهجرة، ولكنه أصر إلا أن يكون على رأس الناهضين. وبقي سهل بن حنيف في المدينة يسير أمورها، ويطبق شرع الله فيها، ويحكمها لعلي بن أبي طالب. ووصل علي إلى ذي قار ينتظر وصول جند الأمصار.

وأما مصر فقد سار إليها قيس بن سعد بن عبادة، ودخلها من غير جهد، وكان قد خرج منها الوالي السابق عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وتسلمها محمد بن أبي حذيفة إلا أنه قتل، وأخذ قيس البيعة لعلي من عامة أهلها، إلا فريقاً اعتزلوا الناس وأووا إلى (خربتا) يطلبون بثأر عثمان، ولكن لا يقاتلون أحداً، ولا يشقون عصا الطاعة، فأمهلهم قيس ومنهم: مسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج، وبسر بن أرطأة وغيرهم، إلا أن بعض أصحاب علي كانوا يصرون عليه أن يأمر قيسا بقتالهم أو إعطاء البيعة حتى ينتهوا من مصر من كل معارض، فطلب علي منه ذلك، فرأى قيس أن رأيه هو الأصوب، فترك مصر، واتجه إلى علي مارا بالمدينة، وجاء محمد بن أبي بكر والياً على مصر، وما زال يلح على من في (خربتا) حتى

جرى القتال بين الطرفين ولم يحرز محمد بن أبي بكر النصر فعزله علي، وولى الأشتر النخعي مكانه، ولكنه مات مسموماً قبل أن يصل إليها، فاضطر علي أن يثبت محمد بن أبي بكر على مصر ريثما يرى رأيه، وانتدب أهل الكوفة لمساعدة إخوانهم في مصر، ولكنهم لم ينتدبوا، وعندما أصر عليهم سار منهم جند قليل، ولكن ما أن وصلوا إلى مصر حتى كان عمرو بن العاص قد دخلها، وقُتل محمد بن أبي بكر، وهكذا أصبحت مصر بعيدة عن خلافة علي وذلك عام ٣٨هـ.

وأما الكوفة فقد كان واليها من قبل أبو موسى الأشعري، وأقره علي على ما تحت يده، رغبة من أهل الكوفة به، وقد بايع عنه وعن أهل الكوفة للخليفة الجديد. وكان أبو موسى محباً للعافية لا يرغب بالقتال وخاصة عندما يكون القتال بين المسلمين بعضهم ضد بعض. ولم يكن أهل الكوفة على رأي واحد، فبعضهم يميل إلى الزبير، وبعضهم يرغب في علي ولكنه لا يحب القتال، وبعضهم متشدد في ذلك و يرى أن القتال أمر لا بدّ منه، وكتب أمير المؤمنين إلى أبي موسى يستنهضه للقتال ولكنه لم يفعل شيئاً، فأرسل له محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، فلم يفد ذلك شيئاً، ثم أرسل له عبد الله بن عباس، والأشتر النخعي فما أجدت المناقشات التي دارت بين الطرفين، ثم أرسل له ابنه الحسن بن علي، وعمار بن ياسر، وتكلم الحسن كلاماً جميلاً. ودعا أهل الكوفة لنجدة خليفتهم وعندما انطلق سار معه عدة آلاف سار بعضهم بالفرات واتخذ بعضهم الآخر طريق البر، وكان مجموعهم تسعة آلاف رجل، وأخرج الأشتر النخعي أبا موسى من قصر الإمارة، فانطلق أبو موسى إلى مكة وأقام بها. وكان الخليفة قد وصل إلى ذي قار فجاءه أهل الكوفة وهو في ذلك الموضع.

وأما البصرة فقد أرسل إليها الخليفة والياً جديداً هو عثمان بن حنيف فسار إليها فدخلها، وخرج منها واليها السابق عبد الله بن عامر الذي سار إلى مكة، وكان في البصرة شيء من الفرقة والخلاف،ولم يلبث أن وصل إليها ركب مكة، فدخلها عبد الله بن عامر على غفلة من أهلها، ووصل

الخبر إلى عثمان بن حنيف فتهيأ إلا أن الناس متخاذلون منهم الخائف، ومنهم القاعد، ومنهم المتخاذل، ومنهم من يطلب بثأر عثمان، ومنهم مع الوالي بجانب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم دخل البصرة ركب مكة كله، والتقى في المربد، فتكلم طلحة، والزبير وردّ عليهم جماعة ابن حنيف، وكاد الناس يقتتلون، ثم تكلمت عائشة، رضي الله عنها، فانقسمت جماعة ابن حنيف، ومال بعضهم إلى جانب عائشة، وكان على خيل البصرة حكيم به جبلة العبدي فأنشب القتال، وهو أحد الغوغائيين الذين تكلموا عن عثمان، رضي الله عنه، وكاد القتال أن يتسع، إلا أن الفريقين قد اتفقا، إذ لم يكن أحد الجانبين لينظر إلى الآخر نظرة العداء أو الحقد بل نظرة الأخوة، والخلاف إنما هو في وجهات النظر، ولكن الغوغاء هي التي كانت تسير بالطرفين إلى التطرف أحياناً، اتفق الجانبان على أن يبعثا رسولاً إلى المدينة لينظر هل بايع طلحة والزبير مكرهين أم لا؟ فإن كان ذلك أخلى عثمان بن حنيف لهما البصرة، وإن كانا قد بايعا عن رضى خرجا من البصرة، وأن يبقى كل فريق على ما تحت يديه ريثما يعود الرسول، وينزل طلحة، والزبير ومن معهما حيث شاؤوا، وأن يصلي عثمان بن حنيف بالناس، ويبقى بيت المال تحت يده، وله أمر البصرة. وذهب كعب بن ثور إلى المدينة رسولاً، فسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير فلم يجبه أحد، ثم أجابه أسامة بن زيد بأنهما بايعا مكرهين، وكادت تحدث في المدينة حادثة لهذا الجواب، إذ لا يريد الناس إلا إطفاء النار وإخماد جذوتها، ورجع كعب إلى الناس بالخبر فاختلف القوم بالبصرة، وعاتب علي عامله على البصرة، وقال: إنما طلحة، والزبير لم يجبرا على البيعة إلا خوفاً من الفرقة، وقلّ أنصار ابن حنيف حتى غضب عليه الغوغائيون في طرفه لهذا التصرف، وانقضّ أهل السوء عليه فسجنوه، ونتفوا لحيته وحاجبيه، ثم أخرجوه، حيث سار إلى علي بن أبي طالب وهو بذي قار، ولم يقتل عثمان بن حنيف لأنه لم يكن عدواً ولا مجرم حرب، وإنما كان أخاً ضعفت وجهة نظره أمام مناقشيه فقلّ أتباعه، وعدا عليه الرعاع فأخرجوه، ولو كان الخلاف كما يصوّره بعض المغرضين لقتل أو أخذ على الأقل

أسيراً، فهو قائد الخصم، أو رأس الجناح الآخر. وصار يصلي بالناس عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد. وبخروج عثمان بن حنيف من البصرة أصبحت تحت إمرة الركب المكي فقتلوا من كان فيها من الأشخاص الذين شخصوا إلى المدينة، واشتركوا في حصار عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ولم ينج منهم إلا حرقوص بن زهير العبدي، وكان ممن قتل حكيم بن جبلة العبدي، ولم يكن هذا القتل ليخفف من المشكلة بل زاد النقمة، إذ أن بعض القبائل غضبت لمقتل أبنائها ممن كان من الغوغائيين، ومنهم بنو عبد القيس الذين ثاروا لمقتل حكيم بن جبلة فخرجوا على علي، أما علي فلم يتكلم في قتل هؤلاء لأنه يرغب فيه ولا علاقة له بأحد منهم، وإن كان يرى أنّ في العجلة الندامة فالقتل السريع دون تروٍ أدى إلى النقمة. وكتب الركب المكي إلى بقية الأمصار أن يفعلوا فعلتهم، وأن يقتلوا من عندهم من قتلة عثمان.

أرسل علي بن أبي طالب القعقاع بن عمرو التميمي إلى البصرة، فكلم عائشة، وطلحة، والزبير وبيّن لهم تفرق القوم عنهم بسبب قتل الغوغائيين، وماذا يكون لو حدث هذا في كل مصر؟ قالوا: فما رأيك؟ قال: إن هذا أمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل، حتى إذا صلح الأمر وهدأت الثائرة، وأمن الناس، واطمأن بعضهم إلى بعض، نظرنا في أمر الذين أحدثوا هذه الفتنة. وإني لأقول هذا وما أراه يتمُّ حتى يأخذ الله من هذه الأمة ما يشاء، فقد انتشر أمرها، وألمت بها الملمات، وتعرضت لبلاء عظيم، فاستحسن القوم رأيه، وقالوا: إن وافق علي على هذا الرأي صالحناه عليه. ورجع القعقاع إلى علي راضيا وأنبأه بما حدث، فسُرّ علي بذلك أشد السرور وأعظمه.

وأقبلت الوفود من البصرة إلى معسكر علي بذي قار، والتقى المضري مع المضري، والربعي مع الربعي، واليمني مع اليمني، وكل يتحدث في الصلح، وظن الناس كل الناس أن الأمر قد استقام، وأن الصلح قد أصبح وشيكاً، ودعا أهل البصرة علياً أن يأتي إليهم، وأراد علي الرحيل وقال:

ألا من أعان على عثمان بن عفان فلا يرتحل معنا. وهنا شعر الغوغائيون من قتلة عثمان أن الصلح سيدور عليهم، وأنه إذا تمّ لا بدّ من أن يكون عليهم، وستطالهم العقوبة، فإذن لماذا نبرمه على أنفسنا؟ وتداولوا الرأي وعبد الله بن سبأ اليهودي لا يعجبه رأي حتى توصلوا إلى إنشاب القتال إذا ما اقترب الطرفان بعضهم من بعض. وأرسل علي عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير اللذين أرسلا بدورهما محمد بن طلحة إلى علي وتحدثوا في الصلح وباتوا في ليلة من العافية.

ورحل علي إلى البصرة وعسكر بجانب معسكر أهل البصرة فأنشب الغوغائيون القتال بأسباب بسيطة وتافهة، إذ تسابّ الصبيان ثم تراموا وتتابع العبيد، حتى إذا توترت الأجواء باشر السفهاء، ولم يدخل الغوغائيون من البداية حتى لا يُعرف الكيد، وينكشف الأمر، وتفسد الخطة، وتصافّ الفريقان، وخرج علي بين الصفين ونادى طلحة، والزبير فكلمهما، وقال مما قال للزبير أتذكر أن رسول الله ﷺ قال لك: «... ولكنك ستقاتله وأنت له ظالم» قال: تذكرت ذلك، ولو كنت أذكر ما خرجت، وأراد الاعتزال، وخرج على وجهه وعندما وصل إلى وادي السباع غدر به ابن جرموز وقتله. واستطاعت السبئية أن تنشب القتال، وطلب علي من الناس أن يكفوا إلا أن الأمر قد خرج من يده والتحم الفريقان، وكان جيش البصرة يزيد على الثلاثين ألفاً، وجيش الكوفة يزيد على العشرين ألفاً، وكان اللقاء في منتصف جمادى الآخرة من عام ٣٦هـ.

والتحم الطرفان، واشتدت المعركة أمام الجمل الذي عليه هودج عائشة، رضي الله عنها، حتى قتل أمامه سبعون رجلاً كل أخذ بخطامه، قتلوا واحداً بعد الآخر، ثم عُقر الجمل فانفرجت المعركة، وهزم أهل البصرة، وأُصيب طلحة وجرح جرحاً بليغاً بدأ ينزف منه الدم، وحملت عائشة بهودجها إلى دار عبد الله بن خلف، وكانت فاجعة أليمة ذهب ضحيتها على رأي المؤرخين عشرة آلاف من جيش البصرة وخمسة آلاف من جيش علي، ومع ما في هذه المعركة من الهول الذي زاد فيه

المؤرخون، علينا أن نتروى قليلاً فننظر هل كانت معركة بين أعداء ألداء كما توصف أم بين أحبة أوقع الشيطان بينهم فطاشت أحلامهم، ثم ثابت؟ ويمكن أن نتعرف على هذا من النتائج، كانت رؤوس جيش البصرة لا شك طلحة، والزبير، وعائشة فلننظر ما الرأي بهم؟ التقى القعقاع بن عمرو التميمي أحد قادة جيش علي وحكمائه أثناء المعركة مع طلحة وهو يقاتل جريحاً فقال له: يا أبا محمد إنك جريح فحبذا لو دخلت أحد البيوتات. فبطل يرى قائد خصومه جريحاً فيطلب منه الخلود إلى الراحة من أجل العافية أم يجهز عليه!

وجاء ابن جرموز بعد المعركة يستأذن علياً وقال: قل له: قاتل الزبير، فقال علي: أئذن له وبشره بالنار. فهل القائد يفرح بقتل قائد خصومه أم يتأثر ثم يقول: إن قاتله لا شك في النار؟

وزار علي عائشة بعد المعركة، وضرب من تكلم عنها، وقال عندما شيعها في غرة رجب مع أخيها محمد بن أبي بكر: إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وأعطاها مبلغاً كبيراً من المال، وسير في ركبها عدداً من النساء، وعندما زارها في دار عبد الله بن خلف كان عدد من الجرحى المختبئين في تلك الدار، وهو يعرف مكانهم ومكان غيرهم، وقد تجاهل ذلك وكأن لم يعلم شيئاً، إذ لم يكونوا خصوماً كما يصور ذلك بعضهم فلو كانوا كذلك لنالوا ما نالوا.

كما كان قد طلب من جنده ألا يجهزوا على جريح، ولا يتبعوا هارباً، ولا يدخلوا داراً، ولا يحوزوا مالاً، ولا يؤذوا امرأة ولا طفلاً ولا غير مقاتل مصر معاند، وهذا كله يدل على الأخوة التامة ولكن أوقع الشيطان بينهم، ولكل وجهة نظره واجتهاده الخاص، وهو عليه مأجور بإذن الله.

وبعد المعركة بثلاثة أيام ولى علي على البصرة عبد الله بن عباس، وكان أهلها قد أعطوا البيعة، وسار هو إلى الكوفة ليتهيأ إلى الشام.

أما الشام فقد كان واليها معاوية بن أبي سفيان منذ أيام عمر، رضي الله عنه، وقد خبر أهلها وخبروه، وأخذهم بأسلوبه الخاص فأحبوه، ولان لهم فأطاعوه، وحزمهم فانقادوا له، ولم يريدوا غيره، فعندما حدثت الفتنة في المدينة، وتسلم الغوغائيون الأمر، وقتلوا الخليفة عثمان بن عفان مظلوماً. وخرج النعمان بن بشير إلى الشام ومعه قميص الخليفة عثمان المملوء بالدماء وعليه أصابع زوجه نائلة مقطعة، وعرضه على الناس فثاروا وبكوا أولاً لقتل الخليفة مظلوماً وهو شيخ طاعن في السن، وكان قتله على يد رعاع الناس، وثانياً لأنه لم يستطع أحد بعد ذلك أن يحرك ساكناً، بل إن هؤلاء الرعاع قد سيطروا على دار الهجرة. ويجب أن نعلم أن الأخبار من المدينة إلى الشام تحتاج إلى شهر ذهاباً ومثلها إياباً وأثناء هذه المدة تجد حوادث، وتحدث مشكلات جديدة، إضافة إلى ما تحمل الأخبار معها من زيادات مع الزمن. ثم جاءت الأخبار بأن البيعة قد تمت لعلي بن أبي طالب، ولكن عدداً من الصحابة لم يعطوا البيعة أمثال: سعد بن أبي وقاص وهو من رجال الشورى، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك وغيرهم، وفوق كل هذا فإن طلحة، والزبير قد أعطيا البيعة مكرهين وهما من رجال الشورى. وإن رجال الشورى الذين بقوا على قيد الحياة هم: علي بن أبي طالب وهو صاحب البيعة، وطلحة، والزبير لم يبايعا إلا مكرهين، وسعد بن أبي وقاص لم يبايع أبداً، فالأمر بحاجة إلى نظر، ومع هذا فإن علياً لم يستطع أن يقبض على زمام الأمر، ويقيم الحدود على قتلة عثمان الذين لا يزالون يتحكمون في أمر المدينة، هكذا وصلت الأخبار إلى الشام، وهذا ما علمه معاوية والي البلاد، وإن كانت هذه الأمور صحيحة، إلا أن روايتها كانت بأسلوب يجعل معاوية يرى التريث بإرسال البيعة إضافة إلى ما يجد في نفسه، وما يراه في المجتمع من حزن على الخليفة المقتول. وتتوالى الأخبار على الشام بأن عدداً من رجالات الأمة قد اجتمعوا في مكة والتجؤوا إليها يعتزلون الفتنة، أو يعترضون على تصرفات الغوغائيين في المدينة. ويرسل علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الجديد عماله إلى

الأمصار ويرسل فيمن يرسل سهل بن حنيف إلى الشام ليتولى أمرها، ويعزل معاوية، ويُردّ الوالي الجديد من حدود بلاد الشام، ويبقى معاوية في حاضرته ينتظر ما يؤول إليه الأمر، ثم تصل إليه أخبار جديدة بأن عدداً قد خرج من مكة إلى البصرة معارضين للخليفة في المدينة، وعلى رأسهم أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وطلحة، والزبير، إذن يفهم من هذه الأخبار، أن الأمر لم يستقر لعلي بعد ولا بد من الانتظار في البيعة، وانتظر، وانتظر معه مجتمع الشام. وحدثت أحداث البصرة التي ذكرنا وقعت معركة الجمل وتأسف المسلمون لما تم، وكل هذا جعل عامل الشام معاوية بن أبي سفيان ينتظر في إعطاء البيعة للخليفة الجديد، وهذا ما رآه، ورآه معه عدد من الناس، ويُعدّ اجتهاداً.

أما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيرى غير ذلك، إذ ينظر إلى معاوية على أنه عامل للخليفة، إن طلب منه ترك العمل تخلى، وإن طلب منه الاستمرار تابع، فهو تبع وليس بمجتهد في هذا الأمر، والوالي ليس عليه إلا أن يبايع هو وأهل مصره إذا بايع أهل المدينة وقد بايعوا فلماذا هذا التواني؟ فهل أصبح من أهل الشورى ليؤخذ رأيه في البيعة؟ وقد عزله الخليفة فعليه الامتثال والطاعة، هذه نظرة علي إلى معاوية، وهي صحيحة، أما بالنسبة إلى الأوضاع فيرى أنها غير مستقرة والمنحرفون لا يزالون في المدينة، فيجب الانتهاء من موضوع البيعة، وطمأنينة الناس، فمتى تم هذا يستطيع الخليفة صرف المنحرفين إلى أمصارهم، فيتوزع أمرهم، ويضعف شأنهم، وعندها تقام عليهم الحدود ويقتص منهم بما اقترفت أيديهم، أما الآن فلهم قوتهم، ويتمكنون من المدينة فيصعب القصاص، لأنه ربما إن فعل أمير المؤمنين ذلك اعتدوا هم عليه ومن أهل المدينة، وهو اجتهاد، ويؤجر عليه إن شاء الله تعالى. ولم يقبل سيدنا علي من عامل الشام هذا التصرف الّذي هو عليه، وليس أمامه إلا تنفيذ أوامره، وأمير المؤمنين هو الذي لا يعرف إلا الشدة بالحق، ولا يعمل إلا بالحزم، واللين عنده نوع من الضعف، لذا قرر التعبئة والنهوض إلى الشام، وعبأ الجند، وهو يريد

السير إذ جد له أمر الركب المكي فسار وراءهم نحو العراق، وتغير خط حركته من الشام إلى البصرة، ووقعت معركة الجمل في منتصف جمادي الآخرة، ودخل إثرها البصرة، فأصلح فيها، فعفا عن المسيء، وواسى المنكوب، ووزع الأموال على الغالب والمغلوب، ثم ولّى عليها عبد الله بن عباس، وبعد قضاء مدة فيها تحرك إلى الكوفة ليتابع سيره إلى الشام قصده الرئيسي الذي كان.

وصل إلى الكوفة في نهاية شهر رجب من عام ٣٦هـ، ومكث فيها مدة أربعة أشهر استعد خلالها للقتال، وعبأ الجند، ولم يكن يرفق بنفسه ولا بأصحابه، هكذا اعتاد خلال حياته، يسلك الطريق المستقيم مهما اعترضه من صعاب، ويحث السير فيها مهما وجد من عقبات، ولم يكن أصحابه يرفقون بأنفسهم يسيرون سير أميرهم.

أرسل علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يطلب منه أن يبايع، وأن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويبين حجة علي ورأيه فيما يطلب إليه، ولكن معاوية لم يعط جواباً، ورجع جرير دون جواب، ولكن بعض أصحاب علي كانوا يريدون الجواب السريع، لذا عدّوا أن جريراً لم يقم بالمهمة المنوطة به كما يجب، فأسمعه الأشتر كلاماً تأثر منه، فغادر المعسكر، وأقام في قرقيساء عند التقاء نهر الخابور بنهر الفرات. وبالمقابل فقد أرسل معاوية رسلاً كان منهم أبو مسلم الخولاني، ولكن لم تؤد تلك الرسل إلى نتيجة، وهذا ما جعل أصحاب علي يحثونه للسير، فما دخل شهر ذي الحجة إلا وكانت طلائع علي في بلاد الشام إلا أنه أمرهم ألا يبدؤوا بقتال قبل أن يدركهم...

وعلم معاوية بحركة جيش العراق فأسرع بجند الشام، ووصل قبل علي إلى صفين، ونزل مكاناً مناسباً يمكنه وجنده من الشرب من نهر الفرات، وعندما وصل علي إلى ذلك المكان وجد جنده في ظمأ، فطلب من معاوية أن يكون الماء حراً، ولكنه لم يحصل على جواب، الأمر الذي أدى إلى احتكاك، وانتصر جند العراق وأزاحوا جند الشام عن مواقعهم،

ولكن علياً أمر أن يكون الماء حراً يشرب منه الطرفان بكل وقت يريدون.

وأقام الفريقان عدة أيام يلتقون على الماء، ويسعى بعضهم إلى بعض، وربما يسمرون معاً دون قتال، ولكنه جدال ومناقشات تحدث، وربما يقف المرء أمام هذا طويلاً يسترجع ما صوره المؤرخون عن الخصومة العنيفة بين الجانبين، والرغبة الملحة من كليهما لقتل الآخر، وما هي كذلك إن هي إلا خلاف في الرأي، وأخوة غير ظاهرة بسبب ذلك التباين في الاجتهاد.

ثم وقع القتال، ولم يكن على شكل هجوم كاسح بالإمكانات كلها وبالطاقات كافةً، وكل منهما يبغي استئصال الفريق الآخر، وإنما هذا ما كان يخشاه الجانبان فإن القتل من أي طرف إنما هو إضعاف للمسلمين، لأن هؤلاء الحضور من أي جانب كانوا إنما هم جند المسلمين وقوتهم، وعلى عاتقهم حماية الثغور، وإتمام الفتوحات، لذا كانت تتقدم فرقة إلى فرقة لعل الله يصلح الأمور، وتثوب العقول إلى رشدها، واستمر ذلك مدة شهر ذي الحجة، وأهل شهر المحرم فتوقف القتال، وتصافوا لعلهم يتصالحون، وكثرت السفراء بين الفريقين ولكن دون جدوى. ولا بد هنا من وقفة قصيرة هل يترك الحقد لهم مجالاً للتفكير بالتوقف عن القتال لو كان هناك حقد كما يصوّر ذلك المغرضون؟ ألا أن النفوس طيبة، وفي القلوب محبة صادقة تستغل أي شيء لعل الأمر يهدأ، ويتم الصلح. ومع ذلك فقد بقي كل على رأيه، مصر على موقفه، علي واضح، بيّن رأيه، ومعاوية لا يبدي تجاوباً، وكان لا بد من القتال العام.

عادت الفرق من الجانبين يناوش بعضها بعضاً، واستمر ذلك مدة النصف الأول من شهر صفر من عام ٣٧هـ، فلما رأى الطرفان أن التأخير لا يفيد كان لا بد من حملة عامة، وكانت، واستمر القتال ثلاثة أيام قتل من الفريقين العدد الكثير، فقد قتل عمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص من أصحاب علي، وقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب من أصحاب معاوية، وظهرت علائم الهزيمة على جيش الشام، ورفعت المصاحف،

وتوقف القتال، وعلى الرغم مما قيل من أن قسماً من جند العراق لم يكن يرغب في وقف القتال، ومنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نفسه، والأشتر النخعي أحد القادة البارزين والذي استمر في القتال على الرغم من إعطاء الأوامر له بالكف عن متابعة القتال، إلا أن الأمر قد تم، وتوقف القتال، فالمسلمون ينتظرون من كل بارقة أمل أن يكون فيها الصلح، ولو لم يكن ذلك لما توقف القتال، والنصر قد لاح لفريق وهو الطرف الشرعي، ويقاتل بضراوةِ الطرف المعاند حسب رأي أمير المؤمنين على الأقل. ولما سأل الأشتر النخعي معاوية بن أبي سفيان عن رأيه، أجابه بفكرة الحكمين.

توقف القتال، وكتبت صحيفة التحكيم، وشهد عليها رجال من الطرفين، وجند الشام راضون وجند العراق بين راض وساخط وساكت مكرهاً. وبعد يومين من ذلك العقد أذن علي بالرحيل إلى الكوفة بعد أن دفنوا موتاهم، وسار الموكب نحو الكوفة، على حين تحرك معاوية بجيشه نحو دمشق.

لم يدخل جيش علي كله الكوفة كما خرج منها، وإنما انحازت جماعة منه إلى حروراء مخالفين ما في صحيفة التحكيم، وغاضبين عما تم، وقد رتبوا أمورهم، فجعلوا أمر الحرب إلى شبث بن ربعي التميمي، وكان عبد الله بن الكواء يصلي بالقوم، فأرسل علي إليهم الرسل علهم يعودون إلى صوابهم، ويرجعون إلى إخوانهم وربما كانوا يفكرون في ذلك، لذلك كانوا يطالبون علياً بالعودة إلى القتال، وترك التحكيم، وعاد بعضهم، ومنهم أمير حربهم شبث بن ربعي التميمي، ثم أرسل علي إليهم عبد الله بن عباس فناقشهم وأطال معهم الجدال، ثم ذهب إليهم علي بنفسه وحاجهم، وعادوا جميعاً فدخلوا الكوفة، وظن أن الأمر قد انتهى، إلا أنهم بقوا على الدوام يعلنون عن آرائهم، ويصيحون صيحتهم (لا حكم إلا الله) التي يقول عنها أمير المؤمنين: كلمة حق أريد بها باطل، ويناقشون، ويظنون أن علياً سيعود إلى القتال، وإنما ينتظر الناس حتى تستريح، وبعدها ينهض للحرب.

اجتمع الحكمان في دومة الجندل، ولم يتفقا على شيء بل رجعا من غير تفاهم، وإنّ ما يردده المغرضون وينقله العامة ليس بالصحيح، فلم يكن أبو موسى الأشعري ذلك الرجل المغفل البسيط الذي يلعب به، وهو الصحابي الجليل، والوالي لعمر بن الخطاب على الأمصار، وعمر لا يمكن أن يولي عاملاً من النوع الذي ينعت به المؤرخون أبا موسى، كما أن عمرو بن العاص لم يكن ذلك الرجل على تلك الدرجة من الغدر وقلة الدين، وعدم الوفاء والمروءة، وإنما افترقا من غير اتفاق.

أراد علي بعد فشل التحكيم أن يستعد للنهوض إلى الشام، وطلب من واليه على البصرة عبد الله بن عباس أن يستعد بأهل مصره، فأرسل ابن عباس المقاتلين، إلا أن علياً قد لاحظ أولئك الذين خرجوا من عسكره بالأمس ثم عادوا، قد بدؤوا يتسللون رتلاً إثر رتل، ويكتبون إلى إخوانهم في البصرة ليوافوهم في النهروان، فسكت عنهم، وأراد أن يتركهم وما خرجوا له، وقال: إن سكتوا تركناهم، وإن تكلموا جادلناهم، وإن أفسدوا قاتلناهم، ورغب أن يسير إلى الشام ويتركهم وشأنهم، إلا أن فسادهم قد بدأ، فقد قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرث، وذبحوه ذبح النعاج، وقتلوا نسوة معه، فأرسل إليهم رسولاً فقتلوه، عندها اضطر إلى العودة إليهم، والتخلص منهم بصورة من الصور قبل أن يسير ويتركهم وراءه يعيثون في الأرض الفساد، فسار إليهم، وجادلهم، وطلب منهم تسليم قتلة عبد الله بن خباب بن الأرث فقالوا: كلنا قتلة، وتمادوا في الرد، ثم هجموا على جيشه، وبدؤوا بالقتال، فاضطر إلى حربهم وإبادتهم في مكانهم في النهروان، وكان أكثرهم من أهل الكوفة، وجيشه من أهل الكوفة، فقد قتل زيد بن عدي بن حاتم معهم، وأبوه عدي بن حاتم في جيش علي، وأكثر القتلى كانوا بهذه الصورة أو قريبة منها، فغدا جيشه حزيناً كئيباً على قتلى خصومه أو قتلى أهله فتغيرت النفوس، وتبدلت الطباع، وعلى هذه الصورة كانت تلك المعارك التي دارت في ذلك الوقت بين المسلمين: اختلاف في وجهات النظر وفي الرأي فينحاز كل فرد إلى جانب، ويقاتل فمن قتل فقد انتهى، ومن قتل فقد أصيب بمن فقد.

رأى علي بن أبي طالب أن ينتظر قليلاً ليستريح الناس من تعب القتال، ولينسى الذي أصيب مصيبته، وكان معاوية بن أبي سفيان بالشام قد سمع استعداد علي للسير إلى الشام فأسرع إلى صفين ولكن لم يجد للعراق جيشاً، وانتظر، وجاءت أخبار الخوارج، وما حدث بينهم وبين علي، فعرف الأمر، وقفل راجعاً إلى الشام، وقد أراح واستراح.

رأى علي أن جنده قد استراحوا وحصلوا على ما أحبوا فدعاهم للقتال فلم ينفروا، وحثهم فلم يستجيبوا، وحرضهم فلم يسمعوا، وكان يخطبهم، ويقسو عليهم، فيسمعون ثم يخرجون ولكنهم كأنهم لم يسمعوا كلاماً حتى ضاق بهم علي، رضي الله عنه، ذرعاً وتمنى لو لم يعرفهم، وكانت حياته معهم محنة شاقة، وعيشاً مليئاً بالمشاق والصعاب والمنغصات يأمر فلا يطاع، ويدعو فلا يستجاب له، ولربما حدث هذا مع أهل الكوفة بسبب ما خاضوا من حروب مع إمامهم، إلا أنهم رأوها عندما فكروا أنها بين المسلمين بعضهم مع بعض، وبسبب الحزن الذي أصابهم فقدوا إخوانهم في النهروان، وربما بسبب ما لاحظوه من توقف الفتوحات، وعدم امتداد سلطان الدولة كما كان، بل أخذ في الاضطراب؛ إذ طمع الروم بثغور الشام فأسكتهم معاوية بدفع جزء من المال ريثما تنتهي خلافات المسلمين، واضطربت ثغور المشرق على عمال علي، وكان ذلك يكلفه العناء الكبير حتى يهدأ الوضع وتستقر الحال. وربما كان بسبب أوضاعهم المادية الحسنة إذ كان علي، رضي الله عنه، يقسم لهم المال باستمرار، ويعطيهم أعطياتهم، ويحب بين المدة والمدة أن يكنس بيت المال ويصلي فيه ركعتين، فلربما وجدوا في ذلك راحة مغرية، ودعة مطمعة فأخلدتهم إلى الأرض، ورغبتهم بالاستقرار. وكل هذا يجعل أمر علي صعباً وحياته قاسية وفي الوقت نفسه يبعد التفكير عند معاوية عن البيعة والدخول فيما دخل فيه الناس، حيث يرى أن وضع الخليفة غير مستقر، وكلمته غير مسموعة، وعدداً من الصحابة لم يبايعوا...

وظهر لعليٍّ أنه قد انتهى من الخوارج في النهروان، إلا أنه قد تبين له

بعد حين أنه ما انتهى إلا من عدد قليل منهم أو جزء منهم، وأن في معسكره في الكوفة عدداً منهم، وكانوا يجاهرون برأيهم، ويناقشونهم، وهذا ما زاده إلا غما على غم، ولما رأى ما رأى، ونظر إلى أنه يدعو فلا يستجاب له، لذا كان هادئ الطبع يناقشهم ويستمع إليهم، ولا يمنع عنهم أعطياتهم، وكانوا يعايشونه ويعايشون عامله على البصرة، ويخرجون تحت جنح الظلام ليلتقي بعضهم مع بعض، وقد يعيثون الفساد، ويقتلون إن رأوا مسلماً، فكان علي لذلك يتمنى الموت، ويقول: ما يُؤخّر أشقاها؟ أي ما يمنع أشقى الناس أن يقتله، ويريحه مما يجد من أصحابه، وكان يعلم أنه سيموت شهيداً حسبما أخبره رسول الله ﷺ، وأنه سيقتله أشقى الأمة.

وأصبح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الكوفة، وواليه عبد الله بن عباس في البصرة يأمران فلا يجابان، الأمر الذي جعل عبد الله بن عباس يفكر في الخلاص مما هو فيه كما يفكر الخليفة بالذات، ويقال إن ابن عباس قد ترك الولاية لزياد بن أبيه، وارتحل إلى مكة، ليعيش فيها بعد أن أعياه أصحابه، والحقيقة أنه لم يترك، بل بقي فيها حتى قتل الخليفة، بل وحتى بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، ثم سافر بعد ذلك إلى مكة، ولربما لو كان علي وزيراً لفعل ذلك لشدة ما وجد من رعاياه، ولكن الأمير لا يمكن أن يفعل ذلك.

ووجد جند الشام أن الخليفة لا يطاع، ولم يعد له إلا الرمز في السياسة الشامية، ولكنه يقوم بإدارة البلاد بكل حزم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فأمعنوا في المعارضة. فاستطاع عمرو بن العاص أن يدخل مصر، وأن يحكمها بعد مقتل محمد بن أبي بكر والي علي عليها، ولم يستطع الأشتر النخعي أن يصل إليها، إذ مات بالطريق وهو ماضٍ إليها وذلك عام ٣٨هـ، إذ أن الأشتر كان مع علي في صفين فلما عاد منها أعاده إلى عمله بالجزيرة أميراً على مدينة (نصيبين) ثم وجهه إلى مصر فمات مسموماً. أما قيس بن سعد بن عبادة فكان على شرطة علي.

أرسل معاوية بن أبي سفيان إلى البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي

حيث يوجد في هذا المصر من يطالب بثأر الخليفة عثمان بن عفّان، ومن نكب في معركة الجمل، فحدثت اضطرابات، ولكن لم يصل إلى نتائج مرضية له.

وفي عام ٣٩هـ، فرق معاوية جيشه على أطراف أملاك علي، فأرسل النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر، وأرسل سفيان بن عوف في ستة آلاف إلى هيت، فلم يجد بها أحداً، فسار إلى الأنبار فأغار عليها ثم عاد. وأرسل الضحاك بن قيس إلى جهات تدمر، ولكنه هزم أمام حجر بن عدي الكندي قائد علي. وأرسل عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وكانت غارات أهل الشام هذه أن زادت أهل العراق خوفاً، ورغبة في السلم، وعدم النهوض إلى القتال.

وأرسل معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي أميراً على الموسم ليقيم للناس حجهم، فلما دنا من مكة خافه قثم بن العباس عامل علي عليها فاعتزله، وتوسط الناس في الأمر، واختاروا عثمان بن أبي طلحة أميراً للحج في ذلك العام ٣٩هـ، وعرف علي مسير يزيد بن شجرة فندب الناس لرده فتثاقلوا، ثم أرسل معقل بن قيس في جند فوصلوا عندما كان الموسم قد انتهى، ولكنهم أدركوا مؤخرة يزيد، فأسروا نفراً منهم، وعادوا بهم إلى الكوفة.

ولما اختلف الناس على علي، طمع أهل فارس، وأهل كرمان فحجبوا الخراج، وطردوا سهل بن حنيف عامل علي هناك، فبعث إليهم علي زياد بن أبيه فأعاد الأمن وضبط المنطقة.

وفي عام ٤٠هـ أرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أرطأة إلى الحجاز في ثلاثة آلاف رجل، فدخل المدينة، وخرج منها عامل علي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، واتجه إلى الكوفة، وبايع أهل المدينة بسراً ومنهم بعض الصحابة أمثال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن زمعة، وعمر بن أبي سلمة، وذلك برأي أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، إذ خافت عليهم، وخافوا على أنفسهم.

ثم انطلق بسر بن أرطأة إلى مكة المكرمة فخافه أبو موسى الأشعري، إلا أنه عفا عنه، ومن مكة سار بسر إلى اليمن التي عليها عبيد الله بن عباس من قبل علي، وكان قد لقي من أهلها فظاظة فكتب إلى أمير المؤمنين بذلك، فأرسل إليهم يستصلحهم، ولكن لم تصلح معهم الرأفة والرحمة، فهددهم فخافوه، فكتبوا إلى معاوية يستنصرونه فسار إليهم من مكة بسر، وهو يريد الإيقاع بهم، وهمّ بسر أن يقسو على أهل الطائف إلا أن المغيرة بن شعبة نصحه فعدل عن رأيه، ولما وصل إلى اليمن كان عبيد الله بن عباس قد غادرها إلى الكوفة بعد أن استخلف عبد الله بن عبد الله المدان إلا أن بسراً قد دخلها، وأرسل علي إلى جزيرة العرب جارية بن قدامة، ومعه ألفان، ووهب بن مسعود ومعه ألفان، وسار جارية حتى أتى نجران، ففرّ بسر إلى مكة، فتبعه جارية فدخلها، وطلب من أهلها البيعة، فقالوا له: هلك أمير المؤمنين، فقال: بايعونا لمكن بايع له أصحاب علي فبايعوه، ثم سار جارية إلى المدينة فدخلها وكان يصلي بالناس أبو هريرة، رضي الله عنه، ثم بايع أهل المدينة الحسن بن علي.

كان علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، خلال هذه المدة كلها لا تشغله الأمور السياسية، ولا تحرفه عن طريقه تصرفات أصحابه وتخاذلهم، ولا يمنعه ما لقي من بعض الولاة أن يتبع الصراط المستقيم وأن ينطلق من خلال فقهه وعلمه، فقد كان عمر بن الخطاب يقول: علي أقضانا، وقد سار علي بالناس سيرة عمر التي عرفت بالحزم، فقد منع الصحابة من مغادرة المدينة، وكان يحمل الدرة ويؤدب الناس بها، ثم الخيزرانة عندما لم تجد الدرة، ويمر بالأسواق، ينظر بالأسعار ويراقبها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجلس للناس في المسجد يحل مشكلاتهم، ويقضي لهم، ويعظ الناس، ويخطبهم.

مقتل علي: اجتمع عدد من الخوارج فتذاكروا فيما آل إليه أمر المسلمين، وتذكروا قتلاهم يوم النهروان، فثارت بهم الحمية، ورأوا أن علياً، ومعاوية، وعمراً من أسباب بلاء الأمة ـ حسب رأيهم وما توصلوا إليه

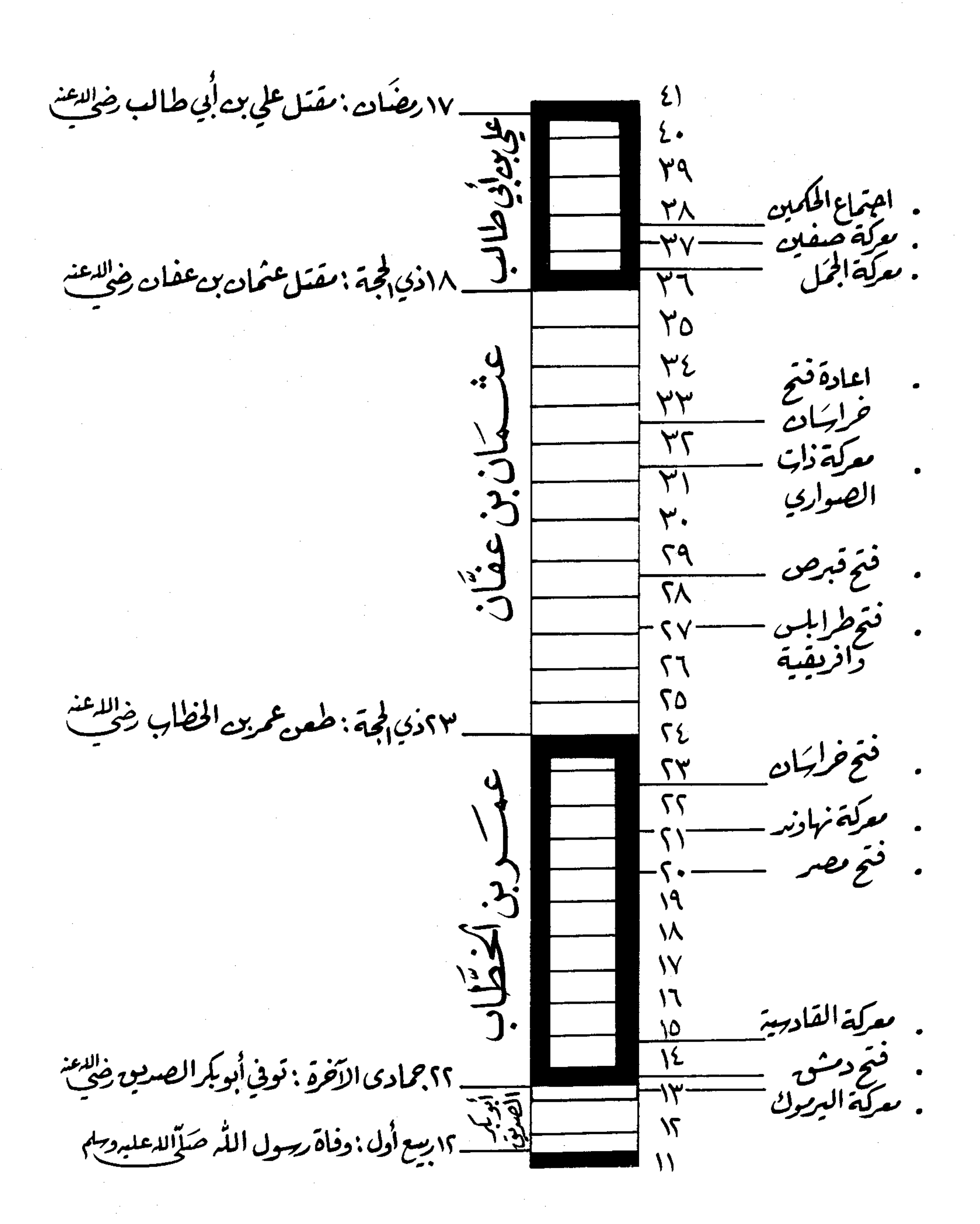
ـ لذا قرروا التخلص منهم. فتعهد عبد الرحمن بن ملجم المرادي علياً، وأخذ البرك بن عبد الله على عاتقه قتل معاوية، ووعد عمرو بن بكر التميمي بالتخلص من عمرو بن العاص، وتواعدوا كتم أمرهم، وأن يسير كل حسب جهته الموكل بها، وأن يكون موعدهم لتنفيذ الخطة صلاة الفجر من يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ.

ومرّ عبد الرحمن بن ملجم على تيم الرباب فوجد بينهم فتاة رائعة الجمال تدعى قطام ابنة الشجنة وكانت ممن أصابها وأصاب قومها النكبات يوم النهروان: فخطبها ابن ملجم، فاشترطت عليه مهراً كبيراً مقداره ثلاث آلاف دينار، وعبد، وقينة، ثم رأس علي، فوافقها وأسرّ لها مهمته بعد أن قال لها: هذا طلب من لا تريد العيش مع زوجها، فأجابته: إن نجوت عشنا خير حياة، وإلا فزت بالجنة ـ حسب زعمها ـ وهو في الواقع أشقى من عليها. وجاء اليوم الذي اتفقوا عليه، فضرب ابن ملجم علي بسيفه المسموم فقتله، وأما معاوية فأصابه يومها البرك بن عبد الله في إليته، فنجا بعد مداواة، فاتخذ بعدها المقصورة، وأما عمرو بن العاص فلم يخرج يومها للصلاة لمرض أصابه، وكلّف مكانه صاحب شرطته خارجة بن حذافة فقتل.

ودخل جندب بن عبد الله على علي بعد إصابته فقال له: يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك أفنبايع الحسن؟ فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. ونهى علي عن المثلة بقاتله وقال: إن مت فاقتلوه بي، وإن عشت رأيت رأيي فيه. ثم لم يلبث أن توفي، وغسله الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكفن، وكثرت الروايات حول دفنه، الأمر الذي جعل قبره مجهول المكان.

واتجه الناس إلى الحسن فبايعوه وكان أول من بايعه قيس بن سعد، وبقي الحسن في الخلافة ستة أشهر رأى خلالها تخاذل أصحابه، وضرورة اتفاق الأمة، فآثر الصلح، ودعا معاوية إليه فوافق، وتنازل الحسن له في ٢٥ ربيع الأول عام ٤١هـ، ودخل معاوية الكوفة، وانتقل الحسن، والحسين إلى المدينة. ويبدو أن الحسين لم يكن برأي أخيه وكذا قيس بن سعد.

وهكذا انتهت مدة الخلافة الراشدة التي سارت على نهج رسول الله ﷺ، وبدأت بعدها زاوية الانحراف تنفرج تدريجياً.



١٧ رمضان : مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
علي بن أبي طالب
١٨ ذي الحجة : مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه
عثمان بن عفان
٢٣ ذي الحجة : طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
عمر بن الخطاب
٢٢ جمادى الآخرة : توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه
أبو بكر الصديق
١٢ ربيع أول : وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤١
٤٠
٣٩
٣٨
٣٧
٣٦
٣٥
٣٤
٣٣
٣٢
٣١
٣٠
٢٩
٢٨
٢٧
٢٦
٢٥
٢٤
٢٣
٢٢
٢١
٢٠
١٩
١٨
١٧
١٦
١٥
١٤
١٣
١٢
١١
اجتماع الحكمين
معركة صفين
معركة الجمل
اعادة فتح خراسان
معركة ذات الصواري
فتح قبرص
فتح طرابلس وافريقية
فتح خراسان
معركة نهاوند
فتح مصر
معركة القادسية
فتح دمشق
معركة اليرموك



فهرس الموضوعات